

# مُونْتَرَلَاتْ رَافَة بِالنِّسَاء



السَّعْدِىَّة





النسخ كامل

## للمؤلف في سلسلة ماريان

- الصبايا
- رافة بالنساء
- شيطان الخير
- المجدومات
- الملكة الميتة

### قيد الاعداد

- سيد سانتياغو
- بور رويال

# مأثور

رَوَايَةُ الْأَدَبِ وَالْفِكْرِ مَنْقُولَةٌ إِلَى الْعَمَلِ

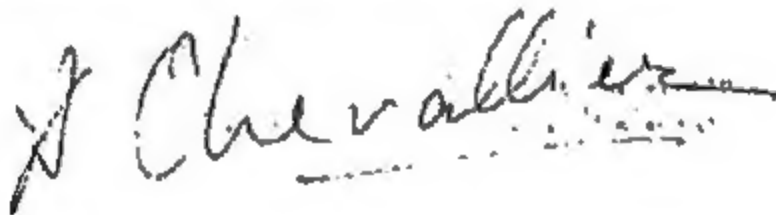
# Editions Gallimard

5, rue Sébastien-Bottin  
75341 Paris Cedex 07  
Téléphone 5-44-39-19  
Télex GALLIM 204121 F  
Adresse télégraphique:  
ENEREPENE Paris 044  
Société anonyme au capital  
de 8 737 300 F  
572206753 B R.C. Paris

## LES EDITIONS GALLIMARD

ont cédé par contrat en date du  
4 Novembre 1982 aux EDITIONS OUEIDAT  
à Beyrouth, pour la collection "Marianne"  
les droits exclusifs de traduction,  
publication et diffusion en langue arabe  
dans le monde entier de l'ouvrage

Henry de Montherlant : PITIE POUR LES FEMMES  
deuxième volume d'une série de quatre  
intitulée LES JEUNES FILLES.



© منشورات عويدات - بيروت

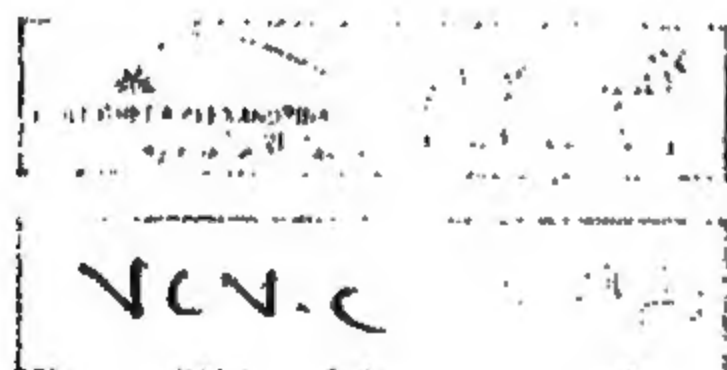
جميع حقوق الطبعة العربية في العالم وفي البلدان العربية  
خاصة محفوظة لدار منشورات عويدات - بيروت ، بموجب  
اتفاق خاص مع دار غاليمار Gallimard - باريس .

الطبعة الأولى ١٩٨٧

مُونْتَرَلَاتْ

# رَافَة بِالنِّسَاء

تَرْجَمَة وَتَعْلِيْق  
جُورْجْ مَضْرُوعَة



عَهْدَاتْ

هذا الكتاب هو الحلقة الثانية من سلسلة عنوانها «الصبايا» . ويجب  
ان تقرأ هذه السلسلة حسب التدرج التالي :

١- الصبايا

٢- راقية بالنساء

٣- شيطان الخير

٤- المجلدات



## تقديمه

يذكر المؤلف قراءته بما اشار اليه في مقدمة الحلقة الاولى :  
« الصبايا » ، من انه اراد عمداً ان يكون بطله « كوستال » شخصية  
مريبة تبهث القلق في النفس ، وكربة تثير الاستعزاز ، وليس من الانصاف  
ان نلغزى آراء هذه الشخصية واعمالها الى المؤلف الذي خلقها .

جعل المؤلف من الملزم الاول « اوليني » بطل رواية « وردة  
الرمال » ، فكان هذا البطل متحلياً بأرفع المزايا الخلقية : الوطنية ،  
الاحسان ، كره المنف ، التفاني في سبيل العدالة ، التألم حيال الظلم ( حتى  
انه كان يمرض من شدة الألم ) ، رهافة الشعور ، التمسك بالفضيلة حتى  
المبالغة ، روح التضامن الانساني ، الرغبة في خدمة الناس حتى الامعان  
في ارهاق النفس ، الخ ...

وقد مثل هذا البطل ، في كتاب يزيد على ثمانمائة صفحة ، دوراً لا  
يقل اهمية عن دور كوستال في هذه السلسلة . وفي رواية « وردة الرمال »  
لفاصيل تدعو الى الظن ان مؤلفها يروي قصة حياته تحت ستار بطل  
روايته كما هي الحال بالسلسلة الى كوستال ، أفيجوز للقراء ان يمزوا الى  
المؤلف فضائل « اوليني » لدى اطلاعهم على « وردة الرمال » ، ثم  
مثالب كوستال حين يقرأون هذا الكتاب ؟

خلق الله الرجل ليكون سعيداً .

لا وجود للخطيئة .

ترقد البهيمة في مقاصبنا كما ترقد في مقاصب التار؛ انها تختار  
رجلها حيث يكون مقامها؛ وتأخذ ما يرسله الله اليها .

تولستوي

في كتابه « القوزاق »

( ورد هذا القول على لسان فلاح من قبيلة « كشينين » التي كانت  
في حالة حرب مع التار . )

كانت في بلدة ن... ، عام ١٩١٨ ، فتاة في الثانية عشرة من العمر ، أطلق عليها ذوها لقب : « الصغيرة الهادئة » . لم تكن لها صديقات ، فكانت تلعب وحدها في البيت وهي صامئة طوال ساعات متوالية . وكانت تجلس الى المائدة فلا تفوه بكلمة في اثناء تناول الطعام . قيل فيها انها « صبي » لانها كانت تقوم بنزهات طويلة وحدها ، جرياً على القدمين ، او على دراجة هوائية ، ولا تبدي اقل رغبة في ما تحبه الفتيات اللواتي في مثل سنها ، فاهيك بانها كانت شجاعة ، تجلس وحدها في زورق ، او في الظلام ، او في بيت منفرد ، دون ان يساورها اقل خوف . ولكنها كانت شديدة الحجل ، فاذا نسيت الخادمة ان تقدم لها لونا من الطعام على المائدة ، لزممت الصمت ، وامتنعت عن المطالبة ، وصبرت على جوعها . وكانت في المدرسة قليلة لا بأس بها ، اي انها كانت متأخرة صفاً واحداً بالنسبة لسنها . وبين الثانية عشرة والرابعة عشرة من سننها حاول ذوها تعليمها المزف على البيانو ، فما افلحوا . ومن الرابعة عشرة الى السادسة عشرة بذلوا جهوداً كبيرة لتلقيها المزف على الكمان ، فباءت جهودهم بالافئاق . وبعد اربع سنوات من العناء المتواصل ومن بذل الوف الفرنكات ، ادركوا ان ابنة السكوت هذه لم تخلق لتحدث ضجيجاً . ثم اضطروا الى الاستغناء عن الراديو لأنه يضايقها حق الاثارة . واخيراً ، اراد ابوها ان يعطيها الرسم ، وكان من الهواة الموهوبين في هذا الفن ، ولكنه اضطر الى القاء سلاحه والاعتراف بالهزيمة بعد محاولات عديدة . والحق يقال انه لم يكن فيها ميل الى شيء ، او رغبة في شيء .

فبدأ القلق يساور ابها السيد دنديتو . ولكي يساعد ابنته على « تكوين شخصيتها » تكويناً مرموقاً ، راح يفرض عليها كتابة رسائل غارة الى احد اعمامها ، وطوراً الى عرائسها ، مشروطاً عليها ان تكون رسائلها « مبتكرة الاسلوب » ، فكانت تكتب مسخرةً والدم يغلي في صدرها ريصغ وجنليها بلون الارجوان .

كان السيد دنديتو يطالب ابنته برسائل مبتكرة ، وكان نموذجاً « مبتكراً » بين الرجال . كان ابوه مدعيًا عاماً ، فدرس هو الحقوق عملاً بتقاليد العائلة . ولكنه ترك المحاماة بعد أن مارسها سنة واحدة ، وترك معها كل متاعب الاهتمام بكسب المال ، مع ان ثروته لم تكن تتجاوز امكانات الرجل اليسور . وما إن عرفت ألعاب القوى في فرنسا ، عام ١٨٨٧ ، حتى انصرف اليها انصرافاً كاد يكون كلياً ، وكان في الحادية والعشرين من العمر ، وأنشأ في ن ... نادياً رياضياً . وكانت السباحة ، بنوع خاص ، تثير حميته حتى اصبح رسولها المبشر بفوائدها . ولا بلغ سن النضج ، ولم يكن يفكر الى شيء من الذكاء والثقافة ، هجر الرياضة بمفهومها النارج ، وانصرف الى التربية البدنية . واستقال من رئاسة ناديه التي خدت في نظره ضرباً من المهرطقة ، ونذر نفسه روحاً وجسداً لـ « الطريقة الطبيعية » في الرياضة البدنية التي ظهرت آنذاك في فرنسا . وقد نشرت مجلة « إلستراسيون » ، عام ١٩١٠ ، صورة أخذت في « معهد الابطال الرياضيين » بمدينة « ريلس » ، ظهر فيها السيد دنديتو في ثياب راجع يوناني ، مزدان الوجه بشاربين جميلين حسب الزي الراجح في ذلك الزمان .

قاطع الحياة الاجتماعية الدارجة مقاطعة رسمية ، وباع حتى طقمه الـ « فراك » : رمز الدنس الببائلي<sup>١</sup> ، ولم يعد يحتم إلا بالهواء الطلق ،

١ - اشارة الى ما جاء في قصيدة على ألسنة بعض الاقبياء من اتهام مدينة بازل بالبدخ والفسوق والانتهاك في المقات العنينا .

والشمس ، وتقنين غذائه ، وقياسات جسمه ، ووزنه ، فترق في الجداول والارقام الثلاثة على ما يجب ان يعمل الانسان ، وما لا يجوز له عمله ليظل « طبيعياً » . ولا نقالي اذا سمينا هذه الجهود : الاشغال الشاقة المؤدية الى الحياة « الطبيعية » . ولكن دنديتو لم يكن طبيعياً في سعيه وراء الطبيعة ، فراح يتوسل اليها بالحيلة ، وبالساليب المضحكة التي تشوش حياة كل رجل متزن ، سلم الحواس ، حتى ولو استطاعت التنسيق بين النزعة الطبيعية والحياة الاجتماعية المعقولة ، وهذا ما يتعذر تحقيقه عملياً .

وأمن دنديتو في التزام « الطهارة » . ولا بلغ الحسن من منيته استلهم « تولستوي »<sup>١</sup> ووضع لنفسه مبادئ واضحة ، منها : ان الرجل لا يصبح طبيعياً إلا اذا كانت طاهر الجسد وأحب اخاه الانسان . وبهذا المبدأ تكرس البغض القديم الذي كان دنديتو يضره لايه - وكان بغضاً بنوياً بسيطاً - لأن المدعي العام كان قد تسبب في اعدام بعض المجرمين . إلا ان هذا التظاهر بالطيبة كان مبطناً برواسب كثيفة من الدناءة ، والتناق ، والعناد ، والسذاجة ، كأن نفس دنديتو مبقعة كجلد الفهد ، غلبها بقع من الذكاء الساطع ، وبقع سوداء من السخافة والغباء . وعلى الرغم من كونه رب عائلة ، كان يعيش عيشة اعزب متبتل ، ويحمل كل ما في العزوبة من صفات ونزوات . وكان اخيراً من ابعد الناس عن الابتكار والخلق ، حتى انه لم يستطع ان ينجز طوال حياته - وكان قد بلغ الستين - كتاباً في الحياة الطبيعية ، فكر به قبل الحرب العالمية الأولى ، وهو كناية عن تكديس معلومات منقولة من هنا وهناك عن افواه اساتذة الرياضة . نكتفي الآن بهذا القدر في وصف السيد دنديتو ، لأنه سيصف نفسه

---

١ - كاتب روسي كبير . ولد عام ١٨٢٨ ، وتوفي سنة ١٩١٠ . من أشهر مؤلفاته : « الحرب والسلام » ، و « آنا كارينين » ، و « البعث » . عمل خلاقاً ، ورجلاً واسعاً . اشتهر بحب الطبيعة ، ووصفها وصفاً حبيباً الى القلوب .

في الفصول الآتية من هذا الكتاب .

سنة ١٩٣٣ ، توفي شقيق سولانج البكر في جزيرة مدغشقر حيث الشأ مشروعا زراعيا ، فاستقرت امرة هنديشو في باريس ، وأرسلت سولانج الى معهد خاص بتلقين الفنون المنزلية .

وأصبحت سولانج مكتبة الاثوة لما بلغت خمس عشرة سنة وثلاثة اشهر من العمر ، بعد ان اجتازت مرحلة المراهقة دون اقل اضطراب جنسي . لم يساورها شيء من الشعور بالذنس الجسدي ، ولا من الكتابة ، والاسياء ، والتهرب ، والنظرات الخفية القلقة الموجهة الى ابها وامها ، ولا من الرغبة في الابتعاد عنها حين يكونان معا ... ولم تخلف مرة واحدة بالابتعاد عن الحب الى الابد ، كما تفعل الفتيات الطاهرات ، المراهقات الاحساس عندما يعلنن هذه السن . ولما امتلئحت امها عن كيميائية النجاب الاولاد ، طرحت مؤالها للتسلية دون اقل فضول او رغبة في المعرفة . فالمسألة لم تكن تهمها قط .

كان شعرها ، في ما مضى ، ذهبي اللون ، فاصبح اليوم اسود ، وتفضت عينها قليلا ، واتخذت لونا مائلا الى الزرقة ، يبدو من وراء اهدابها كما يبدو لون البحر المتوسط من وراء غابة السنوبر . وتأتق جمالها سقى سارت تسمع كل يوم تقريبا كلمات الاعجاب يوجهها اليها الرجال الذين تمر بهم او يلتقيهم على رصيف الشارع . ففي مدينة طولون ، التقاها يوما اثنان من العمال ، فدار بينهما الحوار التالي :

انظر ا

ماذا ؟

.. ألا ترى ما اروع هذا الجمال ؟

وكثيرا ما كان العمال الجنوبيون يتوقفون عن العمل ، واحدا بعد الآخر ، لينظروا اليها ، حين كانت تمر بهم على التوالي . وكان تأثير جمالها كبيرا في الجنوب ، لانها بسيطة طبيعية ، والبائريسيون لا يحبون

إلا النساء المبالغات في التصنع ، والتبرّج ، ومظاهر الاغواء .  
ولكن سولانج لم تكن مفرورة ، ولا متغطرسة . فكانت لا تجلس في الكنيسة إلا في الصف الأخير ، ولا تقف ، في الحفلات العائلية ، إلا في المؤخرة . وكثيراً ما كانت تخرج في الصباح الباكر متدثرة بشوب قديم خالٍ من الظرف واللافتة . لم تشتتر في حياتها مجلة ازياء نسائية ؛ واذ رقت صدفة بين يديها إحدى هذه المجلات طالعتها متظاهرة بالاهتمام ، لا لأنها لا تحب ان تعجب الناس ، بل لأنها تعتبر هذه المسألة غير جديرة ببذل أقل الجهد . اما اذا شئت ان تبرّج فكانت تكتفي بتلصيق حاجبها بالصمغ المبولة ، وبتدليع شفيتها بلسانها . وكان هذا ، بنظرها ، منتهى الاتقان في ابراز محاسنها . لم تكن تذهب قط الى مزيتي الرأس ، ولا لتحلي بالمجوهرات ، ولا تطيب بالطور ، ولا تحمّر شفيتها ووجنتيها . إلا انها كانت تستعمل البودرة ، ولا تحسن استعمالها . ولم يكن تصرفها هذا تصنعاً ناجماً عن المعرفة ، او عن اللعناد المقصود ، لأنها كانت احباً تلزين بجليها ، وترسم بالخمرة قماً مستعاراً على شفيتها ، وتغطي نصف نهارها في تغليم أظفارها وتلوينها ، وفي تدليك يديها . وبعد الفرج من هذه العملية كانت تغسل الدمان عن أظفارها وتشوّه يديها بتقليب المساديق القديمة والاختاب المكدم في علية يديها للحصول على اشيء مهملة تحظر في بالها ، فتبادر الى البحث عنها . وكانت ترقد دائماً ثوباً ازرق ، ولا ترضى بغير هذا اللون ، فيثني الجميع على سلامة ذوقها . ولكنها احبت يوماً اللون المحمري واصرت عليه بعناد .

وكانت مدرسة ن... شديدة النظام ، فسدس طالبات الصف الاول فقط كن يتعاطين الغرام الكامل مع عشاقهن . ولم تكن هنالك عادات سرية فردية . فبلغت سولانج الحادية والعشرين من العمر دون ان تعلم ما هي هذه العادات . اما العلاقات بين الفتيات فكانت قليلة ، لا تتجاوز اثنتين او ثلاثاً ، وقد جاءت صاحباتها - بدون استثناء - من المدارس التي

تتولى ادارتها راهبات .

ولما بلغت سولانج الخامسة عشرة من العمر ، سمعت مرة لاحدى اترابها بان تماثقها وتقبلها بخرارة ، فسمعت هذه الفتاة تهمس في اذنها : « اوه ! هذه العملية بين الفتيات لا تخلو من المتعة ! » وكانت هذه الكلمات على جانب كبير من السذاجة . ولكن سولانج قهرت مغزاها ، فدفعت سديقتها عنها . إلا انها أصبحت بيت امرار جميع رفيقاتها ، فكانت تخفف احذامهن ببرودها وهديره اعصابها ، وتستمع الى اعترافهن دون ان تقول كلمة عن نفسها . والحق يقال انه لم يكن لديها ما تقوله .

اما الرجال فلم تكن تعيرهم اقل اهتمام . فسادا ضابطها منهم ثثار بمجاملاته الثافهة وغزله السخيف ، صرفته عنها بدون مراعاة ، وحيانا بكلمة جارحة . وكانت تحب الرقص ، ولكنها لم تكن تعتبر الرجال الذين يراقصونها إلا أدوات بين يديها لتساعدنها على اغتنام فثرة من المرح ، وسواء عندها أرقصت وحدها ام راقصها رجل ، فالمهم في نظرها ان ترقص تلبية لرغبة في نفسها . وكانت تدون في دفتر زهري الغلاف اسماء العيال التي تدعوها الى الحفلات الراقصة ، ولا تهتم باسماء الراقصين من الرجال ، حتى في رقصة الـ « كوكيتون »<sup>١</sup> ، بل كانت تكتفي دائما بتدوين اسماء الفتيات والشبان الذين تترقب اليهم في الحفلات دون اقل تفريق . ولما طرأ عليها مرشد اعترافها في باريس مؤالا لم يهيجها ( لان سمعة الارباب يجانوا دائما متحفطين مهذبين ) انقلعت عن الاعتراف بخطاياها ، فأصبحت عقيدتها الدينية كمقيدة القسم الاكبر من الكاثوليكيين تقتصر على حضور القداس يوم الاحد .

لم تكن مؤمنة ، ولم تجمل من العبادة ذراما لتصرفاتها ، ومع ذلك كانت تتضايق اذا فاتها حضور القداس يوم الاحد ، فتعوض عن تقاعسها

---

١ - رقصة تراقصها العاطب يشترك فيها الرجال والنساء ، وقد راجت وراجا شيرا في اراقل القرون العشرين ، وكانت من وسائل التسلية في حفلات الطبقات اليسيرة .



بزيارة إحدى الكنائس . وأكسبها امتناعها عن الاعتراف قوة جديدة ساعدتها على الاحتفاظ لنفسها بما في حياتها الداخلية ، وعلى التفكير بما تعمل . وبدلاً من أن تلقي بها في حجرة الاعتراف كأنها تطرحه في هرة سوداء خبيثة القرار ، جعلت تكبح جماحها وتطويه في نفسها . وبذلك أصبحت ألمع ذكاة وأرفع وجدانا . واغرب ما في الأمر أنها انبركت هذه الحقيقة .

'كان أبوها وأما يحبها حباً كله عطف وحنان ولا يخلو من الذكاء . أما هي فكانت تحبها على طريقتها الخاصة ، وقد عانيا بعض التعب ، في بادئ الأمر ، لبألفا هذه الطريقة . لم يلقيا منها أقل اندفاع اليها ، ولم يسمعا منها كلمة لطيفة ، ولم يرياها تقوم بعمل واحد يدل على العناية بها ، ناهيك بأنها كانت تبدي استياءها من العناية التي يحيطانها بها . وكانت تقول بلا مؤاربة : « لا تعجبني العناية ولا تفرحني » . وإذا مدت أماً إليها يدها لتداعب شعرها ، فضضت جفونها وقطبت حاجبيها . وغدا قولها : « لا » في مختلف المناسبات ، شيراً كسكوتها . فكانت تستيقظ ليلاً وهي تصيح : « لا لا لا لا لا » لتخلص من أحلامها . ولما صغانت طفلة ، كانت تصرخ : « لا لا » ، إذا رأت أحداً ينظر إليها بشيء من الامعان دون أدنى يفوه بكلمة . وإذا أقبلت على الشارع الذي تقم فيه جدتها ، بدأت بالسياح قبل الوصول إلى البيت ، لأن المعجوز كانت تداعبها بمداهبة غير لائقة .

ولم يكن مستطاعاً ادخالها إلى المدرسة الداخلية ، لأن هذه التجربة أثبتت أنها لنذبل وتفقد حيويتها في البعد عن أهلها . ومع ذلك ، كانت تلم الهدوء ، فلا قطالب ، ولا تشكور . وإذا جاءت أماً إلى المدرسة لتزورها ، جلست إلى جانبها بدون أن تفوه بكلمة . تلك كانت طريقتها في التعبير عن محبتها . وقد أطلقت عليها أبوها اسم : « الآنسة سكوت » ، أو « مسكوت » باختصار . وسألها أماً مرة : « لماذا كنت تلتزمين الصمت

عندما ازورك في المدرسة ، فلا تقولين لي كلمة لطيفة ؟ ، فاجابت : « لم اكن افكر بهذا الامر » .

وذات يوم عذب اخوها مرة بحضورها ، فقبض على عنق الهرة ، وظل يضغط عليه حتى تلاشت ونفقت . وكانت سولاتج تنظر اليه بعينين جاحظتين من شدة الاملءاء ، ولكنها لم تقم باقل محاولة لانقاذ الهرة . ولما قالت لها امها : « انك تحبين هرتنا المسكينة » فلماذا لم تصرخي ليأني احد منا عندما كان اخوك يقتلها ؟ ، فاجابت : « لم يخطر هذا الامر في بالي » . وهذه هي الحقيقة ، فالامر « لم يخطر في بالها » . ولكن متى اعتاد المرء برودتها ، فانه لا يعود يحيد فيها ما يدعو الى الشكوى . وكانت امها تقول : « انها باردة » ، ولكنها غاممة ، عذبة ، ولم اجد قط في تربيتها اقل صعوبة » .

لا يمكن اتهامها بانها لم تكن تحب اهلها ، لانها كانت تحبهم حباً عيماً صادقاً . ولكن الحجل كان يستولي عليها ويحملها في ما يشبه الوجوم الى جانب الذين تحبهم ، ولا تتطلق وتمرح إلا مع الذين لا ثبالي بهم . ولما كان ايوها يعاقبها ، كانت تقف على حدة مبرطمة ، متجهمة ، تتعرق شوقاً لتركض اليه ، وتعانقه ، ولكنها كانت اعجز من ان تسامح سجيئتها ومن ان تلي رغبئتها .

وخلت بالفعل « السفيرة الهادئة » حتى جاء برم صغما فيه اخوها ، لعلت بها نوبة عصبية حنيفة . وكانت يؤمئذ في الرابعة عشرة من العمر ، ولكنها لم تذرف دمة واحدة بالرغم من تلك النوبة . قال لها الطبيب :

- لو بكيت لأسفك البكاء ، ولوجدت فيه بعض الراحة .

فاجابت : لا استطيع البكاء !

- لا تستطيعين البكاء حين ينظر الناس اليك ، ام انك لا تستطيعين البكاء مطلقاً ؟

- لا استطيع البكاء مطلقاً .

ولما أجري لها فحص عام ، بعد ان بلغت اعصابها هذا الحد من التوتر بدون ان يقتبه اليها احد ، تبين ان دقائق قلبها غير منتظمة من حيث عددها وقوتها .

وبعد ثلاث سنوات ، اراد الطبيب تصوير قلبها على الاشعة ، فساد يطفئ الكهرياء في المختبر حتى اصابها نوبة عصبية جديدة . فتغيرت نظرة اهله اليها ، ولم يعودوا يقولون انها « صغيرة هادئة » ، بل اطلقوا عليها اسم : « العصبية المكبوتة » . وكانت هذه التسمية موفقة ، لان كل ما كان يصدر عنها ، كان يصل خفقت الحدة ، كصوت غنوق تحت طبقة من الفلين او القطن .

يصر الناس على الاعتماد ان الطباع تظل على حالها ، وتسير في الحياة كأنها كتلة متماسكة الاجزاء ، وثيقة العرى ، مع ان التجارب تعطيهم كل يوم غير برهان عن خطأ هذا الاعتقاد . اجل ، لا وجود لوحدة الطباع وديمومتها على حالها إلا في المخلوقات الاصطناعية . وكل ما هو طبيعي يقوم على متناقضات تمتلج في حميمه . وكان أبرز ما في الالة دندبه انها طبيعية .

ودمش ذروها ، يوماً ، اذ طلب يدها كهل مفتتح بظاهر الشباب ، فبدت راضية مسرورة ، وقد كلوا يتوقعون ان تصرفه بدون مراعاة . ولكنها ما لبثت ان صرفته بعد ان قابله مرتين . ثم رفضت بعده اثنين ، لانها لم تكن تريد الزواج إلا برجل يعجبها . كانت هذه حقيقة في نفسها اكتشفتها وحدها ، ومن سوء حظ الذين طلبوا يدها انهم لم يعجبوها . ولم يشأ ذروها اكرامها على الزواج . وحسناً فعلوا . انما كان عليهم ان يبرزوها في الحياة الاجتماعية ، ولكنهم لم يكونوا يحبون هذه الحياة ، ولم تكن هي تخرج من نطاقها الضيق إلا في ما ندر . وهكذا قام الأب ، والام ، والبنات ، ينتظرون ان يهبط العرس عليهم من السماء .

وعلى الرغم من ان الفتاة رفضت بصراحة وعنف ثلاثة رجال ارادوا الاقتران بها ، قامت نظرة ابوها اليها لم تتغير ، فبقيت في اعتبارها « خالية من الارادة » . وأخوها ايضاً لم يكن « واقعياً عملياً » في نظر ابويه ، على الرغم من الثروة الذخيرة التي كان يحنوها في مدغشقر... فقد كان ، قبل سفره ، لا يعرف كيف يسلح الصنوبرياء عندما يحترق فيها « رصاص الأمان » . وإذا ، فهو « غير واقعي وغير عملي » . ولم يكن ثمة شيء في العالم يغير هذه النظرة التي ينظرها ابواه اليه .

وكانت الأنسة دندور تبرز من احياناً عن قوة ارادتها ، ثم تبدو في احيان أخرى مستسلمة لمشيئة القدر . ومن المؤسف ان الناس كانوا يتناسون « احيان القوة » . ولكثرة ما سمعت سولانج انها ضعيفة الارادة ، سارت تعتقد انها بالفعل ضعيفة الارادة . وإذا كانت لا تعبّر عن قوة ارادتها إلا نادراً ، فلأنها لم تكن تستهي إلا اشياء قليلة وفي فترات متباعدة .

وفي هذا الجو ، كانت قد بلغت الحادية والعشرين من العمر لما تسلمت الى هذه الرواية .

وكانت « سيدة بيت » مكتملة الصفات ، داغمة الاهتمام بالنظافة وتربية الاثاث . اذا جاء المسجد لاصلاح الفرش اكرهته على العمل بلشاط واثقان ؟ اذا جاء عامل للكهرباء لاصلاح الاسلاك جعلته يبذل كل ما لديه من الخبرة ليكون عمله مثقناً ، فاهيك بسلامة ذوقها في انتقاء الطعام الشهي الخفيف . وبقدر ما كانت مقتصدة في النفقات المنزلية ، كانت مبذرة في نفقاتها الخاصة . لم تكن تحصل من ابوها إلا على القليل من النفود ، فتتفقا بلا حساب على حماقات لا تكسبها شيئاً من السرور . وكثيراً ما كان يتفق لها ان تجمد نفسها في الطرف الآخر من باريس ، وليس في جيبها درهم لتعود به الى البيت . وكثيراً ما كانت تتصرف كالاطفال : تتشاجر مع اخيها ، تتسلق الاشجار ، تنزل على السلم قافزة فوق

الدرجات . لم تكن تحب الكلاب لأنها كثيرة الحركات تبالغ في التودد ، ولا المصافير لأنها تحدث بتفريدها ضجيجاً . إلا أنها كانت تحب القطط - وفي طبعها ما يشبه طباع القطط ، وتحب خصوصاً الاسماك الحية في الحوض المزلي ، لأنها سكينة ، باردة ، مثلها ، تقوم في اثناء دوراتها بحركات عصبية كأنها تعاني نوبة . وكانت هذه الاسماك تتجدد من حين الى آخر ، وكل ثمانية ايام تقريباً ، لان سولانج كانت تنسى ان تطعمها ، فتعوم رافعة بطونها الخاوية الى السماء .

ولم تكن الانسة دندير تقرأ إلا قليلاً . فكتبتنا تتألف من حوالي اربعين كتاباً ، وليس بينها سوى ثلاث روايات احتوتها صدفة . اما الشعر فلا مجال للتحدث عنه ، لأن سولانج كانت تفتنه بقدر ما تقلت الموسيقى . وعلى الرغم من صغر مكتبتها لم تقرأ كل ما فيها من الكتب ، ولكنها فتحت صفحات بعضها تمهيداً لتصفحها ، وغلفتها تغليفاً انيقاً بورق شفاف . وكانت تحضر حفلة راقصة واحدة في الشهر . إلا أنها لم تكن ترتدي ثيابها الفاخرة إلا يجهد جهيد كأنها تقوم بسفرة مزعجة . فتتودد حتى اللحظة الاخيرة وهي تفكر بالاعتذار عن ثلبية الدهوة الموجهة اليها لحضور الحفلة . واذا تغلبت على نفسها وذهبت الى الحفلة فانها ترح وتلهو بسرور ، فلا تفوتها رقصة ، ولا تنادر المكان إلا بعد ان يغادره جميع المدعوين ، بما كان يضايق امها الى أقصى حد . وفي الايام الخالية من الحفلات ، كانت تنام في الساعة التاسعة والنصف . وكان الناس يتهوونها بالمعرفة ، لأنها تسير دائماً عالية الرأس . والواقع ان شعرها الملفوف في مؤخرة رأسها كان ثقيلاً فيضطرها الى رفع ذقنها قليلاً والقاء رأسها الى وراء . ما كاد اخوها يبلغ الخامسة عشرة من العمر حتى تخلى عن كل ما يذكره بايام الطفولة والفتوة واللعب والطيش ، وراح يفكر بمستقبله . اما هي فلم تمر هذا المستقبل اقل اهتمام ، ولم تفكر به قط ، بل كانت تنتظره وهي متجهة الى الماضي . وكانت تحتفظ بدفاترها المدرسية ربما نالت

من الجوائز أيام الدراسة ، وبالكتب التي كانت تقرأها وهي طفلة ، وجميع ما كان لديها من النسي والألعاب ، فماتت بها غرفتها كأنها تريد الاحتفاظ بطفولتها كاملة . ولكن أباه رأى غرفتها قضيت بهذه الأشياء القديمة ، فنقل منها بعض الازائب الصوفية <sup>١</sup> ، وبعض ثنائيل يسوع المسيح والقديسين الى العلية . ولا ريب في ان هذه الناحية من حياة سولانج كانت تدعو الى الارتياح والسرور ، لأن المرأة دون طابع الطفولة وما فيه من رونق وصفاء ، تصبح مسخاً لا يطاق . وما يثير العجب ان سولانج لم تكن تجيد التحدث الى الاطفال كما تجيده الفتيات في مثل سنها ، ولا تجد في مباشرة الاولاد سوى الضجر والذئك ، على الرغم من بقائها روحاً وفكراً في جر الطفولة . وفي عزلتها العاطفية ، كانت تجد الهدوء ، والراحة ، ورفقاً من السعادة . وكانت تعلم ان هذه الحال لن تدوم ، لأنها لم تكن تطبق في حياتها مبادئ معينة ، فكانت برودتها علوية خالية من التفكير . إلا انها لم تكن تشتهي تبدل هذه الحال ، ولا تتصور كيف يكون التبدل المنتظر . وكانت تقول : « لا يجوز لي ان انظم حياتي لان التنظيم نذير شؤم » . وشعورها الوحيد لدى تفكيرها بالمستقبل كان الخوف ، الخوف من ان لا تكون سعيدة كما هي سعيدة الآن . وكانت « تخشى ان تمتس باطمية » على حد تعبيرها الباقي فيها من رواسب الطفولة .

هكذا كانت الآنسة دنديو تعيش عيشة هادئة ، باردة ، حاولنا الاقتداء بها في حديثنا عنها لننظر في سببها ومنافعها .  
وقد فائنا ان نذكر ان الآنسة دنديو كانت تعرف كيف تساب

---

١ - لما اخذ السيد دنديو الازيب الفضل لدى سولانج قال لها : « انك تحبين هذا الازيب ، ولكنك لا تحبطينه مطلقاً » فاجابت : « اني اخطيه في اعماق نفسي » . - المؤلف .

الدولة وهي في السادسة عشرة من العمر ، فتكون قد سبقت الرجل بعشرين عاماً ، لان الرجل لا ينضج ، ولا يدرك شيئاً من مبادئ سياسة الدولة إلا عندما يبلغ السادسة والثلاثين . ولما كنت مقتصرة الى الذكاء الكافي لاعتناق جميع العقائد السياسية معاً ، فقد اكتفت منها بواحدة ، فكانت يمينية بلا هوادة . حتى انها انضمت الى منظمة في أقصى اليمين ، وفكرت يوماً بالعمل في مشغلها ، ولكنها لم تقبل ذلك سوى مرتين . فليس الاجتهاد من شيم اليمينيين المتطرفين امثالها . ولا نذكر اسم الحزب الذي انضمت الالسة دندبر اليه ، لانها استسلمت لرجل من اعضاءه .



من  
الدريه هاليو  
سان ليونار  
الى  
بهار كوستال  
باريس

٧ حزيران ١٩٢٧

عزيزي كوستال ا

الارضاع الراحنة لم تكبدل . الطقس حاراً ، ولا اجد في نفسي الشجاعة  
الكافية لأحمل العذاب ، بل العذاب الشديد . اني شقية ، ولا ريب .  
ولكني افضل ان اشقى بسببك على ان ابذل جهدي لاغضب عليك .  
ليس شقائي من النوع الذي يمزق ، فهو خامد ، راكد ، لا يتغير ،  
انه حالة نفسية كاتي بعانيها المبتج بعد عملية جراحية ... انه نقامة  
لا يبالي صاحبها بشيء ، وكأنه أليمازر جديد خسارج من هوة  
العدم ... وانه اخيراً نوع من عدم الاكترات والطيبة اللامتناهية لمحو  
الجميع ، ولسان حال من يعانيه يقول : « ليفعل الناس ما يطيب لهم ،  
فكل شيء قد انتهى بالنسبة الي » . ولكن لا تحسب هذه الطيبة جودة  
او فضيلة ، لاني لم أعد احب المراحة ، ولا اريد عمل الخير . فبفضلك ،  
انت ، غدت شقية بك .

ما أغرب هذه الحال ! ولكن هذا هو الواقع ، ولا مناص من  
الاعتراف به . فقد يرضى المرء بالاخفاق احياناً لانه يعطيه شعوراً بالراحة



لا يختلف كثيراً عن شعور من نجح وقال مأربه . لقد خطوت الخطوة  
العسبة ، وقفزت من فوق العقبة ، وكنت شجاعة بأسف .

لم النجح ، لانك رفضت اعطائي الشيء الوحيد الذي كنت اشتبه في  
العالم . فلا بأس ، فهناك شيء احرزته على الرغم من الاخفاق . والآن ،  
كل شيء يتقلص ويضمحل ... وبعد ، فما الفرق بين جسد تمتع ، وجسد  
لم يشبع ؟

ما اروع التخلي ! وما اعظم هدوء المرأة التي تخلت ! ليتك تعلم  
سهولة بلوغ هذه الحال على امرأة ظلت تتخلي طيلة حياتها . انها  
تألف هذا الواقع الذي يستقر في اعماقها . كل شيء لك منطقياً  
دائماً على التخلي ، مبدئياً ؛ وكانت غلطتي الوحيدة اني حسبت هذا  
الحب المستحيل حباً يمكناً ، وحسبت العطف كافياً لخلق الشهوة في نفس  
الرجل ، واعتقدت انه يمكن بعث الحب في الانسان كما يمكن  
الحصول على الماء بفتح الخنيفة . لقد كانت تضحيتي دائماً مبدولة مسبقاً .  
والأم الذي يفرضه المرء على نفسه يكاد يكون متعة بالنسبة الى الأم  
الذي يفرضه عليه الآخرون . ثم اني استوليت على اشياء كثيرة منك  
ساعدتني على الاستمرار في التخلي ، وان لم تكن قد تركت لي ذكريات  
قللاً نفسي . ولم تكني مفتخرة الى هذه الذكريات !

اما الشهران من الحب الكامل ، الممتلئ ، الشهران اللذان طلبتها  
اليك ، واللذان اشتبهتهما بجمارة ، فلو عرضتهما عليّ اليوم لسأوري الخوف .  
لقد فشلت بكل حيلة هيامي بك ان اخبرك «بعد» ، على ان اخبرك  
« قبل » . وما انا اليوم خائفة . كنت احتاج الى حماستك واندفاعك ؛  
اما الآن فلن ارضى بان يتحقق ما كنت اريد اذا اقدمت عليه وكأنك  
مستخر له .

صارحتني مرة بقولك : « ان اعظم هبة يقدمها حبك لي هي ان لا

١ - تعني : بعد الوصال رقبته .

يعطيني ما لا أحب ولا أشتي . ولكني افكر احياناً بان ما يجذبني اليك هو شهوة جامحة مبعثها الهوس ، لا الحب العاطفي . كنت اعتبرك اداة لمتعتي ولسماعتي . على ان الحب الحقيقي يقضي بان اسعى الى ما يسعدك انت ، لا الى ما يسعدني انا . فهو يقضي ، اذاً ، بان اتخلى مختارة وبطبيعة خاطر عما كنت اريد . لا شك في اني اسأت التصرف في حيي ، لاني لم افعن راضية بالتضحية . ومن المحتمل ان يكون حبك لي افضل من حيي لك ، لاني ما احببتك في اعماقي حباً مزهواً . ولعل ما اقدمه لك الآن افضل ما اعطيك من نفسي . ولكنك لا تباليني ، ولا تحسب لي حساباً ...

وللمرة الاولى اقول لك : لا فائدة من الاجابة عن هذه الرسالة . فاذا احببت فستجرحني بعقريتك في صياغة العبارات الساذجة<sup>١</sup> . اما في سكوتك فاستطيع ان اخلقك لنفسي من جديد ، وان احبك كما احببتك ... كما احببت ان تكون . لك :

أ . هـ

اوه ان اطرح عليك سؤالاً صعباً ، دقيقاً ، حساساً ، هو : ألم يخطر في بالك ، مرة واحدة ، انك تستطيع تخليد حيي بإدخال بعض خطوطه ومزاياه في احد مؤلفاتك ؟ لا شيء من الفرور في هذه الرغبة . كل ما فيها الي أشعر بان عذابي لم يذهب مدى اذا كانت هذه الفكرة قد مرت بذهنك .

( بقيت هذه الرسالة بلا جواب )

---

١ - اسبة الى المركيز دي ساد ( ١٧٤٠ - ١٨١٤ ) مؤلف روايات ابطالها شالور العذار يحدوت لانهم في تعذيب الابرار ، ومن اقواله : « امنت الطبيعة لاني اعرفها . ولا اطلعت على اسرارها الطبيعية بدأت اجد متعة خاصة في اقتباس فسادها » . وكثيراً ما تستعمل هذه الكلمة للدلالة على الاضطراب الجنسي او على الشذوذة .

عندما كانت الآنسة دنديتو تأتي مساءً الى مخدع كوستال ، في شارع « هنري مرتان » ، كانت تبادر فوراً الى اطفاء الكهرياء ، حتى اصبحت هذه البادرة عادة مألوفة في حياتها الجديدة . وكان كوستال يعرفها من ليائها تدريجياً ، وعلى مهل ، وهي واقفة امامه كأنها طفلة صاغرة ، منحنية الجبين قليلاً ، تنظر اليه ، دون اقل خجل مصطنع ، بعينين زرقاوين مائلتين الى السواد ، في ظلام الغرفة ، كأنها شربت من حلقة الليل . لذلك غدت تلك اليلة صافية مشرقة فوق العالم . وكان يراها بين يديه نصف عارية فيكشف فيها فتاة جديدة ، ويقول لها :

— يا ابنتي الصغيرة ، أهذه انت ؟

وأحياناً كانت تجيب : « نعم » ، كان سؤاله من الاسئلة التي تتطلب جواباً معيناً . وكانت تقول هذه « لا نعم » بصوتها الليلي ، صوت المداعبة والوصال ، ذلك الصوت المتغير تفتيراً عجبياً مذهلاً في ليل الحب والبطء ، فاذا به عميق ، رقيق ، كصوت المحتضرين . انه صوتها وهي طفلة ، وصوتها وهي امرأة خلقت من جديد ، وصوتها وهي امرأة توت .

والآن ، ها هو يدور حولها مرتعشاً كأنه يريد ان يطوتها ، وهي جامدة في مكانها ، لا تقوه بكلمة ، انما تدير رأسها قليلاً لترافقه بميلها المفتوحين على مدى التساعين ، بدون ان يطرف لها جفن ، كالأفسي الهندية المنتصبه امام ساحرها ، تلاحق وجهه بنظرها كيفما تحرك .

وكان يتحرك في جو من الرحابة والارتياح كأن سلطانه المطلق على الفتاة جعل الهواء حوله طويلاً قابلاً للامتداد . وراح يقبلها هنا ، ويقبلها هناك ، عملاً بفكرة تخطر في باله ، او دون فكرة . ثم ينظر الى هنا ، وينظر الى هناك ، وهي كالسحابة تكشف عن المكان الذي يشير اليه بعينه .

وما هي عارية تماماً ، وطاهرة كأنها ولدت من ابتسامة . وما هو ما يزال يطوقها بدورانه حولها . ساقيها دافئتان ، لها رائحة الحصى الخارجة من الفرن ، رسم زفارها على خصرها خطاً احمر ، حتى ليخيل الى الناظر انها جلدت .

انزع من رأسها دوسين دقيقين ، وهما الوحيدان اللذان استطاع ان يلع عليها لأنه ابله . فانتزعت هي الدبابيس الاخرى ، وقدمتها له واحداً بعد الآخر . ولم يتغير عددها في مختلف الزيارات التي قامت بها الى خدع . كوستال .

والحذر شعرها على كتفيها ، وعلى تهاديها ، بتوجيه الشبهة بكثبان الرمل على الشاطئ ، فاذا بها تعود الى طفولتها اكثر منها في اي وقت آخر . وفي بعض الاحيان كانت تصل الى الخدع وشعرها ما يزال ندياً كالغابة بعد المطر ، لانها كانت في المسيح منذ قليل . فيأخذ كوستال بين يديه ، ويلثم اطرافه ، فيعص انها في هذه الحصل من الشعر ، ولكنها ليست كلها فيها كأن شعرها هذا شيء غريب عنها ، كنهر لا يعرف ، في نهاية مجراه ، يلبوعه الجبلي البعيد .

وكان يصعد من اطراف شعرها حتى يصل اليها ، والى رائحة الطفولة في رأسها الدافئ . ثم يعود الى وجهها ، فيجد فيه صديقاً قديماً ، ويتنشق رائحة البودرة التي كان قد نسبها ، فيلف الشعر حول عنقها ، ويرسله على فمها ، ثم يبحث بشفتيه ، من خلال الحصل ، عن شفتيها . ويعمد الى اللها ، فيجعل من شعرها شاربين ، ثم لحية ، فتبدو كأنها تليئة في «سان سير» ،

تثل دور احشوريش<sup>١</sup> ، ما هي عارية تماماً بالقرب من النافذة ، وتكاد تكون على الشرفة . نبيها ، فاحفلت ، ولا تحركت ، كأنها دخلت حلقة مسحورة اذ اجتازت عتبة غدعه .

ولما تقدمت على السرير ، لم تبد<sup>٢</sup> مختلفة عما كانت عليه في المرة الاولى . فيها هي كلها : بريئة ، هادئة ، شبية في بساطتها بعزة صغيرة في قطيع . وكانت في اغلب الاحيان تنفض عيها . اما اذا فتحتها ، واطل اشراقها بما فيه من الانعكاسات الحالكة السواد ، فانها تبعث ليلاً ونهاراً متعانقين ومتداخلين . وفي هذه الاثناء كانت تنظر اليه بدهشة ووجهها يباد يلتصق بوجهه ، فتبدو عيناها وكأن فيها حوك<sup>٣</sup> ، ثم تقبله قبلة قصيرة سريعة ، كأنها تختلس منه منعها اختلاسا . وكانت قبلتها تتوالى ثلاثا ، او اربعا ، او خمسا ، كأنها مجموعات من النجوم تستقل كل منها عن اخواتها ... ثم تأتي القبة المفاجئة ، العنيفة ، ككرة القدم تصيب المرمى ، او كالصاعقة عندما تنقض<sup>٤</sup> .

لا تتكلم الا بكلمات قصيرة ، متقطعة ، وإلا اذا كان هو البادىء في غدايتها . وفي سكون تام لا يسمع فيه سوى دقائق الساعة ، او الزلاق منشفة تقع في المسل ، سألها :

هم تفكرين ؟

بالي على ما يرام !

---

١ - في القرن السابع عشر انشده معهد «سان سير» كل مقربة من باريس. لتلشد الفتيات الأرستقراطيات باطارة السيدة دي رينون ورعاية السيدة دي مانتون عينية الملك لويس الرابع عشر ثم زوجته السيدة . وكانت مدام دي رينون تدعي الشعر ، فراحت تؤول المسرحيات لتليذاتها . ولكن السيدة مانتون لمست ما في هذه المسرحيات من ثقافة وسخف ، فطلبت الى الشاعر الكبير جان راسين ان يضع لتليذات المسد قنيليتين . فوضع «استير» و«هتليا» ، رشت الفتيات امداد الرجال فيها ، ومنها دور احشوريش في «استير» . وهذا ما لزم به المؤلف في هذا التشبيه .

— ما أكثر ما تحيين السكوت !

— عندما أكون مفتبطة ، لا أتكلم .

يا لها من طفلة !

« عندما أكون مفتبطة ، ... ماذا ؟ ان اندريه كتبت اليه هذه

العبارة فلم يعرفها انتباها ، ولم يسجلها بين حمناتها ، لانه لا يحبها .

وعاد الى سولانج يداعبها ، فقال :

— اريد ان انير الكهرياء .

فاطلقت صيححتها المألوفة : « لا لا لا » بقوة لم يمهدها فيها من قبل .

فقال :

— ولم « لا » ؟ أنكون تحت رحة الحيام ؟

لم تعجبه هذه الحال ، وخيل اليه ان من يداعب امرأة في الظلام كن

يستنقن في الظلام ، فالوداع ايها الذوق !

وبعد قليل سألها من جديد :

— ما رأيك في اثاره الكهرياء ؟

فاجابت :

— لا شيء ...

يا لها من طفلة !

وكانت تتكلم بصوتها اليلي ، وفيه جميع فبرات الطفولة ، كأنه خارج

من قبر عميق ، فاهيك بذلك الصوت الآخر الذي ترتديه كلماتها عندما

تكون في وضع « افقي » كالدمى التي تخفض جفونها آليا اذ تلقى على

ظهرها .

وفي احدى تلك الامسيات ، نظم لها كوستال الايات التالية :

يا انك تحيينني ، وبما اني احبك ،

وبما اننا مكنا على ما يرام ،

وبما اني انتري حين اكون بقربك ،

وبما ان كليتا مكتفٍ بهذا الغرام ،  
فاتركي على قلبي ، يا ابنتي الحبيبة ،  
- اذا كنت لا تحشين آثار الرؤوس الماضية -  
هذا الشعر الخالي من الرائحة ،  
وهاتين المينين الطويلتين ،  
كأنهما عينا بهيمة ،  
وهما ارحب الساعا ، واحلك سواداً ،  
لأنها شربتنا من الليل !

واستمرت الحال هكذا طويلاً ، ولكننا نكتفي بهذه الابيات ونصرف  
النظر عن سواها ، لأنها لا تساوي حبات ارنب .

وكان كوستال يعتمد الامعان في الملاطفة بتعابير ، فيلتلي الالفاظ  
الرقيقة ليتوَّج محبته بهالة من الرونق والرواء ، ويقول لسولانج احياناً :  
« يا حبيبتى الصغيرة » ، في حالات لا تستوجب التظاهر بهذا الهيام ، ولا  
ينطلق فيها للكلام العاطفي عفواً صافياً . وفي احيان اخرى كان يضمها  
الى صدره بقوة لتوق رغبته الحقيقية واندفاعه الطبيعي ، لعله بان النساء  
يعتقدن ان الرجل بدأ يعرض عنهن اذا لم يجبهن اكثر فاكثراً . وبما  
ان الرجل مخلوق فقير بالحب ، فقد حرص كوستال على التظاهر باكثر  
بما فيه من الهيام كي لا تصاب عشيقاته بخيبة .

وكان يتوق حيناً بحرارة وقوة الى ان يكون هو الرجل الذي  
يكشف لسولانج عن حقيقة نفسها ، وحيناً آخر كان هذا التوق يخمد  
كلياً في نفسه ، فيفضل ان يتركها على حالها .

ولم يكن قد امتلكها ، بعد ، إلا جزئياً ، لأنه اراد ان يترك أمامه  
شيئاً مجهولاً ليتخيل ما سيكون ، كراكب السفينة ينظر دائماً الى اق  
البحر حيث يأمل ان تطل عليه الارض الجديدة . وكان يتوقف بمداعبته  
في النقطة الحساسة التي يعلم انه اذا تجاوزها اوجع الفتاة ، ككلب

يلعب رفيقه ، فيعصمه برفق ، ويحرص على ان لا يتهادى في الممارسة .  
ولكن قبلاتها كانت ضارية لا تعرف هواة حتى جرح طرف لسانه ،  
فاضطرب الى الامتناع عن التدخين .

وكان يراها عارية كلياً ، فيخشى ان تبرد ، ويود لو يضعي بحجاب  
من منعه لكي تدثر ببعض ثيابها . ولكنه لا يكاد يعرب لها عن  
خوفه ، حتى تجيبه بشيء من العتب والالوم :  
... انك تعاملني كأني طفلة .

فيقول لها :

— المرأة طفلة دائماً في نظر من يحبها .

وفي اغلب الاحيان كان ينهبها الى الساعة لنعلم انه لا يجوز لها  
التأخر خارج البيت ، فتتظاهر بانها لم تسمعه ، فيعيان جنباً الى جنب  
حتى يبلغ الليل ساعة نزول القطط الى الشارع ، وانصرافها الى لمس  
قوائمها وغسل وجوها على قارعة الطريق الخالية من المارة .

وكانت الساعة الكبيرة تدق وتجاوب دقاتها تجاوب صياح الديكة ،  
فيلتبادر الى ذهنه انه ان لم يقل لها : « يا حبيبتي ، اذفت ساعة انصرافك » ،  
تهلئ الى جانبه طيلة الليل ، كان اياماً وامها قد زالا من الوجود . ومنذ  
عرفها وثقلت علاقته بها ، لم تحاول ان تأخذ المبادرة مرة واحدة .  
فكان يتدح فيها هذه الزمة ، ويقول لها : « اني امقت النساء حين  
تكون لهن ارادة شخصية » وارى انك خلقت منذ الازل لشكوي لي .  
ولكنه لو أخذ بعين الاعتبار ما ذهب اليه « شوبنهاور »<sup>١</sup> من ان  
هناك علاقة وثيقة بين الارادة والميل الجنسي ، لاعتقد انه ليس من  
الحيف ان تريد سولانج اكثر مما كنت تريد ...

وما هي الآن تذهب تلقائياً الى الفصل كهرة صغيرة ووضها اصعابها

---

١ - فيلسوف الماني ( ١٧٨٨ - ١٨٦٠ ) اشتهر بالتشاؤم ، وامس قلقته على التناقض  
الذي بين الارادة والتصور .



ولقنوها عادات حسنة ، بينما انصرف هو الى تنظيف كتف سترته  
بالفرشاة بما علق فيها من البودرة التي كانت على وجه مولانج ، فانتقلت  
لترسم على كتفه خطاً مبيضاً شبيهاً بخط المجرّة في الليالي الخالكة السواد .  
وبعد قليل ، كانت الى جانبه في الشارع ، تضرب الارض بقدميها  
وتسير بخطى قصيرة كخطوات البغال .

ما الذي جرى ؟ هل جرى شيء يستحق الذكر ؟ ما هي كما كانت  
تماماً لما جاءت منذ حين . ولكنها أصبحت امرأة ، امرأة يمكن معنى  
الكلمة وبكل ما في الانوثة من قوة ، وهي التي كانت طفلة وثمينة  
مدرسة منذ قليل . لجل ، كانت تبدو نقية ملء العين ، فلم تعد نقية ...  
وكانت تبدو ايضاً كأنها فتاة مهيبة حسنة التربية .

وكان يعلم انها لا تصارع اباه وامها بسبب غيابها ليلاً عن البيت ،  
ليسرء التفكير بانها تلجأ الى الكذب ، ويقول في نفسه : « هكذا يظل  
الرجال مفتوساً للظنون والتكهنات » . ويرى ان كذبا يساعدها على  
الانسجام والحياة الاجتماعية .

وكانا يسيران احساناً وكل منهما يمسك بيد الآخر ، كولين ارسلها  
ذروهما ليلعبا في الحديقة بكل تهذيب ، او كائنين من رجال الدرك  
الثولسين .

وفي ذلك الحين ، كان قد صدر احد كتبه ، فانهالت عليه الرسائل  
ومقالات التعريظ ، فانخذ كلمة غوبينو<sup>١</sup> شعاراً له بعد ان حوّلها ، وراح  
يقول : « الحب أولاً ، ثم العمل ، ثم لا شيء » . ولكن العمل هو الانتاج  
الأدبي بحد ذاته ، وليس هو علاقة هذا الانتاج بمجاهير القراء .

---

١ - كاتب رديبولسكي لورسكي ( ١٨١٦ - ١٨٨٢ ) وضع لهذه شعاراً هو : « العمل  
أولاً ، ثم الحب ، ثم لا شيء » . ثم مؤلفاته : « علوة في درس التفارث بين  
غزلف السلالات والاعراق البشرية » . وقد كانت هذه الدراسة من أهم الاستندات  
التي اوتكرزت عليها حقبة النازيين النصرية .

كان كوستال قليل الاكثارات بهذه العلاقة ، يقرأ بسرعة الرسائل التي  
يتلقاها ، والمفالات التي تكتب فيه دون ان يعلق عليها اقل اهمية .  
فالتقريب في نظره كالوسيقى التي تصعب عرض الافلام السينمائية الصامتة .  
كان يفكر بان لا بد من ان تكون هناك قطع موسيقية جيدة وسائغة ،  
ولكنه لم يكن يسمعها .



قال لها :

ألا تمتددين انه يجب ان تري الاشياء كما هي ؟ زعم ميشليه<sup>١</sup> ان الحبيب الذي يحافظ على رباطة جأشه ليميز الصدق من الكذب في الاقوال الممسولة التي يقولها له من يحبه ، يشعر بالصدارة والذل .

هذه حماقة لا يستغرب صدورها عن ابناء القرن التاسع عشر الارضين . ليس من الذل ان يحافظ المرء على رباطة جأشه . ومن المجد العظيم ان يرى الانسان الاشياء كما هي بكل حقيقتها . والحقيقة ، في ما يتعلق بنا ، هي اني غير منرم بك . لك في نفسي عطف يمازجه حنان وتقدير واحترام من جهة ، ورغبة شهوانية من جهة اخرى . ولكن هذا كله ليس حباً غرامياً ، والحمد لله . اما هو فهو اسميه «طريقي في الحياة» الطريقة التي اكون فيها كما « انا » بكل حقيقتي ، وهي شيء في منتهى الجودة . وهذا وحده يكفي لاقناعك بان ما لك في نفسي ليس غرامياً . فالرجل يحب المرأة حب صداقة « لأن ... » ، ولكنه يحبها حباً غرامياً « على الرغم من ان ... » ، والفرق بين الحبين واضح . وقد جعلتني

١ - ادبب ومؤرخ فرنسي ( ١٧٩٨ - ١٨٧٤ ) اشتهر بالتلوث في ادائه الشعرية . من مؤلفاته : « تاريخ فرنسا » ، « تاريخ الثورة الفرنسية » . ملحقته للنفس في كتاباته ، حتى انه شط ان يانا عن التقييد للحقائق التاريخية . ومن مؤلفاته الادبية « الجبل » ، « الطبع » . وهي غنية بالاسماء ، الألوان ، والنظم ، وقد أصبحت مهلاً لبعض الشعراء الرومنطيين .

٢ - يعني ان حب الصداقة ينجم عن مميزات مشجعة . بينما الحب الغرامى يستمر من الرغم من العيوب والمزيجيات . لانه أقوى . وارسخ جديراً في النفس .

التجارب اعتقد ان طريقي تعجب النساء ، لانهم - على ما رأيت - اشد حاجة الى السطف والحنان منهم الى الغرام . وانت ايضا لست مفرمة بي . أفليست هذه هي الحقيقة ؟

فحركت رأسها يمينا ويساراً وهي ترفع كتفها قليلاً ، وعلى وجهها ابتسامة تمير عن اللهو والمبث ، فكانت حركتها مفعمة بالرونق والفتنة ، كحركات القسم الاكبر من فتيات المجتمع الميسور ، ثم قالت :  
- لا ، لا اعتقد ان هذه هي الحقيقة بكل دقة ... اعني اني لا اسبك حباً عاطفياً .

قال بلهجة الواثق بنفسه :

- هناك دليل كبير على انك غير مفرمة بي ، وهو انك لا تسأين مطلقاً عن حياتي الخاصة ، ولا يحمر وجهك عندما يحدثك ذورك هني ، ولم تبغثني قط عن اسمي في لوائح الشخصيات الباريسية ، ولم تأتي الى شارع « هنري مرقان » في الايام الاولى من حبنا لتعرفي اين يقع منزلي ، ولم يخطر في بالك مرة ان تكتبي اسمي على ورقة عفوية ودون تفكير . وكان يسرد هذه الأدلة بصيغة السؤال ، فتحرك رأسها سلباً للموافقة على ما يقول ، وعلى وجهها تلك الابتسامة اللاهية العابثة . لقد نامت مرة وأحد مؤلفات كوستال في يدها ، تحت اللعاف . وكان ذلك بعد ان قبلها للمرة الاولى . ولكن هذه المحبة كانت في البداية ، لأن طابعية سولانج فوجئت فأنحرفت قليلاً عن مجراها العادي ، اما الآن فليسر من المحتمل ان تعود الى مثل هذا التصرف الممياني .

واستأنف كوستال حديثه الخشو بالاسئلة ، قال :

- أصبح ان الفضول لم يدفعك الى البحث عن موقع بيتي قبل ان ادلك عليه ، وقبل ان آتي بك اليه ؟

ولما حركت رأسها سلباً ، استنتج قائلاً :

- اذا ، فالامر واضح : ما كنت قط مفرمة بي . وحسناً فعلت ، فهكذا

أريدك : فتاة محبة ، لا مغرمة . لا أريد أن يكون حبك لي هياماً  
مهوساً ، لأن مثل هذا الهيام يرثك آلاماً ، فتقع في حال مؤسفة هي  
عكس ما أودّ ، لأنني لا أريد لك إلا الخير . يحب علينا ، يا عزيزتي ، أن  
نعالج هذه الحال . واستطيع القول أنني خير حادق في هذا المجال ، ولكن  
يجب أن تجدي في طريقتي بعض المتعة على الأقل . فالعذاب شيء سخي  
دائماً ، ولا يرضى به سوى الأبله . أن الزعماء الذين أوموا جماهير الشعب  
بأن العذاب عملٌ بطولي عظيم ليقدموا سياستهم ، والكتاب الذين اقنعوا  
بهذا الوهم وعظموه لأنهم أغبياء ، إنما ارتكبوا جريمة فظيمة لا تقففر .  
في نهاية رسالتك الأولى ، الحبيبة قليلاً ، اعربت لي عن « مودّتك  
الرقيفة » . ولا أدري هل وردت هذه العبارة في رسالتك دون تفكير  
كالعبارات التقليدية التي لا تعني ، في الرسائل ، سوى الجاملة ، أم تمعنت  
فيها وادركت مدلولها ؟ فإذا كنت كتبتها للتعبير عن حقيقة شعورك  
لحوي ، فهذا شيء خطير ، لأنها تعبر كذلك عن شعوري لحوك وعن  
الشعور الذي انتظره منك لحوي .

أجابت :

« كتبتُ هذه العبارة لأنني رأيت أنها تعبر عن شعوري .  
... إذا ، فكل شيء على ما يرام يا عزيزتي . واعتقد أننا سنلتاحم تلاماً  
باماً .

وعلى الرغم من هذا التناول ، سألها بعد قليل :  
« ألا تودين أن نذهبي قليلاً إلى بيتي هذا المساء ؟ »

فأجابت :

« ليس هذا المساء ... أفضل ، إذا سمحت ، أن نباعد قليلاً بين  
مواعيدنا ... »

وبعد سكوت قصير استطردت قائلة :

« عندما أجيء إلى بيتك ، أحس أنك أبعد عني بعد لقائنا منك

قبله ...

م يرد على هذه الوخزة برغم خيئته . وكأنا يحتازان ساحة  
« الكونكورده » ، فراح يبدي ملاحظات على لون السماء في تلك الفترة  
من العسق . إلا ان الغيظ كان يستلج في اعماقه ويزداد احتداماً ، ليس  
لأن غرور الذكر اصيب فيه بصلمة قاسية ، بل لانه رأى ان سولانج  
أغلقت باب المستقبل ، فكيف يستطيع مداعبتها بعد اليوم ؟

وساد بينهما الصمت هنيهة ، ثم سألها :

— أتريدين ان اعود بك الى منزلك ، ام تفضلين ان نذهب الى مكان

ما لتضية بعض الوقت ؟

وكان هذا السؤال قاسياً رهيباً ... فقد خالف عادته واقترح عليها ،  
للمرة الاولى ، ان يفترقا باكراً ، لانه اعتبر امتناعها عن المجيء الى مخدعه  
تطاولاً على حقوقه .

أجل ، كان سؤالاً رهيباً بالنسبة الى فتاة أنوف كالآلسة دندير ، ورهيباً  
ايضاً بالنسبة الى كوستال . وكان يتوقع ان تجيبه : « اعدني الى منزلي » .  
أتراها لم تدرك انها افسدت جو ذلك المساء ، وجعلت رفقتها فيه لا  
تطاق ؟ ولكنه 'دهش عندما اجابت : « لنذهب الى مكان ما » . ولبادر  
الى ذهنه انها غير مرهفة الاحساس ، وتحتاج الى مزيد من التدقيق .

والسببنا هي الملجأ الاخير في مثل هذه الحال لابناء القرن العشرين .  
فاذا كانت هناك نيات سافرة بين رجل وامرأة ، فان مطافها ينتهي دائماً  
الى احدى القاعات المظلمة .

ودخلا احدى قاعات حي « الانفاليد » ، فراح سولانج ثبلل جهودها  
لتقطع الصمت الثقيل الخيم عليها . الا انها تحدثت عن اشياء تافهة ،  
بينما لزم كوستال الصمت التام ، كأن اعصاب لسانه تقطعت فاصبح عاجزاً  
عن التفوه بكلمة . وكانت مقتنماً بانها لن يلتقيا بعد ذلك اليوم ابداً .  
لا ، لم تجرؤ امرأة قط على مخاطبة خليلها بمثل الكلام المذل الذي

وجهته اليد سولانج... كان يعتقد ان مداعباته لها تريد لها تقارباً ، وثقوتى عرى علاقتها ، فاذا بالفتاة تصارحه بان هذه المداعبات تبعدها عنه . وغلى الدم في عروقه حتى اصبح يودّ لو يجرحها ، فقال في نفسه : « يجب ان تعلم كيف اضرب وأوجع اذا 'مس' شعوري » .

واستغرق عرض الفيلم ساعتين ونصف الساعة ، فما فتح كوستال فمه طيلة هذه المدة . وكان الحر شديداً فجعلت سولانج تمسح العرق المتسبب على جبينها وانفها بحرمتها الصغيرة الصغيرة كمنارم الاطفال . وقد تكون مسحت بها عينيها ايضاً ، فغفل الى كوستال انها تودّ لو تبكي . ولاحظ انها وضعت يدها على مسند مقعدها من ناحية ، فلن انها تدعوه الى أخذ هذه اليد بين يديه ، ولكنه حرص على ان لا يفعل . ورة او مرتين ، ادارت وجهها اليه دون ان تتكلم ، كأنها تطلب اليه ان يقبلها . ولكنه بقدر ما كنت يلس ما في موقفه من الحسارة ، والقلالة ، والمسكنة ، والسخافة ، كان يلتصق بهذا الموقف ، ويأبى ان يحيد عنه . وفي فترات الاسراحة كان يقرأ على وجوه بعض النظارة رأيهم فيه ، فاحس انهم يقولون في نفوسهم : « يا لها من صغيرة فاتنة ! وتباً له من عالج يماندها ويمرض عنها !... أليس من الغريب ان تكون هذه اللؤلؤة مع هذا الخنزير ؟ » وأشد ما آلمه في هذه الازمة انها شبيهة بالخلافات الزوجية .

واخيراً انتهى ذلك العذاب المرير ، فخرجوا من قاعة السينما وهم صامتات . فاقدمت سولانج على البادرة لم تجرؤ على مثلها من قبل ، فتأبطت ذراع كوستال ، فتأثر ، فكان الفتاة قالت له بهذه البادرة وبكل ما فيها من مذاجة الطفولة وبراعتها : « عد اليّ ! ألا ترى اني غير نائمة عليك ؟ » ولكنه وجد في هذه البادرة وسيلة جديدة لتعذيب سولانج بالرغم من تأثره العميق ، اذ يكفي ان لا يبالي بها ولا يتجاوب معها ليجرحها ويرجعها .

ولما وصلا الى شارع « فيلياء » ومرا بالقرب من بيته : وثابت سولانج سيرها دون ان تتوقف لحظة واحدة ، انقبض غيظه ، وقال لها بصوت يهتجه للفضيب :

- جرحتي جرحاً بليغاً ، قلت لي افطع ما تستطيع امرأة ان تقوله لرجل ، فتدوت عابجاً عن ملاستك ، عن مد يدي اليك ، وسأظل اعتقد انك لم تتساهلي معي الا على سبيل المجاملة ، بينما انت تعانين القرف والسأم في اعماق نفسك .

- ما هذا القول ؟ ا انت تعلم جيداً ان ...

- لعنة الشيطان على جميع الفتيات ا على الفرنسيات الصغيرات الناعمات الباردات اللواتي لا يكتشفن المتعة الا في السادسة والعشرين من العمر ا ما العمل لتكون الفتاة راضية ؟ لم يجد الانسان بعد غير هذه المداعبات ، فهي الرسيطة الوحيدة التي يبر بها الرجل للمرأة عن محبته لها ورغبته فيها ا لا ، ان هذه الحال لا تطاق . لن استطيع مداعبتك بعد اليوم . واذا شئت ان تعيش كأخ واخته ، فاقول لك بصراحة : لست بالرجل الصالح للقيام بهذه المهمة . سلمتني نفسك ، وما انت تشميدنيها . ولكنك سلمتني نفسك ، وهذا ما لا يذول مذاقه من نفسي . فتحت امامي باب غرفة مليئة بالموسيقى ، ثم اغلقتها ...

وكانت تسمع اليه ، وما يسيران ، دون ان تقول كلمة ، فدارا ثلاث مرات حول كتلة الأبلية التي يقع فيها منزل كوستال . وبعد صمت قصير استطرده قائلاً :

- وبعد ، فكيف اجروا على مخاطبتك بعد اليوم ؟ اي اهمية يمكن ان تعلقي على ما اقوله لك ؟ قلت لك عشرين مرة : « كوني صريحة معي قبل كل شيء » . ولما عمدت الى الصراحة سقطت كل شيء . لقد حلت بك العقوبة لانك كنت كما طلبت اليك ان تكوني . وما انا لا استطيع ان اعمل معك شيئاً ، ولا ان اخاطبك . لست مذنبة في شيء . كل ما



في الامر ان هناك اختلافا بين طبيعتك وطبيعي . واني اردت مؤكدا  
لك ان هذه الحال لا تطلق .

ووصلا مرة اخرى الى قرب منزله . ولولم يتوقف هو لواصلت  
في السير ... فمد اليها يده قائلاً :

— يا انا سنتقي غداً في حفلة « هوتسكور » فمن الحتم علينا ان  
نتحدث من جديد ، ولكنني اصرارك بان كل شيء قد انتهى بيننا .  
ورآها تنظر اليه بعينها الجليتين ، وقد ملأتها الدهشة ، والحكاية ،  
والتوبيخ ، كيني كلبة تنظر الى صاحبها الجلف الذي ضربها دون سبب .  
ومرت سيارة تكسي ، فواقفها . وكان صوته مخفوقاً في صدره ، حتى  
انه اضطر الى ترويد عنوان منزله مرات عديدة ليفهم السائق .

ووجد في غرفته سريره مرتباً ، والى بجانبه الازهار الالهة التي  
كان قد اعد لها لسولانج ، فانطرح على الفراش وهو يتألم في كل ذرة من  
روحه وجسده ؛ يتألم بالآلم الذي يسببه لها وهو يحبها ؛ يتألم لانه يؤلمها  
انتقاماً من صراحتها ؛ يتألم لحرمان نفسه ايها جسدياً ؛ يتألم بألمه من  
حرمان نفسه جسدياً ، مع انها لم تكن تعطيه جسدياً الا متعة ضئيلة ؛  
يتألم لان آله ناشب في اظلم نواحي رجولته ، في كبرياءه الجلسية ؛ يتألم  
لان هذا الآلم فيه ألم الذكورة السخيف ؛ واخيراً ، يتألم من شدة الحرارة  
التي كانت في غرفته ٢٧ درجة مئوية . ومن حين الى آخر ، كانت تسقط  
وريقة من تويج احدي الازهار كأنها دقة ساعة ، فيخيل اليه انه يشم  
رائحة سولانج ، هذه الرائحة الحسية التي استقرت فيه كالسواوس ، وراحت  
تزيد لوعته استداماً ، وتطوف في جو الغرفة كذرات القبار التي يحملها  
الهواء في فصل الصيف .

وخطر في باله ان يأكل ، فجاء بدجاجة مشوية من المطبخ ، والتمها .  
فهذا آله . ثم احس بشيء من السرور لانه تألم . من القيد ان تكون  
لدى الانسان معلومات عن كل شيء .

وفي الليل ، رأى بالحلم مربيته الانجليزية عندما كان صبياً ، ولم يكن قد حلم بها قط في حياته ، فتمعن عليه ان يجد لهذا الحلم تفسيراً . ففكر بهذه المرأة ، فجاءته ذكرى عجيبة : تذكر ما كان يستولي عليه من الرعب لما كان يستيقظ من نومه باكراً ويتصور من المحتمل ان تكون المربية قد ذهبت ، ولن تعود . فينهض من سريره ، ويسير حافياً حتى يصل الى غرفة المربية . فيرى ثيابها ومختلف اشياها مرقبة على احسن ما يرام ، ويعلم انها ذهبت الى الكنيسة ، على عادتها كل يوم ، لتحضر القداس . ولكن هذه الحقيقة الراهنة التي لا تقبل الجدل لم تكن كافية لطمأنته ، فكان يسير على رؤوس اصابع قدميه حتى يصل الى اعلى السلم ، ويجلس خافق القلب بانتظار صرير مفتاح المربية في قفل الباب الخارجي ، عندما تعود من القداس . فقد كان يعلم في قرارة نفسه انها في الكنيسة ، فلا يكاد يسمع صرير المفتاح ، حتى يسرع الى سريره ويستلقي متظاهراً بالنوم .

لو كان يضرر لمربيته المعجوز شيئاً من ذلك الحب الغريب الذي يكنه الاولاد عادة لمربياتهم - وكان آنذاك بين السادسة والسابعة من العمر لسهل تفسير قلقه وتخوفه من غيابها الى هذا الحد . ولكن وجه الغرابة في الامر انه لم يكن يحبها ، بل كانت يضررها العداء ، لانها كانت تضربه بالسطرة على اصابه اذ يخطيء في عزف امثولته على البيانو ، وتدعه احياناً يبكي نصف ساعة امام مسالة حسابية يميز عن حلها ، دون ان تقول له كلمة تساعد على حلها . وكانت تنزع حبات الزبيب من كمكة عصرونيته بحجة انها تؤذيه ، ولكن الحقيقة انها كانت تحب حبات الزبيب وتلتهمها بسرور . وكانت محبته لها زهيدة حتى انها لما تقاعدت عن العمل بقيت في باريس ، لما كلف نفسه مرة واحدة ضياء زيارتها . لقد بحث طويلاً في حنايا نفسه ، لما وجد فيها لهذه المربية سوى الالامبالاة وشيئاً من النعمة ، ولكنه وجد فوق هذه الالامبالاة تقاضاً مبمتر

من اندفاعه المجنون الذي تفوح منه رائحة الهيام ، ومن قلقه الشبيه بقلق العاشق الصغير الشارد اللب في البيت الكبير الراقد ، الساعة السادسة والنصف صباحاً ...

وساءل كوستال نفسه أيحب سولانج ؟

وفي اليوم التالي كانت الحفلة الراقصة عند « هوتكور » . فبضعة اجساد لساء تكفي لنجاح الحفلة . وما قيمة المجتمع دون هذه الاجساد ؟ لو خلا منها لذكرناه ينوص في اللجة ويندثر .

وصل الى الحفلة بمدىها بقليل ، فراح يراقبها بنظره دون ان يدهمها تراه . وكان يود لو تبدي استقارها ، بشيء من التحفظ الذي يفرضه التهذيب ، لجميع اولئك الناس الذين كانوا حولها . ولكنها كانت تبدو مسرورة ، مريحة مع الجميع . أفنكون من نوعهم ؟

رقصت ثلاث مرات مع شاب متأنق فافه ، فجعل كوستال يقول في نفسه : « اذا ذهبت معه وجلسا في مكان ما وراء المصنف ، او على احدى درجات السلم ، فسأشعر بان دمي قد غادر وجهي ، وغادر ساقي » ، كأنه يجري تحت ارض القاعة . واحس بالفعل ان دمه بدأ يغادر وجهه وساقيه ، فكان ما خشيه قد حدث .

مشى اليها وفي وجهه دمامة غير منتظرة ، دمامة زوج غيور ، فالتقتا وقد تغير فيها كل شيء ، وبدأ وجهها مشرقاً ، وعيناها متألفتين بالطف والحنان ، كأن شيئاً لم يحدث امس . فكان لهذه الثقة فعل السحر في نفسه .

رفصا معاً ، وكوستال يخاطب نفسه قائلاً : « هل قدّر لي ان اكون الذكر القبيح الى النهاية ؟ كنت امس شريراً ظالماً لأنني تأملت في كبريائي الجنسية ، وغداً سأكون ذليلاً يعودني الى مداعبتها مع علي بأنها تحتملني على سبيل المجاملة . هذا الجسد الذي اضمه الآن بين ذراعي امام مائي نسمة قد ألقيت رأسي على بطنه العاري . فما اعذب هذا الشعور !

وبينا كان خدي على هذا البطن ، سمعت قرقرة الامعاء كصوت الجليد وهو يذوب ... وبعد ، فليعلم الجميع انها لي ا .

وأراهم بالفعل انها له . ففي نهاية احدى الرقصات ، وقعت حادثة مذهلة ، اذ جلس كوستال الى جانب سولانج ، ووضع يده على فخذه من فوق الثياب كما ينضج الأسد قائمته على قطعة من اللحم استولى عليها . لم يفعل ذلك وهو في احدى الزوايا وعلى حدة ، بل في وسط القاعة ، بين مائتي نسمة . ولم يقتصر هذا الاستيلاء على ثوانٍ ، بل استمر طويلاً ، حوالى نصف الدقيقة . ولم يكن ذلك في محيط مشبوه ، او على جانب زهيد من التقدم والرفق ، بل في مجتمع جميع افراده من الطبقة الارستقراطية الرصينة ... فما اقبح ان يدعو الناس الى حفلاتهم اناساً يعيشون في الخيال الشعري !

وادرك كوستال ما في عمله من « العظيمة » ، ولا شيء من الفجور . فهو عمل الزوج ، عمل السيد منذ أقدم العصور ، عمل القرد مع قردته . انه عبقرية « الزوج » المتألف مع انثاه .

وادرك ايضاً ما في قبول سولانج بهذه الحركة من « العظيمة » ، وهي الفتاة المتحفظة ، البسيطة ، الهادئة . لم يبدُ منها اقل ردة ، ولم تحاول الدفاع عن نفسها في وسط ذلك الجمهور ، كأنها لا تبالي باحد ... بل كأنها مسرورة بان تدمن على هذه الطريقة المتكررة المبعثة ، امام الجميع ، ليعلم الناس من هي بالنسبة الى الرجل الذي اختارته .

ولما رفع يده عنها ، كنت قد نشأت بينها علاقة جديدة . وبقيت يده موضوعة عليها دون ان يراها احد . وفي ذلك المساء جاءت الى مخدعه ، على عادتها ، في الوقت المعين .

من  
تدريسه هاليجو  
سان لوياس  
الى  
بيار كوستال  
باريس

١٥ حزيران ١٩٢٧

الرجاء ان تقرأ هذه الرسالة بكاملها .

عزيزي كوستال ا

الي بعيدة منك ، عاجزة عن الدفاع ، ترميني المزة ، وتسحطني سماء  
حارة ، فتذكركني ببيت من الشعر لك ، هو :

« جلست حارة النهار على الارض كأنها انسان ا »

هبت عاصفة هوجاء في هذا الليل ، فسررت بفرار النوم من عيني ،  
لاني افطنمت فرصة بقطي لأفكر بك . عن اي شيء حدثتك في رسالتي  
السابقة ؟ اني لا اكتب مسودة لرسائلي اليك ، واخشى ان تكون اشتكت على  
الكثير من المتناقضات الفظيمة . اعتقد اني حدثتك عن نوع من الراحة ...  
أجل ، أردت ، بكل ما أوليت من حسن النية ، ان أنقذ صداقتنا من  
هذه الطرادث المريعة التي مجتازها ، على الرغم من اعتقادي ان الرجل  
لا يستطيع ان يحب صداقة المرأة التي يعجز عن حبها غرامياً . عندما  
رفضتني رحمت اخاطب نفسي قائلة : « انه يشتهي المرأة التي تتهرب  
منه ، ويحتقر التي تقدم له نفسها ، فما اسخف هذا التصرف الغريب ا »

ولكنني اعترف بأن الحبيبة والرفض يضاعتان الف مرة رغبتنا في الحصول على الحبيب المُنْعَرَض . وهذا ما اختبره الآن في ما اعاني من رفضك . ثم كيف انساك ؟ ان كونك رجلاً « عموماً » يجعل النسيان مستحيلاً ( والرجل العمومي في نظري كالمرأة العمومية ) . فلكي ترقد في نفسي وتغيب عن بصيرتي ، يجب ان لا اقرأ جريدة ولا مجلة . وفي هذه المناسبة ، اود ان اعلم شيئاً ... لمجلة « الاخبار الادبية » نشرت قصيدتك الاحيرة ، وقد قرأتها .. بالفظاعة ! .. في الكنيسة الخالية من المصلين ، لأنها المكان الوحيد الذي اجد فيه قليلاً من البرودة . ومطلع قصيدتك هو :  
« بما انك تحبينني ، وبما اني احبك ... »

اما الشيء الذي اود ان اعرفه فهو هل فكرت بي قليلاً عندما نظمت هذه الابيات ؟ اني اشك في ذلك ، ولكن ... ولكن ، لا ! لا شك في ان هذه الابيات موجهة الى امرأة اخرى . ويخيل اليّ اني اسمعك تزجر لدى اطلاعتك على هذا السؤال قائلاً : « ما أشد سداجة هذه الفتاة ! » واذا كنت حقاً ساذجة ، فلا تلم إلا نفسك ، لأنك وحدك المسؤول عن سداجتي . فقد كان يوسعك ان تجعلني امرأة غير ساذجة ، لكنك أبيت ان تفعل .

أما هذه النجوى الغرامية التي تملأ بها المجلات الاسبوعية ، فانها تحرك النصل الفانس في جرحي ، وتغمم نفسي غيرة واشتهاء .

آه ! جميل جداً ان تكون قادراً على تمرير نفسك وعلى عرضها للانظار باسم الادب والفن . ومن الواضح انك تثقت حيي مفتاً عميقاً . ولكن ما حيلاتي في هذا الامر ؟ اني افكر بك من الصباح الى المساء . كدت اقول ان حبك يفوح من جسدي كالرائحة التي لا تحجب ، ولكن هذا القول لا يخار من الادعاء ، فالحقيقة هي ان جسدي ينضح بحبك كما ينضح بالمرق . مررت قريباً جداً من حياتي ، فجرتني في مدارك كما تجرف الشمس نجمة صغيرة معزولة ، واحرقني بنورك المتوهج .

اصارحك صادقة" بالي اوده من صميم القلب ان يكون امرنا كذلك ،  
فتكون قد قتلتي سهواً ودون قصد ، ولاشيتني . لست ذليلة ، ولا اعاني  
غزقا مهلكا ، ولكنني في ذمول . جعلتني غير صالحة للحياة العادية  
المألوفة . غدت كمثل الاشياء القديمة التي يقول فيها خبراء الآثار : « انها  
جيلة ... انها غالية » ، ولكنني ارفض شراءها منك ، لان ثمنها غير معروف  
الآن . ولكنها جيدة ، فلا تتخل عنها » . اعرف ان لي قيمة ، ولكنني  
غير صالحة للاستعمال ، وقد انتهت الى القرف فادمر نفسي ، كما يعرف  
المراء من تحفة ثمينة فيدمروها لان خبراء الآثار يجدونها في منتهى الجمال ،  
إلا انهم يرفضون شراءها منها تساهل صاحبها في بيعها .

أجل ، الي غير صالحة للاستعمال . وبسببك ، انت ، حرمت جميع  
الرجال ان يجدوا بي ما كنت استطيع ان اقدمه لاحدكم . فلو جاءني  
اليوم رجل " محب ، مخلص ، وارادني نفية " ليكون لي ، وأكون له ، لما  
استطعت انت اعطيه إلا بجنة فارغة ، كأني كنت خلية لاحدكم ، او  
مترجلة . فبكارتي الممنوية قد زالت من الوجود .

كيف لا تحس بان هذه الحبال تقرض عليك واجب التعويض علي ؟  
واعني بالتعويض ان تمنحني الارتواء الجسدي الذي هو حق من حقوقي .  
ان زهدك بي هو نوع من التألق الفاجر ، الشرير . قلت لي ، مرة ،  
' محرقا شمار جريدة « العمل الفرنسي » : « كل ما هو طبيعي هو لنا » .  
لا ا لست قريبا من الطبيعة ، وقد يكون هذا الفطن اكبر وهم بين  
ارهابك . فانت قريب من القداسة ، ولكنها قداسة معكوسة ... قداسة  
شيطانية . ولشدة اهتمامي الدائم بك ، اعرف كل يوم اشياء جديدة عنك  
على الرغم من سكوتك ، كما اعرف اشياء عن نفسي . بحت لي يوما بما  
سميته « فضولك لمعرفتي » . ورواني اعتقد اليوم ان هذا الشعور هو الوحيد  
الذي كان لي في نفسك ، وهو شعور مهني صرف . كان من المحتمل ان  
نشتيني لو لم أكتشف لك برائتي عن كل ما في نفسي ، وهذا هو الشقاء

الأكبر في حياتي ، وسببه عزلي التي جعلت كل شيء بيننا يجري بالترسل .  
ولكن ، أوافقك أنت بأنك تعرفني معرفة كاملة ؟ ألم يخطر في بالك ، حتى  
على الصيد المهني ، أنك لو أردت أن تجعل علاقتنا حميمة أكثر لاكتشفت  
في أشياء جديدة ؟ وبعد ، أوافقك أنت بأنك لا تحتاج ، إلى ؟  
لن تجدي من جديد إلا إذا أحسست يوماً ما بهذه الحاجة ، وكانت  
حاجة كلية ، شاملة . فأكون عندئذ خليلتك ، أو زوجتك ؛ ولن أكون  
صديقك أبداً .

وسعود إلى - إذا شئت - وانت تعلم علم اليقين أنني أحبك ، وأعبدك ،  
وإني اشتيت وما أزال اشتيت قبلاقتك والاستسلام لذراعيك ، ولم  
تساررني قط شهوة أخرى . أفسرور أنت بهذه الصراحة لا أن حسانتي  
في منتهى الوضوح . وإني أجد راحة وحشية حين ألس أعماق خضوعي  
بك ، وأجد خطياً عهد أمانتي لهذا الخشوع المطلق ، وأعطيك دائماً  
هذا السلاح الذي تستعمله لقاتلتي .

أندريه

( بقيت هذه الرسالة بلا جواب )



صاح كوستال ، وهو يدوس قواعد اللغة كأنه يهذي :  
.. لا شيء غير ساقيا ، أصاد أجن ا انظري يا صديقتي الى هذه  
الصغيرة الناتئة . ان في جمال وجهها ما يطمن كسن الحربة . يكون المرء  
مرقوياً ، لا يهيم الموت ، فاذا به يعود فجأة الى حب الحياة ، ويرفض  
الموت . ولجأة يفقد اترانه ورسائنه ، حتى انه لو اراد الكتابة لخائنه  
معرفته بقواعد اللغة . عمرها ثمانية عشر ربيعاً ، إيه ؟ وذراعها اجل  
من ذراعيك . وندوب الفلاح على ذراعها ... ألا ترين انها لفن القديس  
ميخائيل رئيس الملائكة ؟ لا اخفي عنك ، يا عزيزتي ، اني اود ان افترس  
هذه الصبية حية . انها تسر وجهها بحريسة معتدلة الآراء لتتمخط  
بحرمتها الصغيرة . لا تريد ان اراها تقوم بهذا العمل البعيد عن الاناقة  
والنبل . ثم تضع بحرمتها في حقيبتها باصابع كأنها قطعة حاوى . وكما  
فاجأتني انظر اليها ثم بلسانها على شفيتها . ما اروع اختلاج كتفها حين  
تضحك ! وما اجل فرق شعرها المتعرج بلا نظام ، واذنيها البريثين من  
الامراض ! ان في فاش ثوبها ، وفي ساعها اليدوية ، شيئاً فقيراً يفهم  
نفسى رغبة ملتهبة ، قاتلة . اي قوة في العالم تستطيع منمي من اشتها  
هذه الصغيرة ؟ اود لو اهرق طعم شعرها حين امضه . اود لو ... حقاً  
انها جديرة بان تشتهى . وما اذا اشتتها . أليست هذه سنة الطبيعة ؟  
اني لا اكسر شيئاً ، ولا اضرب احد اذا اشتيتها ، ولكن عندما ارى  
العروق البارزة برجلها السميتين في حذاءها الرخيص يعود اليّ الوعي  
والصراب ، فاصبح رجلاً عادياً ... اعترف لك يا صديقتي العزيزة بهذه الحقيقة

بلا مواربة . أتراني أمي، اليك وازعجك بهذه الأقوال ؟ أجل ، أرى ... أرى أنك قائلين ، قاصصحي عني . ولكن ما حيلتي ، يا صديقي ! اني من جنس هو نقيض جنك تماماً في كل شيء . فانا من الجنس الذي يشتهي دائماً ... جنس الرجال . وجل ما احب هو ان اعرف كيف تكون النساء عندما يستلبن ، لأستطيع القسارنة بين اساليهن المختلفة ... ما هي السعادة بالنسبة الى جنسي ؟ السعادة هي القدرة التي يعرب فيها للوء عن قبوله ورضاه . فالرجل المتصوف ينتس كثيراً بحبه من امرأة الى اخرى ، لان تعلقه بامرأة واحدة يناقض النهج الضروري لحبائه الروحية . وانت ابناً نجمة صغيرة بين الوب النجوم . وسينحمد فورك لدى بزوغ الفجر . أصبح اني ازعجك ؟ اني اعرف معنى هذه الابتسامة التي تبدو على وجهك عندما لا تكونين على ما يرام ... مع اني لم اقل لك 'هجرأ' .

— لا ! لم تقل شيئاً مزعجاً .

— ويجب ان تلاحظي ان ما قلته لك كان موقعاً على ألحان موسيقى الرقص . آه ! انك لا تحسنين اللعب والمغامرة !

.. لا فائدة من الشرح ، لانك لا تريد ان تفهم ما هو مقامك في

نلسي .

.. أجل ، لا اريد ان افهم ، لأنه لا يجوز ان اشغل مكاناً كبيراً في

حياتك .

فنظرت اليه بنزق ، وفي وجهها كل معاني التوبيخ ، فقال لها :

— يسرني ان تعيني ، ولكفي اود ان لا تحبيني كثيراً . ويسرني ان

تجدي في حيي ما يرضيك ، ولكفي اود ان لا يتجاوز رضاك الحدود

المألوفة ، لأن تورطك في حيي يورطني في التزامات جديدة ، ويكرهني

على تجاوز ما افهم به تلقائياً في حالة طيبة بعيدة عن التصنع . ان

امعانك في حيي يخلق لي واجب مقابلتك بالمثل ، وهذا ما انشاء ، لا

لأنني لا أحسن القيام بالواجب ، ولأن الواجب لا يعني شيئاً في اعتقادي ، بل لأنني اضطر إلى انتهاج الحياة والمجاعة ، ولست قادراً اليوم على سلوك هذه الطريق . جل ما أودّ أن تحييني وأن تشتهي رغبتني فيك ، بقدر ما أحبك واشتهيك ، لا أكثر . صدقيني إذا صارحتك بأن مقدار حيي وشهوتي معقول وكافي .

وفي اليوم التالي كتب كوستال ، في « غابة بولونيا » ، على صفحة بيضاء من كتاب « تربية الفتيات » الذي كان بين يديه ، التنبذة التالية :

« على أحد البنوك صغيرتان فانتتان » ، في الخامسة عشرة والسادسة عشرة ، كأبهما خارجتان من أحد أفندي « ملياغر » ، وممها أمهما ، ولا ريب . . . ولكنها أمٌ تدرك معنى الحياة . كلٌ منها تهز إحدى رجليها هزاً منتظماً ، كما يهزك الحمار ذنبه . ليتني أمضي ليلة كاملة واحدى هذه الأرجل بين يدي ! يخيل إليّ أني لو نظرت إليها كما انظر إليها الآن ، ولكن هناك في مخدعي ، بشارع « فيلياء » ، لأحست كلٌ منها بأن شيئاً يثقب قلبها ، وبأن قلبها ينزف دماً فجأة ، دون أن تدري لماذا ، بينما هي منصرفة إلى الحياطة . يا ابتها ! الطبيعة ! اعصمني من أن أشتهي سواها ما دمت أحبها . »

- ١ - ذاغر فيلبيجي مجيد ( ولد حوالي سنة ١٤٠٠ ، ومات سنة ١٧٠٠ ق . م . ) من أبناء غدارا التي سماها الانجيل : « كورة الجدريين » ، أمضى حياته كلها في صور . كان يدرّس الآرامية واليونانية ، ولكنه نظم شعره باليونانية . حذق نظم المقطوعة الصنوبرية ، وأحب السفر والتنقل . وصلت إلينا ١٣٠ مقطوعة من شعره ، أكثرها في المنزل المزخرف بالوصف والكشيد . ومن أجل شعره :
- « صور ، وبيبة الساء ، حفتلني يافاً ،  
وربة غدارا المقعة غفنتني شاباً ،  
وجزيرة قبرص الحبيبة رعنتني شيخاً ،  
فان كنت فيليدياً فلك مني التبعيلات »

ان الشعور الذي سيطر على الانسة دنديتو منذ ان خفق قلبها للحب هو الخوف من ان لا يحبها كوستال كفاية ، ومن ان يهجرها . فقد اصبحت ، حيال الرجل الاول الذي احبته ، وحيدة في العالم ، وهددة من كل جانب ، ولا سند لها لعود اليه في الملمات .

قبل ان تحب ، كانت لياليها رتيبة ، متشابهة ، ليس فيها ما يستحق الذكر . اما الآن فلكل ليلة احلامها ، وهي احلام مزعجة ، إلا انها لا تبلغ حدود الكوابيس . كانت تعلم ، مثلاً ، انها على دراجة هوائية منفصلة بسرعة على منحدر ، وانها فقدت سيطرتها على الدراجة . ولكن الحلم كان ينتهي عند هذا الحد ، ولا يكتمل بسقوط في الهوة . وكانت تعلم احياناً بان بقرة انفصلت عن قطيعها ، ودنت منها حتى كادت تلامسها ، ولكنها لم تهاجها . ولم يكن كوستال يظهر في هذه الاحلام ، مع انه كان مصدرها وعلتها . فقد كان شيطانها الخفي . وفي بعض الاحيان كانت سولانج تقارب منه في احلامها ، ولكنها لا تراه مباشرة ، بل تعلم بانها تفكر فيه .

هناك نساء يكسبن الحب قوةً ولشاطاً وطلباً من الروثق ، خصوصاً اذا كان الحب الاول في حياتهن . اما الانسة دنديتو فقد حل بها المقم ، فوهنت قواها ، واصيبت بشيء من الهزال الجسدي . وخوفها من ان تفقد كوستال زادها وهناً ، فكانت تحس دائماً انها دون المهمة التي انيطت بها ، وانها متعبة تحتاج الى الجلوس . واذا وقفت بعض الوقت احست بألم في فخذها .

وعلى المائدة كانت تمضغ الطعام بقوة ونشاط لحاجتها الى تحريك اعصابها ، فتسبق امها في التهام ما في صحنها ، وتضطر الى ملئها من جديد ، حتى أصبحت تأكل اكثر من المعتاد . ولاحظت انها عندما تأكل كثيراً تزداد قوة . ولما بدأت بالاكثار من الطعام احست ان فخذها مما التان غنمتا القسم الاكبر من الغذاء .

وراحت تأكل بشهية وكثرة كلما كانت على موعد مع كوستال ، مما جعل الخادمة سوزان تبسم ابتسامة عريضة كلما قدمت لها المزيد من الطعام على المائدة . فكانت سولانج تقابل هذه الابتسامة بالمثل ، بدون ان تدرك ان الخادمة فهمت كل شيء .

وأصبحت تتناول فنجانين من القهوة دفعة واحدة ، وتلتهم طعام الغداء مرتين . وكثيراً ما كانت تمضغ فواة خوخة حتى تكاد تكسرها ، كأنها كلب يعض كرة صلبة ، فيفيض عليها لعابه . وفي بعض الاحيان كانت تدخن سيكارتين من التبغ الاسود ، واحدة بعد الاخرى ، وهي التي لم تكن مدمنة على التدخين . ولكن السيدة دندير لم تلاحظ شيئاً من هذا كله . ولا حاجة بنا الى ذكر السيد دندير في هذا الصدد ، لأنه لم يكن يهتم الا بنفسه . وهكذا كانت الخادمة ترى ما لا يراه الاب والام . يقال ان حب الام اعمى ، وهذه حقيقة لا ريب فيها .

ولو لم تكن الالسة دندير فتاة عاقلة ، ورمينة ، لأدركت ان جرعة من الخمر تكسبها تلك الحيوية الماهرة التي تغنيها بالتهام الكثير من الطعام . ولكنها لم تكن تعرف فضيلة الكحول ، ولم تحزر ما في الخمر من القوة . والناس ، مثلها ، لا يعرفون ، او يعرفون قليلاً ، وهذا القليل يساري لا شيء . فالقائد العسكري يعلم ان افضل الجنود في القتال هم الذين ينزلون الى الميدان بعد تناولهم قليلاً من الخمر ، ولكنه لا يحامر بهذه الحقيقة ، مع ان المجاهرة بها مفروضة عليه .

ومنى علم الانسان ان افظع آلام الحب تربلها وقمة عاهرة من الطعام

الجيد ، لبضع ساعات على الأقل ، متى علم ان الشجاعة الجسدية  
والمعنوية ، والالهام الشعري ، والاخلاص ، والتضحية قد يكون مبغثا  
كلها رقة جيدة من الطعام ، وان سمو النفس مدين بوجوده للحم نتن  
ننتزع من حيوانات ميتة ... متى علم الانسان هذا كله ، فلا يجوز لنا ان  
نحاول جرّه الى الايمان بالسمو ولقم العليا لنُدفعه الى التضحية وبئس النفس .  
ولكن الانسان ، الذي يوشك ان يعرف هذه الحقيقة ، يتهرب منها  
كي لا يعرفها . واذا عرفها ، تظاهر بأنه لا يعرفها ، لانه لا غنى له عن  
المحافظة على انسحاب الاوهام في سماء الحياة .

اما كوستال فكان ، بخلاف سولانج ، يتناول وجبة خفيفة من الطعام  
حين يكون على موعد معها . وكانت نشاطه الطبيعي يتدفق بقوة  
وسرارة ، فلو حاول تقويته قليلا لفقد شيئا من صفاء ذهنه ، وهذا ما  
كان يأباه فوق جميع الاعتبارات . وحتى في وجباته الخفيفة ، كان يتنعم  
عن شرب الخمر ، وعن افادة اعصابه بنشوة السكر . ولم يكن يشرب  
إلا حين يخف حبه للصديقة التي هو على موعد معها . وعندما كانت  
سولانج تتأهب لمغادرة مخدعه ، بعد انتهاء زيارتها ، كانت يتوجه الى  
المفصل ، ويشرب من الخفية . اما اذا تخلفت سولانج عن الموعد ، في الموعد  
المضروب ، الى المكان الذي عينه لها ، على مقربة من شارع «ليباه» ،  
فكان ينسى خيبته كأنها لم تكن . وبعد انتظار مدة عشرين دقيقة يتوجه  
الى اقرب سانة ويتناول من الخمر ما يطفىء به اسدياءه . كانت طبيته  
فائما على ميزة خاصة به هي : ان يحب كل شيء بقدر ما يحب نقيضه  
تماما . وقد جعل من هذه الميزة خطة لحياته .

وهكذا اعطاه القدر الاله لا ، ولا نعم ، فاصبح يرضى بهذه او بتلك  
على السواء ، وينعم بحياة أنعم من الحمل ، خالية من المتاعب والهموم ،  
حق انه كان يتعجب احيانا من اصحاب العقول الحيوانية والفلاسفة المزيدين  
الذين يعتبرون الحياة صراعاً .

قالت له يوماً : « تعال تناول الشاي هنذا يوم الاحد . فسيغيب أبي وأمي طوال النهار في « فونكلباو » عند ابناء عمنا . وسيغيب الخدم ايضاً في عطلتهم الاسبوعية ، فنكون وحدنا » . فراقته هذه الفكرة ، لأنه كان يتوق الى مداعبتها في الغرفة التي شهدت مراحل طفولتها ومراهقتها . وكم كانت تمتعه الروحية كبيرة حين رأى نفسه مع سولانج في البيت الكبير الخالي من سكانه ، وراها تعطل جرس الباب الخارجي كي لا يزعجها احد . ولكنه ما عثم ان لاحظ على شفتي سولانج بعض بشور الشباب ، وحول عيניהما دائرتين زرقاوين تجملان نظراتها عميقة بليغة التمييز ، فثبتت له صعة ما كان يظن بها ... واحس بماطفته تشتد كصوت البيانو عندما يطلق لاواره المنان . فقد كان يفضل اجتاعه بالنساء في فترات خضوعهن لسلطان الحب ، وشموههن بان السهم اصاب منهن مقتلًا ، لأن ضلعهن حياله كانت يزيد قلبه احتداماً ، وحوامه رهافة . رعباً كنّ يحاولن اقناعه ، في هذه الفترات ، بان حالتهن طبيعية ، لقد كان يعزو محارلتهن هذه الى التظاهر بالقوة ، ويزداد اعتقاداً بمحارلتهن الى الحب والمداعبة . وكان يميل بطبعه الى مسايرتهن ومداواة شموههن ، حتى ولو كن رياضيات ، يفتنمن جميع الفروض للادهاء بانهن اشد مناعة من الرجال في المواقف الحساسة .

وما هو الآن ، في قاعة الاستقبال ، جالس على مقعد وثير الى جانب سولانج . وكانت سماء ذلك اليوم من ايام الصيف غائمة كأنها من أيام الخريف . فتحدثا اولاً عن اشياء قليلة الاهمية ، ولكن كم كانت سولانج

مؤثرة وشبيهة حين كانت تنظر الى امام كأنها في نعل ، ثم تدبر اليه  
رجلها بحرارة ولطفة كلما قال لها كلمة لطيفة ، او عبارة قصيب منها  
وتراً حساساً .

طلب اليها ان تقوده الى نخلها فرفضت بشدة ، وهي التي عودته ان  
تلي جميع رغباته دون اقل تردد او تحفظ . وطلب ان تربية بعض  
صورها المفوظة من ايام الطفولة والحداثة ، فاشهرته بانها لم تقف امام آلة  
التصوير منذ بلوغها الرابعة عشرة من العمر ، ما يدل على انها وذويها من  
ابعد الناس عن الفنون وحب الظهور .

واخيراً وصل الى الموضوع الذي كان يحز في قلبه منذ حين . ففي  
زيارتها الأخيرة له ، عاقتها بحرارة وشدة بالفتن مرات متوالية ، حتى  
انه احس ، في آخر السهرة ، بينما كان يرتدي ثيابه ، بعياء وانهايار عصبي  
فازم الصمت واصبح ضامد الشعور تحت عبء ثقل من التعب . وقد  
يدل جرماً كبيراً ليستطيع التفوه ببضع كلمات عادية فاقية ، وهو يرافق  
الفتاة الى الباب الخارجي .

ذكرتها بهذا الحادث وراح يشرح لها ان الرجال يقعون احياناً تحت  
وطأة هذا الغياء المستبد ، بعد ان يحودوا بكل ما في نفوسهم واجسادهم  
من حيوية ونشاط في اثناء الرمال . وقال لها انت هذه الحال طبيعية  
ومألوفة ، ولا بد لها من ان تعذره اذا وقع فيها ، واذا لمست عليه شيئاً  
من الفتور .

وأسهب في الشرح والتحليل ، ثم سأها هل انتبهت الى ما حل به ،  
دون ان ينتظر منها جواباً . وكما كانت دهشته كبيرة عندما اجابته  
فوراً وبلمحة حازمة : « نعم ! » فساوره القلق وجعل يقول في نفسه :  
« ماذا ؟ ايقل ان تكون تلبّثت الامر الى هذا الحد ؟ اذا كان ذلك  
كذلك فالمسألة اخطر مما كنت اظن ! »  
وعاد يسأها :



— والمارات الاخرى ؟

— تلبهت له ايضاً .

فاشددت معشته ، لأن عيائه في المرات الاخرى كان زهيداً ، وكثيراً ما كان يطلّ بسرعة ثم يختفي بسرعة . وقد حرص دائماً على ساره تحت مظاهر القوة ، بامعانه في المداعبة ، فقال في نفسه : « يا الهي ! كم هي فاقية النظر ، مرهقة الاحساس ! وكم هي قادرة على اكتشاف الحقيقة وراء المظاهر المصطنعة ! »

وسألها من جديد :

— أكاد لا اصدق ! هل وجدتي بارداً في المرات الاخرى لدى

مغادرتك بي ؟

— نعم . وكنت اسأل نفسي : لماذا ؟ واخشى ان اكون قد خيبت

املك بي ...

فعاد الى شروحه يتوسع فيها ، وذكر بعض الكتب التي عالجت هذا الموضوع ، واقترح عليها ان يطلعها على كتب طبية استكمالاً للفائدة . وبينا كان يتحدث باهتمام ، كان ينتزع باصابعه بعض الوبر النبات على مرلها ( وهذه الحركة الصغيرة تستحق الذكر ) . ثم صمت فجأة كأن عليه لتفتحتا على اكتشاف لم يكن يخطر في باله ، فقال :

— واذاً ، فلما قلت لي : « بعد لقائنا ، احس انك ابتعدت عني » ،

كنت تعنين ما يحل بي من التعب ا

— طبعاً ا

فردد قائلاً وكأنه يخاطب نفسه : « بعد لقائنا ، احس انك ابتعدت عني ... » وللمرة الاولى ادرك ان لهذه العبارة معنيين : إما ان سولانج تشعر بانها باردة حياله بعد انتهاء المداعبة ، او انها تشعر بأنه هو البارد حيالها . وبين المعنيين فرق بعيد ، وهوّة عميقة الغور . فكيف ادرك المعنى الاول ، وغرب عن ذهنه المعنى الثاني ؟

قال لها :

- اسمعي ، يا سولانج ، فالامر بالسبح الاممية اصبحت تشعرين ، بعد قيامنا ببعض الاعمال ، بانك تبتعدين عني ، ام اني ابتعد عنك ، واصبح بارداً حيالك ؟

- كنت اجدك بارداً حيالي ، واحس فيك ردود الفعل التي شرحتها لي الآن ... كنت احس بذلك كما يتحسس الاعمى برؤوس اصابعه الكلمات المكتوبة باليدية « براي »<sup>١</sup>.

- ما افطع سوء التهام الذي وقعنا فيه ! لقد فهمت من قولك عكس ما عنيت تماماً . ولكن لماذا لم توضحني فكرك ؟ لماذا تركتني مفتاهة منك ثلاث ساعات ، ثم سمعتني اوجع اليك كلاماً قاسياً طوال عشرين دقيقة ، وانت مطبقة الشفتين ، تنظرين اليّ كعجل صغير عاجز عن الكلام ؟ لم يكن عليك إلا ان تقولي بضع كلمات : « اجدك انت بارداً بعد لقائنا » .

فبدت منها حركة قتل على الاسف وفراخ الصبر ، ثم قالت :  
- ولكنك تعلم حق العلم اني لا اجيد توضيح فكري ، وقد صارتك مراراً بهذه الحقيقة ا ويقدر ما كنت اراك تشط وتبتعد عن فهم ما اقول كان يستولي عليّ الارتباك ، وازداد صجراً عن التمييز . وعندما اكون معك ، احس في اغلب الاحيان اني متلاشية ... وفي المساء الاول ... في غابة بولونيا ... لو قلت لي : اطرحي نفسك في النهر ، لمثلت .

- اعلم هذا . واسمعي انتباهك الى اني لم افعل . ولكنني لم أرَ قط مثل هذا الخطأ الغريب الذي لا يصدق . ان التباساً كهذا يعتبر مبالغة في الاختراع حتى في الروايات الخيالية . ولا يستطيع احد ان يصدق ان فتاة باريسية في الحادية والعشرين من العمر ، وفي سنة ١٩٢٧ ، تدع

١ - استاذ فرنسي اسمى ( ١٨٥٢ - ١٩٠٩ ) اخترع حروف الهجاء الثلاثة لتعليم العميان القراءة عن طريق المس بالاصابع . وقد اطلق اسمه على هذه الاليفيدية .

صديقتها بما فيها ساعات طويلة لأجل كلمة ما أرادت بها إلا التعبير عن خوفها من ابتعاده عنها ، أي لأجل كلمة لا تعني سوى المودة والاخلاص ، وكل هذا لأنها « لا تحسن التعبير عن أفكارها » . أفك غيبة ، يا عزيزتي ، غيبة أكثر من اللزوم ... أنك خرشوف ثابت إلى جانب سكة الحديد .  
— لماذا إلى جانب سكة الحديد ؟

— لأن مكانه هناك أفضل بكثير من الأماكن الأخرى .  
وعانقها بحنان حقيق . لم يخطر في باله قط أنها طفلة إلى هذا الحد ، وأنها هزلاء بهذا القدر ، وعاجزة عن الدفاع ، ومعرضة للعذاب من كل شيء ، وخصوصاً بسببه . وتذكر حركاتها البليغة للتعبير ، لما أرادت استرضاءه وتبديد غضبه : تذكر كيف تأبطت ذراعه ، للمرة الأولى ، ككلب توبخته فيمد اليك فائته مستغفراً . وفي تلك اللحظة أحس أن الغلابا شاملاً حدث في نفسه ، فرأى سولانج أضعف مما كان يظن ، وأدرك أنها تحبه أكثر مما كان يعتقد ، فأهيك بأن مأخذه الوحيد عليها كان قد تلاشى بزوال أسبابه الموهومة . وفي دقيقة واحدة أقاربت منه ، أقاربت من جوهر حياته كشيء تأخذه بيدك وتضعه على صدرك . ولم كان يستطيع أن يغم من السرور لو تسنى له في هذه الفترة أن يقتل رجلاً للتكفير عن إساءته اليها !

في هذه الفترة من الشعور الرقيق المتدفق ، انحنى عليها وقبلها ، ليس في نقطة التقاء الكتف بالعنق التي كانت عارية ، وهذه قبلة تمتهن شهوانية ، بل على جزء من الكتف كان مشرقاً بالثوب .  
وشرد الحديث بينها قليلاً في ذلك الجو من العطف المتبادل الذي حله على لثم قميصها عوضاً عن عنقها ، فانتقل إلى عيلتها بوحى المكان الذي جلسا فيه ، فقالت :

— لم يكن أخي ذكياً . فكل ما كان يستطيع عمله هو ربح المال ...  
لا أحب أبي وأمي محبة واحدة . أحب أمي بشيء من التساهل لأنها

خفيفة سطحية . اما ابي فداهية شديد التباهة . ثم انه مصاب بمرض عضال  
( كان دندير يعاني سرطاناً في البروستات جعل ايامه معدودة ) . وفضيلة  
عمي لويس كفضيلة امثاله من الرجال ، وهي السعي الى اقصى حد من  
الاعمال المشكورة ، باقل ما يمكن من المجازفة .

قال كوستال في نفسه : « ما اجل هذا التحديد للبورجوازية ! »  
واستطردت سولانج قائلة :

... اما ديانتي فهي اني غير مؤمنة ، ولكن عندما تقع تحت نظري  
جريدة ك... ( وهنا ذكرت اسم صحيفة اسبوعية باريسية الطابع اكثر  
من اللزوم ) احس اني على اتم الاستعداد لاعداد الى عقيدتي المسيحية ،  
واقول في نفسي : « ليس من المحتمل ألا يكون في الحياة شيء غير  
هذه التفاهة » .

واخيراً جرى بينها الحوار التالي ، قالت :

... من الواضح ان جميع للشبان الذين في مثل سني يفتقرون الى الحد  
الادنى من الشعور بالواجب ، بينا رجل مثلك ...

... انك تمزحين ، هل في ملاحي ما يدل على اني رجل واجب ؟

... لا . ولكنك رجل واجب على كل حال .

... يا لك من فتاة مرفهة الحس ا نعم ، لا بسد لمن يحب من ان

يصبح رجل واجب .

لما عرف كوستال سولانج ، اعتبرها دمية للتسلية ، واخذها كمن يأخذ  
امرأة ليراقصها برهة ، ثم يعيدها الى مكانها . وبعد حين ، عندما عرفها  
اكثر ، بدا له انها تتاج تلك التربية الخاصة التي تفرس في الازمان ان  
ابداء الرأي الشخصي عيب يناقض حسن التهذيب ، وان القاعدة المثلى  
في ادب الاجتماع هي ان يوافق المرء دائماً ومن غير تردد على وجهة نظر  
محدثه . وكثيراً ما عنفها بلا هوادة عندما كانت تقول : « اني مخلوقة  
من نوع خاص » ، فيقول لها : « انك نقيض النوع الخاص تماماً ، فانت

فتاة شبيهة كلياً بجميع الفتيات . . وكان يربحها كلها زعمت انها « لا تجد من يحسن فهمها » ، فيقول : « هذا ما ترددته جميع النساء اللواتي ليس لديهن شيء جدير بان يفهم » . وكان يأسف لمجزئه عن نفسها ولذعها على هواه ، لأنها لا تملك من رجحان العقل ما يساعدها على تدقيق المداعبة الفكرية ، فتأثر ، وتسلم ، اذ تحسب المزاج اهانة . وقد قال فيها يوماً المديح التالي الذي يبدو كبيراً للوهلة الاولى ، ولكن العين البصيرة لا تلبث ان ترى حدوده الضيقة ، وهو : « ما سمعتها مرة لقول قولاً سخيفاً ولا كلمة نابية » . وكانت في نظره متقلبة ، متصنعة ، ومثال اللثة الصالحة لتكون بطلاً رواية فرنسية . ولكن تبين له انها صدقت بقولها ان لاصديقات لها . فبدأت قيمتها تسو في نظره لرسوخ اعتقاده ان المزلة والقيمة كلمتان مترادفتان . إلا ان هذا الاعتبار لم يكن يتجاوز في ذهنه ما كان يسميه : « روعة المزاج السلبية في شخصية سولانج » . وكان يفكر دائماً بان صوت الوحي الذي قال للقديسة تريزا : « انت التي لا وجود لها » ، يبقى صادقا اذا قيل فيها . فالشعور المسيطر عليه ، بالنسبة اليها ، هو الاغجاب بجمالها الجسدي ، لا أكثر .

اما الآن فخيّل اليه انه يرى زجاجة صورة شمسية تتضع خطوطها ، وتتجلى معالمها تدريجياً في اثناء تظهيرها . فبدأت تكتسب له صفات جديدة وتفاصيل كانت خفية في شخصية الفتاة ، وهي صفات وتفاصيل تسعده ، وتشرقه . لم تكن ملاحظاتها وتقديراتها فذة ، ولكنه لم يكن يترقم منها مثل هذا الوحي ، وهذا السداد في الرأي ، فاذا هو يكتشف فجأة انه كان يحفلها ، ويحفل خصوصاً انها افضل منه . وكان اكتشافه شاملاً حتى خيّل اليه ان صوتها اصبح جديداً . كان يعرف لها ، حتى ذلك الحين ، ثلاثة اصوات : صوتها العادي مع الناس ، وهو لا يخلو من التصنع ، لا لأنها تحب التظاهر بما ليس فيها ، بل لأنها شديدة الحياء ، وصوتها الذي كانت تخاطبه به ، وهو طبيعي ليس فيه ما يسترعي الانتباه ، و« صوتها

الليلي ، المؤثر ، العميق ، كأنه آتٍ من عالم آخر ، يحمل كلمات طرية ،  
ندية ، ويخرج من اعماق طفولتها خروج عصافير مرفرفة من اعماق بحر  
بعيدة الغور . والآن ، ها هي تتكلم بصوت آخر ... بصوت هادئ ،  
بسيط كل البساطة ، رصين ، فيه طمأنينة مريحة ، ونبرات رخيصة لا  
يمكن وصفها جعلت كوستال يقول في نفسه : « ما اقربه الى صوت بنات  
الاسر الشريفة ! » ثم قال لها :

— اخاطبك كأني اعرفك منذ خمسة عشر عاماً . ويسرني جسداً ان  
نتحدث بهذه السهولة . اني لشديد الحجل من الطريقة التي كنت اعاملك  
بها في البداية . كنت احسبك بنياً . فاصفحي عني ...  
— لا بأس . كنت دائماً مستعدة للاغضاء عن كل شيء . وقد أغضيت ،  
بالفعل ، عن اشياء كثيرة ...

قال في نفسه : « يا الهي ! ما هذه الاشياء التي اغضت عنها ؟ انها تعني ،  
ولا ريب ، استسلامها لي » . واكتشف في هذه اللحظة انها تقدره بذلك  
« التساهل » الذي قالت يوماً انه يخالط عطفها على امها . لو قيلت له  
هذه الحقيقة في ما مضى لتبرم بها ، وحسبها جارحة ؛ اما الآن فقد  
ضاعفت حبه للفتاة واحترامه لها .  
قال لها :

— انك اليوم في جوة مشبع بالرصانة والجلال . لماذا حدث ؟  
— احسن ان ثقتي بك وبنفسى قد اشتدت ورسخت بعد ان جالونا  
ما كان بيننا من سوء التفاهم . قبل ان اعرفك كنت ارهب المستقبل ،  
ولما غدوت الى جانبك لم اعد اشعر بالخوف . وعندما حدث بيننا سوء  
التفاهم الذي ذكرت اصبحت كاضحومة ازهار محصورة في رباطها الشديد ،  
فبحثت الآن تحملها عنها الرباط ، فشرعت الازهار لتتنفس بارتياح !  
— اننا لمحلتي في اجواء الشعر !  
وبعد سكوت استطرد قائلاً :

- اعذرني . اني انزع حق في فترات الرصانة ، والجد ، والتأثر  
الحقيق . ثم اني احب أن انقرك نقرات موجعة بعض الشيء .  
- اعلم ذلك . بدأت افهمك .

- قلت لي كلمة اود توضيحها . قلت انك « أغضيت » فما هي  
الاشياء التي اغضيت عنها حباً بي ؟  
- ألا تعرفها ؟

- بلى ، اني احزرها . وانك على حق . فانت الفتاة العاقلة ، الرصينة ،  
المهذبة التي استسلمت لي عفواً ، بلا اقل مقاومة ، كما تسقط الورقة من  
الشجرة ... عندما افكر بكل ما كنت قد اعددت من الكلام المعسول  
لاغرور بك ، واوقعك في شباكي ، يخامرني شعور غريب . كنت انوي  
الاتجاه إلى التحويل للتغلب على عنادك ، « كأن » اقول لك ، اذا رفضت  
الاستسلام لي ، اني مصمم على مناداة فرنسا ، وانك لن تروي لي وجهاً بعد  
اليوم . ولكنك ما لبثت ان وقعت بلا مقاومة كالحدى اوراق الخريف ...  
لا بد من الاعتقاد ان هذا المصير كان مكتوباً لنا في لوح القدر . انك  
تتمتعين بجميع الفضائل ، ولاسيما الرئيسة منها ، ألا وهي فضيلة الاستسلام  
من غير تردد ، او تظاهر بخوف مصطنع ، او حشمة كاذبة . اذا كانت  
المرأة غير صفة المثال ، فهي ليست امرأة في نظري . واني اسألك الآن :  
ما هي الفائدة التي كان يوسعك ان تغنيها من فضائلك ، وانت الى جانبي ،  
لو لم تدعي لي نفسك بتلك السرعة الباهرة ؟

- لم استسلم لك إلا بعد ان اعطينتك كل شيء .  
- الغاية لتمرر الوسطة .

- الحق اني لم اغض عن هذا « العمل » الذي تنوء به ، بل عن ...  
عن بعض محاولات التمويه ... في ذلك الفندق ، لما خلوت بي للمرة  
الاولى ...

فردد قوله السابق قائلاً :

- كورقة الخريف التي تسقط ، كشمرة بانمة لا تقاوم اليد التي تقطفها .  
ومع ذلك ، فهناك نساء يقاومن أحياناً ولو كنّ مصمبات على الاستسلام ،  
ظناً متين أن في المقاومة ما يصون الشرف .  
- أن عظمة حيي لك لم تسمح لي بمقاومتك ، وهذا ، على الأقل ،  
ليس من نوع : الناية تبرز الواسطة .

فاجاب بلهجة سديدة رصينة :

- حقاً أن قضيتنا على جانب من الغرابة .

وكانت مستلقية على عطفة ذراعها بكل ضعفها وذبولها ، بكل أحلامها  
الهائلة في أبعاد لامتناهية ، كأنها بقعة من التضاريس والاختضار في غدن  
صخرة احتفظ بقليل من الرطوبة .

لما دخل كوستال ، فرّت من أمامه قطتان . ذلك أن البطولة فضيلة لا  
تتحلى بها جميع اللقط . أما الآن فقد عادت إلى قاعة الاستقبال ، وراحتا  
تتبعثران ، تدخلان وتخرجسان يدهور وسمت كأنها روحان . ومن حين  
إلى آخر ، كان يُعرف أنها هنا أو هناك إذ تحدث حركاتها صوتاً يشبه  
الحفيف .

وبعد صمت ، قال كوستال :

... لا ريب في أنك بحاجة إلى نحت وهندسة وتكييف ، ومتعود عليك  
هذه العملية بفوائد كبرى . اني أرى الآن هذه الحقيقة بكل وضوح .  
- هذه سنة الحياة . فالرجل يصنع المرأة كما يريد . والمرأة تلبي  
منه كل شيء .

- ولكن الرجل لا يعلم ما يريد . ما أشدّ غياب الذكر ! وقد يحدث  
أحياناً أنه لا يهتم بهذا الأمر . اني أحبك ، وأريد لك الخير ، ولكني لا  
أرغب في تكييفك ، أقدرين لماذا ؟

- نعم .

- كيف تقولين : نعم ؟ أراهن على أن ما أعنيه لأبعد من أن يخطر



في بالك .

- لا يهمك ان تكتفي لأن لك من اعمالك ما يكفيك . انك منصرف الى الاهتمام بمؤلفاتك .

- اني اقبلك كما انت . ان لدي اعمالاً اجدر باهتمامي من خلق الاشخاص . واذا كان روسو قد وضع ابتداء في الميثم ، فلأنه كان منصرفاً الى كتابة « اميل »<sup>١</sup> . انه ولا ريب عمل فطيع ، ولكن لا قيمة له في نظري . ان وقوعك بين يدي يدل على انك لم تحسني الاختيار ، وانك سيئة الحظ ، يا فتاتي المسكينة .

- لا ، لا ، لم يكن اختياري سيئاً .

ورضعت يدها على يده ، فقال :

... لتولين هذا الآن ا ولكني على موعد معك بعد سنتين ، لاعلم ابنته انت على هذا الرأي ...

- ألا يجب ان يزداد الحب ازدياداً مطرداً ؟ اني لا اتصوره إلا هكذا .

- هذا النوع من الحب ليس من شأني . اني اعرف الحب الذي يجري منحدرأ كما الجداول .

ولما كان يخاطبها مبتسماً ، ابتسمت له ، وانتهى الحوار بمناق طويل . وراح يخاطب نفسه قائلاً : « انها تفتقر الى الذكاء . اجل ، هذه هي نقطة الضعف فيها ، وقد وضعت الآن اصبعي على الجرح . ولكن لا

---

١ - من أهم مؤلفات جان جاك روسو . عنوانه الكامل : « اميل او في التربية » . وهو رواية تربوية تقوم على فكرة ان الانسان خلق صالحاً ، وان المجتمع يفسده . لذلك دعا المؤلف الى التربية الطبيعية المطلقة ، وترك الاولاد يتصرفون على طبيعتهم . وفي هذا المؤلف آراء وجيهة تسترعي الانتباه كضرورة تلبية الطفل بالرضا من الثدي الأم ، والمحافظة على الصحة بالاقامة في الهواء الطلق ، والاغترال بالماء البارد ، والتعلم بالأمثلة ، وتخفيف الحواس ، وتعليم الاولاد حرفاً يدوية . إلا ان المؤلف لم يسل من المبالغة في اعمال التوجيه الخلق ، والتشجيع للدين والتقاليد .

ريب في انها طيبة ، ١ .

وكم كان تصرفها معه في منتهى الوضوح ، فقد حاولت دائماً ان ترضيه ، فكانت تغير هندامها وازياء ثيابها وفقاً للملاحظات التي كانت يبدئها لها ، من حين الى آخر ، من غير ان تبلغ حد الفنج والتأنق . وسلته نفسها من غير ان تتظاهر بالحياء المصطنع ، او تلجأ الى تلك الحركات المبتذلة التي تقوم بها جميع الفتيات . وكانت رصينة عديمة الفضول ، فما سأله قط عن حياته الخاصة ، ولا كانت البادئة في مخاطبة تليفونيا . واذا تكلمت معه بالتليفون اقتصر حديثها على ما تريد ان تقول . لم تكن تتدخل في ما لا يعنينا ، ولا تحاول الاستيلاء على من نحب ، ولا تعرف التصنع في سلوكها ولا في اعمالها . كانت من ابعد الناس عن تلك الوسائل السهلة التي كانت النساء الاخريات يلجأن اليها لجلبه اليهن ، في زمن اصبحت فيه الفتيات يهاجن الرجال . وبما كان يدعو الى الاستغراب والعجب انها لم تحدث مرة واحدة ، ولو قليلاً ، عن مؤلفاته وانتاجه الادبي ، بينما كانت النساء الاخريات يحارلن للتسلل الى حياته بالتحدث عن كتبه ، جاعلات من اعميائهن به مفتاحاً لقلبه . واعجبه منها انها لا تعرف شيئاً من شؤون الحياة الادبية المعاصرة ، ولا تتحدث عنها مطلقاً ، بينما هناك فتيات مثلها من حيث الجهل ، ولكن يختلفن عنها بالثروة ، يحارلن سر جهلن بعبارات مبتذلة ، طال اجازارها فامسى الجميع يرددونها . ولم تكن سولانج بحاجة الى هذه المحاولة ، ليمدها عن الغرور وحسب الظهور ، ولتأمر نفسها من الفضول السقيم ، وحتى من الفضول الطبيعي الناجم عن الرغبة في المعرفة . ما أصبت يوماً ان تلمع بتمثيل دور بارز في الحياة الاجتماعية ، ولا ان تنافس الفتيات واللعاء للتفوق عليهن ، ولا رقت ذاهلة مشدودة امام بريق القيم المزيفة ، او مظاهر الثراء المريض . فقد كانت تختلف كل الاختلاف عن بنات جنسها ، خصوصاً عن تلك الابطار

١ - اي انها شريفة ، لطيفة ، في لغة اهل الجنوب . - المؤلف .

المرتدية جلود نساء ... تلك الابقار المصنعة بسهولة ، الثقيلة الظل ،  
الخالية من كل نكهة وقيمة ، كالقسم الاكبر من رفيقات الرجال المرموقين  
في زينة المجتمع الباريسي . إلا ان هذه الميزة في سولانج كانت تسيء  
اليها في الظاهر ، خصوصاً الى جانب النساء اللواتي تفضلن ، لأن تحجبها  
كان يلقى ظلاً على ألقها .

واحب كوستال هذه الصفات في سولانج واحس ان نفسه ترتفع في  
هذا الحب ببساطة وثقة وارتياح .  
قال لها :

— اسمي ، يا سولانج ، انت فتاة طيبة ! وطنيتك هذه ، بالنسبة اليّ ،  
أهم بكثير مما تتصورين . فنحن زمن بعيد والناس يبذلون الجهود ، في  
الداخل والخارج ، ويعملون بمقد عميق وصبر لا يعرف الوهن ، ليحصلوا  
من فرنسا بلداً يشعر فيه الرجل الشريف ، النظيف ، الموهوب ، الفاضل ،  
انه في منفى . وكانت هذه الجهود طويلة ، مرهقة ، لأن الشعب الفرنسي  
شعب طيب ، فيه جوهر صاف احيل . إلا ان الحربين نجسوا في النهاية .  
واعترف لك بصراحة ان كل شيء في نفسي قد تبدّل . فأنا الذي احببت  
بلادتي بحرارة وایمان ايام الشباب ، وأنا الذي كنت اشعر في اعماقي اني  
وهذا الوطن وحدة لا تنجزاً ، خصوصاً زمن الحرب ، غدوت اليوم  
احس اني غريب عن وطني ، وغير متضامن معه . وأخطر ما في الامر  
اني ارجب رغبة ملحة في استمرار هذه القطيعة ، ورغبتي فائمة من كل  
ما في نفسي من نزعات اعتبرها شريفة وسامية . ولكن عندما التقى فتاة  
مثلك ، وتكون هذه الفتاة فرنسية ، تتضائل تلك الرغبة ، وتخف الحركة  
الدافعة الى القطيعة ، واسمع في اعماقي صوتاً هتاف قائلاً : « لا ، لا  
استطيع التغلّي عن كل شيء ... لا استطيع مغادرة الميدان ... »  
قالت :

— ليس في شخصي شيء من الخوارق . اؤكد لك اني اعرف فتيات

عديدات مثلي ، والقسم الاكبر منهم افضل مني بكثير .

— هذا ممكن ، واصارحك بانني جرّبت فتيات كثيرات قبل ان  
التقيك ، وكنت اعتبر تلك الفتيات « دجاجات تجربة » ، كما يقول  
الرياضيون في تعابيرهم الخاصة . ولكنني ارى ان جهود المجتمع كلها ، وربما  
جهود الرجال ايضاً ، تبذل اليوم لاضفاء مظهر من القيمة على النساء  
التافهات . وتتذمر المرأة من انها لا تجد من يقدرها حق قدرها ، ولكن  
لماذا ترضى بان يكون اقبح ما في جنسها في مقدمة المسرح ، وفي دليمة  
ما يسترعي الانتباه ؟ ولماذا تقبل بسهولة ما يوسوس به الرجل لتحقيرها  
وجعلها مهزلة ؟ لماذا تجهل او تتجاهل مصلحتها الجوهرية الى هذا الحد ؟  
كلما تردّت المرأة في سهاوي الانحطاط والسخف ، سواء أكان يري  
جديد يجعلها دميمة ، او برقصة تعهرها ، او بطريقة في الحديث تبرز  
غباءها قولاً وفكراً ، تجد وراءها رجلاً يدفعها الى هذه القباحة . فلماذا  
لا تقاوم ؟

يلاحظ الجميع ان جسم المرأة التي تجاوزت سن الشباب يصبح شيئاً  
مضحكاً ، ومقرفاً احياناً ، يتسلّى به المصورون الكاريكاتوريون ، بينما  
يحافظ جسم الرجل على الكثير من رونقه وجماله حتى في الكهولة وجوار  
الشيخوخة . ومعنويات الرجل ايضاً تحافظ ، لجسمه ، على مستواها المأزوم .  
اذا فقدت المرأة شيئاً من معنوياتها اضعفت شيئاً شريعياً للغاية . فهي  
لا تستقر إلا في احد نقيضين : السالك الاعلى ، او الدراج الاسفل . عندما  
تفقد المرأة وقارها وتهذيبها وادب نفسها ، تصبح خفاشاً<sup>١</sup> .

— كنت اظن انك لا تحب سوى النساء المتساهلات الهيئات .

— احب النساء المتساهلات اللواتي يحافظن على رصانتهم ووقارهن بين

الناس .

١ - استعمل المؤلف هنا كلمة Stryge ، وهي تعني نوعاً من الحشرات الاسطوري  
العنقاء . يقال انه يخرج ليلاً من القبور ويمتص دماء الناس ومم نيام .

- آه ، فهمت الآن !

- أقدرين ما الحفاش ؟ اني اعني به المرأة الخالعة للعدار بوقاحة . ولو كنت استعمل لغة غير مهذبة لقلت لك كلمة اخرى . ان جميع النساء المتحذقات المتظاهرات بالصون ، والنساء الطاغيات كالودلاويط ، والباذلات ما في وسعهن من الفنج والدلال ، والمترقات على عيون الناس ، واللاواتي ينشرن صورهن في الصحف والمجلات وهن في اوضاع مغرية ، وتبرج صارخ ، جميع هؤلاء اسمين خفافيش ، واضيف اليهن اللاواتي اذا نظرت الى سمعنهن فلا يطيب لك إلا ان تصفهن .

ان رجال الديانات والفلاسفة وعلماء الاخلاق الذين لعنوا المرأة واحتقروها انما رأوا هذا الصنف من النساء ، فحكموا عليها . ولكنهم اخطأوا لانهم لم يحددوا النوع الذي استوجب سخطهم واستنزل لعنتهم . واعدوا الى سؤال لا بد من طرحه : لماذا لا تبادر النساء الرصينات ، الشريفات ، الى الدفاع عن نفوسهن للتبرؤ من عار الحفافيش ؟ ألا يدركن الضرر الذي تلحق بهن المرأة الحفاش ؟ ان ألد اعداء المرأة هي المرأة . قلت لك ، منذ قليل ، اني عندما التقى امرأة شبيهة بك او بما يبدو عليك من المزايا يتحسّن رأيي في بسلادي . ويذهب بي الفكر الى ابعد من ذلك ، فيتحسن رأيي في جميع النساء ، وأمس في نفسي استعداداً لمعاملتهن معاملة افضل . واذا كان الرجال يسيئون التصرف مع النساء ، فلأنهم يخافونهن ، ولأنهم مومسون بالحفافيش اللاواتي عرفوهن . ان القسم الاكبر من غلاظة الرجال ، ومن حوادث الجبر ، وفسخ الخطبة وغيرها التي تتألم منها النساء لتأجمن عن ان الرجل يرى في المرأة ، او يخيل اليه انه يرى فيها حفاشاً ، سواء أكان هذا الحفاش ظاهراً او خفياً ، حقيقياً او وهمياً . ومهما تكن المرأة لطيفة وعبية ، ومهما تبذل من الجهود والمحاولات ، فانها تعجز عن محو هذه الصورة لها من ذهن الرجل . وهو في مثل هذه الحال مهاجم او يلوذ بالفرار . وفي كلا الحالتين يعامل الرفيقة

الطبيعية لحياته معاملة العدو . وهكذا ترين ان الصالحات منكن يدفعن غرم الطالحات .

— قل لي ، ألم تمر بجيائك امرأة خفاش ؟

— لا ، قطعاً ! ولا استطيع الادعاء بفخر الدفاع عن نفسي لاني استظلمن الى اقصى حد . أيمتك مثلي بهذا الصنف من الخلوقات ؟ لا ، لا . ولا ريب في اني ساموت وانا برىء من هذه الخطيئة . لم احب قط ، ولا استطيع ان احب ، او بالحري لا استطيع ان اطلق إلا المرأة البسيطة ، الشريفة . في ارياف الهند الصينية ، كنت ارى كثيرين من النبلاء ، وهم رجال يتعمدون مسؤوليات كبيرة ، ويرتبط بهم مصير مئات الجنود ، لتلاهبهم كأنهم دمي صغيرة . نساء غارقات بالحزى والعار ، دميات ، حليرات ، فاسدات ، ولكن حاذقات في الذبذبة والتصنع ، بارعات في المناورة السمجة على طريقة النجوم السينائية . اؤكد لك ان الجاسوسات يجدن مجالاً واسعاً للعمل في الجيش الفرنسي .

قلت يوماً لأحد هؤلاء الرجال : « كيف تستطيع الانحدار الى هذا الدرك ؟ » فأجاب : « لا أجد افضل ... فأكتفي بما هو موجود » . قلت : « اما اذا لئو كنت في جزيرة مقفرة ، ولا رفيقة لي فيها سوى فتاة متصنعة ، وإن تكن حسناء فائنة ، لفضلت مضاجعة وكر نمل من النوع الفارس على حب هذه الرفيقة المتظاهرة بما ليس فيها » .

لو كان لي شيء من السلطة في إحدى المستعمرات ، لأمرت بطرده جميع هؤلاء النسوة ، او بزجهن في السجون ... لا امانع في ان يقضي جنودني لباتتهم مع بنات الغاب ، مع الرجال ، مع الفلّان ، مع الآن ، مع ورق الصبار<sup>١</sup> ، مع كل شيء . اما مع هذا النوع من النساء ، فلا . فلاضرار التي يلحقنها بمستعمراتنا لا يتصورها عقل .

١ - ورق الصبار من الرسائل التي يلجأ اليها الرجال في القياقي الاغريقية المقلدة .  
- المؤلف .

ورأت مولانج انه يتكلم بجملة كأن في نفسه تارة مقدسة ، فتذكرت  
ما قرأت في كتب التاريخ المدرسية من أن الثائرين ، زمن الارهاب ١ ،  
كانوا يقتلون مدفوعين بالفضيلة . إلا انها وافقت على جميع اقواله .  
وبعد قليل ، لما عاد الى اسلوبه المازح ، قالت له انها تريد ان تعد  
الشاي تكريرا لما ابدى من البلاغة والقوة في حديثه ، فسألها :  
- المحسنين اعداد الشاي ؟

- انك لا تعرفي ، فانا ربة بيت من الطراز الاول . تعال معي الى  
المطبخ لاعلمك . وسأرى الهرتين تمزقان على الكيان الكبير .  
قال لها ، وقد اصبح يعتقد ان كل شيء ممكن :  
- أحقا تجيد هزهاك المزف على الكيان ؟  
- لا ، لكنها رفمان احدي يديها عندما تنهكان بلعس صدرها ،  
فتبدوان كأنها تمزقان .

قال ، وهو الكاتب الذي تهمة النقة في الوصف والتشبيه :  
- ليست هذه الصورة موفقة في نظري .  
وتبع الفتاة الى المطبخ .

وكانت الهرمان قد سبقتهما اليه ، إلا انها لم تكونا تمزقات . ولا  
ريب في ان السوداء كانت تشمر بان يديها باردتان ، لانها جلست ولتتها  
بدننها ، بينما احست الشقراء بالبرد في ذنبها ، فوضعت يديها عليه .  
ولما دخلتا الى المطبخ ، فتحت السوداء حبلها ، وترددت الشقراء قليلا  
كأنها تسأل نفسها هل من الموافق ان لتندي برفيقتها ، ثم بقيت مغمضة  
العينين للاعراب عن قلة اكرائها بما يجري حولها .

وكانت يسود المطبخ صمت تام لا يمكثه سوى تكتكة الساعة  
الكبيرة . فاذا بهنه التكتكة الرتيبة تريد الصمت بروزاً عوضاً عن ان

١ - حبة من تاريخ الثورة الفرنسية تمزت بشعة الاسكام وقطع الرؤوس على الشبهة  
بعد عاكتت سورية حلجة .

تمزقه . وهو في المطبخ اكبر منه في ردة الاستقبال ، لان هذه الردة تطل على مساحة البناية . وتبدو البيوت المجاورة في زي يوم الاحد ، اي خالية من السكان . وفراقد المطابخ ، التي تكون عادة مفتوحة في الايام الاخرى ، وتنبعث منها انغام الاسطوانات الفونوغرافية ، واصوات الخدم ، كانت في ذلك اليوم مغلقة ، وقد اُمدلت ستورها ، وبدا في وسط هذه الستور ظل ثنية يدل على انها كانت سرفوعة طوال ايام الاسبوع ، فاذا بها شبيه بثوب الاحد الذي ترتديه الخادومات ، وهو خالي من الذوق والاثقة .

وضعت سولانج ابريق الشاي على النار ، وتناول كوستال كتاباً من كتب الاحداث كان على الطاولة ، عنوانه « العطلة المدرسية » ، فقالت سولانج انها اعارته لابنة الطاهية التي جاءت من الريف لتزور امها وفضاء بضعة ايام بقرتها ، فاجاب كوستال :

- هذا الكتاب للكوتكيس دي سينور لا يمكنك ان تتصورني الى اي حد ينطبق وجوده هنا على تفكيري بك منذ لحظة . كنت افكر بانك « الفتاة الصغيرة القدوة » التي يجدها هذا الكتاب ، فانت انت بطلته « موغريت دي روزبورغ » . ان فتوتي كلها تنبث بظهور هذا الكتاب الاحمر ، وتنبث مختلطة بك . كم تعجبني هذه الحال ، وكم انا سعيد بها !

تصفعا ، واقفين ، الكتاب المفتوح على الطاولة ، فقرأ كوستال :  
« كانت العطلة المدرسية قد اشرفت على نهايتها ، والاولاد يتبادلون المحبة اكثر فاكثر ... » ، ثم قال :  
- ما اجل هذا القول ايبدو لي اننا نحن ايضاً نتبادل الحب اكثر فاكثر .

---

١ - كاتبة فرنسية ( ١٧٩٩ - ١٨٢٤ ) ولدت في روسيا وألفت كتاباً للاحداث : « شقاء صوفيا » ، « الجنرال دراكين » ، امتازت بالبساطة وبسلامة الاسلوب . ورشاقه السرد ، والوصف . وتعتبر مؤلفاتها من افضل ما كتب في هذا الباب .



فاجابت بلهجة كلها طفولة وبراءة ، وهي تدير وجهها اليه :  
- اوه ! نعم . هذه هي الحقيقة .

والقت رأسها على رأسه كما يفعل كل اثنين يقرآن في كتاب واحد .  
فدفع درفة النافذة بيده ، خوفاً من ان يراها احد ، فساد المكان  
ظل قائم ، وشرعت سولانج تقرأ :

- وانطرحت مرغريت بين ذراعي ابيها الذي راح يقبلها حتى  
احمرت وجنتاها ... »

رضحكا معاً ، لأنه قال لها يوماً ان قبلاته كست وجهها بلون  
الارجوان ، ثم تعانقا ، وللتقت منها الشفاء في قبلة طويلة نومة .  
وبعد قليل ، قال كوستال :

- ما اروع الكونتيس دي سيفور ! فني كتبها روح الطبقة الرفيعة  
من الناس . ومن يقرأها من العامة يشرب حتى الثمالة مرارة بعده عن  
هذه الطبقة الممتازة . ان جميع الاشراف الصالحين يعمدون لقباً ارسقراطياً ،  
وجميع الرعاع الاقرباء محرومون هذا اللقب . وهذه افضل وسيلة للتعارف  
بين الناس . اوه ! اوه ! هذه جملة تبدو لي حكايتها موجهة الى شخص  
اعرفه : « ارد الآن ان تروي صوفيا لنا كيف وقعت تلك الحادثة ... »  
قالت سولانج :

- وهل تمنيني انا هذه الجملة ؟

- اجل ، يا عزيزتي روزبورغ ، أليس في غفوتك حادثة صغيرة ؟  
- اي حادثة ؟

فراح يضحك من سذاجتها .

وبدا الماء يغلي في الابريق مرسل صوتاً شبيهاً بالغناء الخافت . ولما  
ارادت سولانج ان ترفعه عن النار منعها كوستال قائلاً :

- دعني هذا الماء يغلي . ألا ترين انه يجد متعة في الغناء ؟ يخيل لي  
اني اسمع الف ضجة في هذه الغرفة التي بدت لي منذ قليل غارقة في الصمت .

وقد بدأت اسمع هذا الضجيج تدريجياً كما يعتاد المرء رؤية الأشياء في الظلام عندما تطول اقامته فيه . ألا تسمعين الف ضجة صغيرة حولك ؟  
- بلى ، اسمع ...

- كيف تقولين : « بلى ، اسمع » ؟ يا لك من مدعية ! ان للكتاب راحلهم الحق في ان يتخيلا وجود اشياء غير موجودة . لتستحقين ان امتحنك لانك احببت دون تفكير : ألا أخبريني ما هي هذه الضججات التي تدعين انك تسمعينها ؟  
وامسك وجهها براحتيه ، فقالت :

- هناك ضجة قطرات الماء التي تتساقط ببطء من الحنفية في البليووعة ، وهي ضجة كامدة صماء ؛ وضجة الماء في داخل ابريق الشاي ، وهي واضحة نشيطة ؛ وضجة القطرات التي تتساقط من فوهة الابريق على حديد الوجاق ، وهي شبيهة بضجة القاطرة المتأهبة للانطلاق ، وقد اشتد فيها ضغط البخار ؛ وضجة البخار الذي يرقص عليه غطاء الابريق ، وهي تشبه زفرة من يتنفس الصعداء مراراً ...

فابتسم لها ، وشد قليلاً على خديها براحتيه وهو يردد قولها :

- ... زفرة من يتنفس الصعداء مراراً ...

واستطردت قائلة :

- ان جميع هذه الضججات منتظمة ، رتيبة . ولكن هناك ضججات اخرى لا تخضع لنظام . ألا تسمع تكتكة قوائم الكرسي على البلاط ؟ فالهزة السوداء تحك رأسها برجلها وهي جالسة عليه . والطاولة تقضض كأنها لده قوادمها وتمطى من الكسل لاتنا في يوم احد . ويتبادر الى الذهن ان هذه الضججات لا وجود لها إلا يوم الاحد ، كأن الادوات البيتية تنعم بالعطلة وتعبر عن سرورها . والساعة الكبيرة تنظم بدقاتها جميع هذه الضججات ، كأنها مديرة اوركسترا تعزف قطعة من موسيقى الباليه في الجوقة المسرحية الايطالية ...

قال كوستال وهو يرفع إليها وجهه :

— حقاً ، يا صغيرتي ، اتنا في يوم الاكتشافات المدهشة . فمن أين جئت بهذه الروائع ؟ إنك تتعمين بوجهيتين كبيرتين : دقة الملاحظة ، واكتشاف الصورة المعبرة ، وهما الموهبتان الاساسيتان في فن الكتابة . كم كنت غطناً يوم حسبك خالية كلياً من الخيال !

وكانت الفتاة ، في هذه الاثناء ، تتلقى بكفها قطرات الماء المتساقطة من الحنفية ، وتبعثرها على حديد الوباق الساخن ، فتنبخر مرسله ضجة خافتة شبيهة بخفيف ثوب من الحرير . قالت :

— ان القطرات الصغيرة تركض وتركض على الحديد الحار كأنها تحاول الفرار من التبخر المتربص بها .

وكان كوستال ينظر إليها بعيني رجل طال تحديقه الى اليب ، ثم قال :

— اجل ، انها كالجنود الذين يركضون ويركضون قبل ان يمزقهم انفجار القنبلة . فهذه القطرات تهرب الزوال ! واذكري انك اكتشفت هذا !

وتوقفت عن التقاط القطرات وبعثرتها ، فتوسل إليها قائلاً :

— ارجوك ان تموتي كم قطرة بعد ، اكراماً لي .

فراحت تبعثر القطرات من جديد ، ثم توقفت ، فقال :

— بعد ، بعد ! لا اشبع من رؤيتها تتلاشى في دنيا العدم .

— كأي بك تجد لذة في هذا المشهد .

— انه لمشهد يذكرني بكلمة كان يرددها قائد فارسي من قادة داريوس كلما رأى جندياً يسقط صريعاً في إحدى المعارك : « هوذا مموتوه آخر يرمينا من وجوده ! » والحق يقال ان هذا القائد فيلسوف ، ولكنه ليس من النوع الجدير بالتشجيع .

وكانت سولانج منحنية على الطاولة تتصفح الكتاب الاحمر المذهب ،

فقالت :

— ارد لو اجد جملة عن العطلة المدرسية كانت تحدث في نفسي تأثيراً

عميقاً يوم كنت طفلة .

وفي ذلك الجو الصامت ، العابق بالبحر - سحر الماء المتساقط قطرات متباعدة من الحنفية ، وسحر الماء يغلي في الابريق ، وسحر النار المستمرة في الموقد ، هذه النار التي لا تخمد كنار الاساطير الميثولوجية ، وسحر الهرتين الجاليتين بكل هدوء ، وحتى سحر ذلك اليوم الكثيب ، كأنه يوم شتاء في قلب الصيف - احس كوستال انه في محيطه المائي القديم ، يحيط الحياة الارستقراطية المحافظة بما فيها من قتل ، وكتب اناشيد الاطفال ، ودمى ، وحكايات « أندرسن »<sup>١</sup> ، وعلب موسيقى ، وهدايا عيد رأس السنة ، وجميع تلك الاشياء الصغيرة المحببة الباقية من انكلترا القديمة ، وفرنسا القديمة ، لابناء الامر الارستقراطية ، والى جانب هذا كله سحر سولانج الصامت ، الصامت حتى عندما تتكلم ، فاذا هي « سندريلا »<sup>٢</sup> جديدة قذوب رقة وحياء . ألم تقل له يوماً : « لو تواريت عن الانظار اسبوعاً لما انتبه اهلي لاختفائي ، لان الفسحة التي اشغلها في هذا البيت صغيرة لا تسترعي الانتباه اء ولكن هذه الصغيرة المهمة ، المجهولة ، بعثت دنيا كانت راقدة ، وقدمتها له ، كأنها خلقتها مصا سحرية ... وهذه الغريبة البسيطة الساذجة فتحت له غرفة طفولتها ، واعادت اليه اريج ماضيه البعيد .

واذا بها تصبح :

- ها هي اوجدتها . انها الجملة التي كانت تملأ نفسي احلاماً يوم كنت صغيرة . قال بولس لصوفيا : « هل نسيني ؟ » فاجابت : « نسينك ؟ لا ا

١ - هانس كريستيان أندرسن ( ١٨٠٥ - ١٨٧٥ ) كاتب دانمركي ، ألف روايات امتازت بخصب الخيال ، وجمال الصور ، والكتابة الشعرية الغنية .

٢ - اشارة الى اسطورة فرنسية خلاصتها ان اميرة حسناء قتلت عليها خالتها زوجة ابيها ، ف عاشت في القل والحرمات الى جانب ابنتي خالتها اللعينة الرالتين بالرغد والترف . إلا ان جنية الاميرة ألبسها ثياب مساء اقصر الثياب وحملتها تظهر في قصر ابن الملك الذي احبها . ولحقها هربت لولا احد نعليها ، فامتنى الأمير به اليها واقترن بها .

بل كنتَ قائماً في قلبي ، فما تجرأت على إيقافك ! »  
 فالقى كوستال نظره على الكتاب ليقرأ بعينه هذه الجملة ، وهو  
 يسائل نفسه : لماذا يشعر شعوراً عميقاً بأنه يعرف هذه الجملة من زمن  
 بعيد ، قبل أن يتعرف الى سولانج ؟ راح يطرف باجفانه وهو يجهد  
 ليتذكر . ثم انجلت له الحقيقة ، فارتعشت وجنتاه . لقد قالت له  
 امه يوماً في هذه الجملة ما قالته الآن سولانج ... قالت له امه : « لما  
 كنتُ صغيرة ، كانت هذه الجملة قللاً تقسي اضطراباً ، فارددها بصوت  
 خافت ، ولا ارتوي من ترديدها ... »

كان يجد متعة خاصة في التحدث الى سولانج عن امه . اما الآن  
 وقد لمس بكل حواسه ان الجملة نفسها احدثت تأثيراً واحداً في نفس  
 امه ونفس الفتاة ، على ما بينها من التفاوت في الزمن ، فقد احس بمواطف  
 طاغية لجيش في صدره ، فقال لسولانج ، من غير ان يملق بشيء على ما  
 يعتلج في صدره ، انه يحس بقوة هائلة تقعم قلبه . وخيل اليه ان هذه  
 القوة تنهمر على الفتاة كأنها اشارة سحرية تدل على مصيره ومصيرها .  
 و اراد ان يخرج من ذلك الجو الثقيل ، فقال :

— وما رأيك في شبح الماريشال دي سينور<sup>١</sup> في البيت المسكون ؟  
 أيمن ان ينشأ الصبيان الصغار ؟ اعترف لك بأنه كان يرعبني ...  
 وشرعا يقرأ القصص معاً في الكتاب حق وصلنا الى المكان الذي  
 وضع فيه الشبح من خنجره على صدر الماريشال ، فقبل هذا نجمة الروح  
 القدس المعلقة على وشاحه ، فتأثر الشبح وعفا عنه .  
 ولدى هذا المشهد جاشت في نفس كوستال مشاعر غريبة مدهشة ،  
 فاغرورقت عيناه بالدموع ، وانتابته رجفة ارتعدت فيها اوصاله .

---

١ - فيليب هنري ، مركيز دي سينور ( ١٧٢٤ - ١٨٠١ ) ، ماريشال فرنسي ،  
 تولى وزارة الحربية من سنة ١٧٨١ الى سنة ١٧٨٧ . وقد ورد ذكره في  
 روايت الكونتيس دي سينور .

قال كوستال لسولاتيج وهو يرتجف ، وعيناه مفرورتان بالدموع :  
 - لما كنت حدثاً ، كانت الدموع تنهمر من عيني كلما وصلت الى  
 هذه الجملة من هذا الكتاب ، كما حدث الآن . كنت أبكي لأن الماريشال  
 نجح من الموت بفضل شجاعته ، ولأن الشيخ لم يكن شريراً فتأثر بالشجاعة .  
 وأنا أيضاً ، مثل هذا الشيخ ، لست شريراً ، بدليل اني ما ازال  
 أبكي حتى اليوم حيال هذا المشهد . واني مدين لك بكل ما أنعم به من  
 متعة روحية ، فقد حولتني الى افضل ما كان في من المزايا ، ووضعتني  
 في جو اسرتي ومحيطها ، يوم كنت انساناً صالحاً محترماً من ائس صالحين  
 ومحترمين . انا اعيش اليوم بين كتاب ، وقد غدوت هرجاء وفاسقاً  
 فاسد الخلال . ما هي قيمة حياتي اذا استلينا منها فترة الخدمة  
 العسكرية في اثناء الحرب ؟ لم اكن انساناً صالحاً ومحترماً الا في  
 حديثي .

واضحاً واضماً جيبته على الكتاب المفتوح وهو يقول : « اني اعمل  
 الآن ما تعملين عندما تطفئين الكهراء كي لا تروي وجهي وما فيه من  
 آثار قنوب لم يحلّ بصاحبها المقاب العادل » .

اما هي فكانت واقفة الى جانبه تداعب شمره بلطف وحنان . فأخذ  
 يدها الاخرى بين يديه ، واحس انها حارة كحفنة من رمال الصحراء ،  
 ثم رفع رأسه وفي نفسه رغبة ساجحة الى البوح بحقيقته . وفي اغلب  
 الاحيان كان يطرح هذه الحقيقة في النفوس المنحطة الحائرة ، فتضيع ،  
 ولكنها لا تضيع اذا طرحت في نفس طاهرة . وليس لهذا الامر قاعدة

راهنة . قال لها :

— اذا تلبّست في شريانا معيناً ، فقد تجددين سلسلة متواصلة من الاشياء الصالحة ؛ واذا تلبّست شريانا آخر ، فانك تكفين على سلسلة من الفطائع . وليست هذه الفطائع صغيرة حسب تحديد القانون هنا او هناك ، اي حسب الاعتبارات والآراء في بعض الاماكن ، انما هي فطائع بالغة القبح ، لا يقتصرها الوجدان الانساني الحي . ولو لم ارتكب هذه الفطائع لكنت الآن في هوة من اليأس محيقة القرار ، ولكان يأسى في شيخوختي اشد وادمى . لا أتهم نفسي امامك رغبة مني في التواضع ، بل رغبة في اظهار الاشياء كما هي ، لادىا انت ايضا كما هي ، من غير ضعف ، او خوف ، وهذا ما يعجبني وارشح اليه .

ورآها تهم بالكلام ، فقال مسرعاً وعيناه شاردتا النظر ، كأن عليها حجاباً :

— لا ، لا ، دعيني احدثك عن النزعة العانية التي تختال في اعماقي . ثم استطرده بجملة وقوة ، فقال :

— دعيني اظهر كما انا ، بكل حقيقي . ما الذي كنت احدثك عنه ؟ آه ، تذكرت ، كنت احدثك عن الشرايين ... حسناً ، فهذه الشرايين تمتد احياناً متوازية ، واحياناً تتقاطع فتتشعب ، وتختلط ، وتلتصق فيما بينها . وانا احب اللعب . وفي بعض الاحيان يذوب احدما في الآخر . أهتدي ما اعني ؟ الصالح والطالح ، الخير والشرير ، يختلطان معاً ، ويتميز بينهما . ففي ما اعمل من شر جزء احبه ، وجزء لا احبه ؛ وفي ما اعمل من خير جزء احبه وجزء لا ابالي به .

وهنا سعلت احدى الهرتين ، ثم أكمل كوستال حديثه قائلاً :

— لا ريب في اني أجد متعة في الشر ، وأجد في الخير متعة اكبر واعنى . ولكني لست واثقاً كل الثقة من ارتياحي الى الخير ... أتذكرين ؟ التقينا يوماً ، فبادرتني قائلة : « كيف معنوياتك ؟ ارجو ان تكون حسنة » .

فاجبتك : « اجل ، والفحش ايضا على ما يرام »<sup>١</sup> . وهذا ما ينبغي لك ان تدركه . احذري ان تفضليني على الفكرة التي كوتتها عني في ذهنك . يجب ان تنظري اليّ نظرة عامة تشمل شخصيتي برمتها ، بما فيها من القوايع ، كالاصلابات والمنتفعات . ومهما يكن من الامر ، فقد بعثت في المتعة بالخير . ومن الضروري ان تعلمي اني تتمعت وسأظل اتمتع بالشر ، وبالضرر الذي سألحقه بالناس ، ولكني لن اتمتع ابداً بالضرر الذي سألحقه بك انت ، اقولها لك جاداً صادقاً ومن اعماق القلب .

وخرّ جاثياً على البلاط وهو يرتش مقاوماً رغبته في مصارحتها بانه قد يقاوم بها ليملاً نفسها سروراً . ولما كانت جالسة جانبياً على حافة البلّوعة ، واحدى رجلها متدلية ، ثم طرف ثورتها ، ثم انزع حشفها الرمادي اللون ، ووضع قدمها على شفتيه في مكان من الجورب فيه رتق صغير . وفي اغلب الاحيان كان يقبل من وجبها الاماكن الاقل رونقاً وجمالاً ، فلما منه انها بلباسها الجميلة للجميع ، بينما هي له وحده بما فيها من عيوب . وما هو يقل الآن مكان الرتق من جوربها ، لأن هذا الرتق افسح له في مجال التفكير انها فتيرة قليلة ، وهذا ما كان يراد ظنه في بعض الاحيان ، وانما ليست من الاثرياء الحقيقيين ، وليس لها من الرغد والترف إلا المظهر الخداع ، ما يجعل الضرر الذي يلحقه بها يوماً ما اقبح واقلع مما كان يعتقد . ولما علم انها متوعدة قليلاً ، احسن بمواطنه تغلي في صدره كما يغلي الماء على الموقد . وبعد سكوت طويل قال لها :

١ « استطاع المؤلف ان يتلاعب هنا باللفاظ تلاعباً باوعاً . لأن كلمة Moral بالفرنسية تعني « ممنون » اذا طنت اسماً ، وتعني « كرم الاخلاق ومصلحتها » ، والآن ما تكون في هذا المعنى نعتاً . ولقطة immoral هي عكس Moral التي تعني حسن الاخلاق . لذلك تمكن المؤلف من جعل بطله كوستال يتلاعب باللفظ والمعنى : فلما سألته سولانج عن « معنوياته » باستعمال كلمة Moral ، اجاب باستعمال عكس هذه الكلمة بمعناها الآخر . فتكلمت الجواب عن جانب كبير من جماله البنيان .



- انت ، انت الرصينة الهادئة كأنك تحاولين استعطاف القدر ... كم اريد لك الخير ! وهذه تزعج في نفسي من أغرب النزعات . وما أغرب ان يريد المرء خيراً للآخرين ! ان ما يجب هو ان تكوني دائماً مسرورة ، عندما تخرجين من بين فراصي ، طبعاً . فعندما تكون معا ، اود دائماً مكافحة الضرر الذي احدثه فيك !  
ثم صاح بتزق :

- لا تخيبي ! لا تخيبي ! بذلك فقط تنقذين نفسك من العذاب الذي ينتظرك من حيي لك . اعلمي جيداً ، ولا تنسي ، اني مجنون . لست مجنوناً وحسب ، بل انا مجنون ايضاً<sup>١</sup> .

واحس باصابع رجلها تتحرك تحت شفتيه . ومن خلال لشوته بقيض عواطفه ، رأى ان هذه الرجل هزينة قليلاً ، وكان يفضلها اقوى وأوفر عافية . ثم رفع رأسه واستطرد قائلاً :

- التمس منك اللغو عما سيحدث في المستقبل ، يا مرغريت دي روزبورغ<sup>٢</sup> . ان الجزء الالهي من نفسي هو الذي يلمس منك المفرة ، مسبقاً ، عن الضرر الذي سالحقه بك ، على الرغم من اني لا اؤمن بالله ، دون ان يكون هناك اقل سبب لوزال الايمان من نفسي . وأسألك هذا الغفران وانا اتم بالفكر لجملة الروح القدس المشعة<sup>٣</sup> التي احملها انا ايضاً على قلبي ، وانت تكن غير منظورة . وتذكري جيداً ، يا روزبورغ ، اني

١ - استعمال المراتب هنا لفظة : Que ، بمعنى : وحسب ، واللفظة : Aussi ، بمعنى : ايضاً ، فقال : Je ne suis pas que fou, mais je suis aussi fou .  
ومن المرجح انه يعني : لست مجنوناً بسيطاً كل ما فيه جنونه الطاهر القليل الخطر . بل انا مجنون فتنلاً عما في من صفات اخرى تحجب جنوني وتحمله انه خطراً ، لان الناس لا يرونه بوضوح ولا يحذرون شره .  
٢ - بطاقة القصة التي كان يقرأها مما في كتاب الاحداث من تأليف الكونتيس دي مينور .  
٣ - اشارة اخرى الى اسدي حوادث هذه القصة .

سأضربك ، ولكني لن اتمتع بالضرر الذي سألحقه بك .  
ورأى الهرة الشقراء تلتأب حتى تكاد تخلع فكها ، فخطبها قائلاً :  
- أتراني أضجرتك ؟

وتعاقبت في ذهنه الافكار المتجاذبة والمتناقضة ، ثم تغلبت فيه رزعة  
الى المزاج والمداعبة . وخلال هذا الحديث الطويل ، كان يحس انه بين  
تيارين من الهواء عاصفين ومتعاكسين يدفعانه ثورة الى اليمين ، وفارة الى  
اليسار .

رهباً واقفاً ، فوقفت الى جانبه ، والقت معصمها على صدره بحركة  
غريزية لدى جميع الفتيات الصغيرات ، او لأنها تلمت هذا المشهد من السينما .  
لم تنهضه حين جثا على قدميها ، ولم تذرف دموعاً واحدة حين بكى .  
لم تكن قد ازفت بعد الساعة التي يستطيع فيها ان 'يبكيها' . وبينما كان  
يتكلم بحرارة تضارع الابتهاال ، كانت نستمع اليه وهي واثقة بنفسها ثقة  
لا تتال منها حوادث تلك الفترة من حياتها ، كأنها نستمع الى طفل  
يهذي في المنام .

قالت له : لن تعمل شيئاً 'يضر بي' ؛ أعلم هذا حق العلم .  
فتضايقت من انها لا تعرفه اكثر ، وراح يقول في نفسه : وما حيلقي  
في نفسيها بي ؟

وفي هذه الاثناء كانت السماء قد صفت وانبرقت ، ففتحت سولانج  
النافذة ، وكانت للكنارات ثغرد في الخارج ، فاصبح من المحتمل ان تقع  
عليها العيون ، وهما في حناقها الطويل . ففكر 'كوسنتال' بهذا الاحتمال ،  
ولكنه لم يفلق النافذة ، كأن شيئاً قد حدث فأكسبها حق العناية على  
عيون الجميع .

وظلا فترة متلاصقين ، كالسما والبجر ، عندما يخفقني سخط الافق في  
بعض ايام السقاء وركود الرياح ، ثم انفصلا ، وكل منهما مرتاح الى الآخر .  
وفي مساء ذلك النهار الذي تحدث فيه خمس ساعات ، بكل ما فيها

من الرغبة في الجسد وقول الحقيقة العارية ، دون اقل مداعبة - حتى انها احتقرا هذه المداعبة - اصبحت كل شيء بينها جديداً ، فما استطاع كوستال ان يجد سبيلاً الى النوم . فالاحترام الذي احبه لها تقى النعاس من عيابه . وحدث هذا الاحترام في جسده توتراً كله رجولة لم يشعر بمثله خلال ساعات الطهارة التي امضاها في ذلك المطبخ ، فاذا بهذا التوتر يهربي قوياً وخالياً من كل رغبة او صورة جنسية شهوانية .

قال في نفسه : « ان » المتطرفات »<sup>١</sup> يذكرون في خريطة الحب بلدة اسمها : « عطف على احترام » . ولم يكن قد خطر في باله حتى ذلك الحين ان الشعور بالاخلاق الحمسة يحدث مثل هذا التأثير في نفسه ، وكان اعصابه به كبيراً .

واضح انه عامل سولانج ، في هذا اليوم ، معاملة الخطيب للخطيبة ، وانه من المستحيل ان لا تكون قد احست مثل احساسه . وللمرة الاولى في حياته رأى انه من المحتمل ان يتطلي « هيبوغريف » الزواج معها ، اذا اهريت يوماً ما عن رغبتها في الاقتران به . وكان يعلم علم اليقين ان الاقدام على هذه المغامرة ضرب من الجنون المطبق ، وان الزواج الذي كان يقول فيه قول « دون كيشوت »<sup>٢</sup> : ليس من المحتمل ان تراودني فكرة الزواج حتى مع الطائر الاسطوري « فينيق »<sup>٣</sup> ، سيكون بالنسبة

١ - لغة من النساء الفرنسيات المبائلات في التطرف وادعاء العفة ، في القرن السابع عشر ، اشتهرن بالفلسف والسماجة وحب الظهور ، وقد صورهن « دوليار » في كتابه Les Précieuses Ridicules تصويراً بارعاً بشعر الخصب . ومن مبكرات هذه اللغة انها جعلت الحب خريطة جغرافية فيها انهار « امان » و « هيام » ، ومدن « عاطفة » و « وصال » و « خيانة » الخ ...

٢ - بطل قصة شهيرة للكاتب الاسباني « سرفانتس » ، وهي من زبدة الاحب العالمي . ويرى هذا البطل الى الانسان التالي الذي يصارع المثلث فتصرعه ، لانها قوية وهو ضعيف .

٣ - طائر اسطوري قيل انه كلما بلغ الف عام من العمر أحرق نفسه في الشمس . ثم يبعث حياً متجدد الشباب . رقة مؤرخون ينجحون الى ان اسم الفيليبين مشتق منه ( واجمع كتاب اساطير الاقدمين القوي ميخائيل غبريل ) .

اليه ، بوصفه كاتباً ، نهاية مؤسفة ، بسل كلثة ، لما يفرح عليه من  
الواجبات ، وارهاق الاعصاب ، والحاجة الى المال واضاعة الوقت ، ناهيك  
بما يخسر . وصفه رجلاً ، لان الحرية ضرورية له كالهواء الذي يتنفسه  
ليبقى حياً . اما « الميوعريف » فلا يمكن ان يحمله إلا الى جهنم ، ولكن  
الزواج بسولانج كان اشبه بهوة سحيفة للقرار ، انفتحت امامه فجأة ،  
وراحت تجذبه اليها بقوة لا تقاوم .

من  
بيار كوستال  
باريس  
الى  
الندوة هابو  
سان لويلا

٢١ حزيران ١٩٧٧

ايتها الانسة العزيزة ا

لي ابن عم ، ما يزال يافماً<sup>١</sup> ، صريح القلب ، لطيف المشر ، ولكنه على  
جانب من الطيش ( والذنب في ذلك ذنب ابيه الذي لا يطاق ) ، كان  
يوماً يتنزه ، فتلفن لابييه ، وخاطبه قائلاً :

- ألو . أهذا انت يا ابي ؟

اجاب الأب :

- اجل ، ماذا تريد ؟

قال الفتى :

- لا شيء سوى اني مسرور ، اتمتع بما احب من التسلية ، وهذا ما  
اردت ان اقول لك .

وانا كنت مسروراً ، أمس ، في مطبخ . وقد استيقظت طيبني في  
موجة سروري ، فأحييت انت اخبرك بهذا الحدث ، وان اعلم كيف  
احوالك . اخبريني باختصار . لا اكثر من صفحتين . اعتقد انك كتبت

---

١ - يقصد المؤلف ابنه غير الشرعي . راجع الحلقة الاولى : «المبايع» . - المؤلف .

الي في الآونة الأخيرة ، ولكنني اعترف لك باني لا أتذكر شيئاً بما جاء  
في رسائلك . قد اكون اكتفيت بقراءة بضع جل من بدايتها . لا اسألك ؛  
أسعده انت ؟ لاني اعلم ان المعادة ليست مقدرة لك . وهذا أمر أراي  
مقتنماً به كل الافتناع . ولكن ، هل الاحوال حسنة نوعاً ما ؟  
الى اللقاء . لا تستطيعين ان تصوري كم انا طيب ومستعد لعمل الخير  
مدة ربع ساعة . « فرصة سانحة لمن يريد اغتنامها » .

ك

في حياتي كلها ما دخلت مطبخاً . انه مكان مدهش ، فيه كنوز من  
الامكانات . فكيف كنا نعيش الى جالبه ولا ندري به ؟



لو كانت هذه الرواية موضوعة ، حسب الاصول المرعية في فرنسا ، لتحتم ان يكون مشهد المطبخ في نهايتها ، ولكان الجميع على ما برام من الرضى والسرور : العقلاء المتسكون بالقواعد ، لأن المشهد القمة يجب ان يكون في النهاية من كل رواية موضوعة على الطريقة الفرنسية ، اي حسب المنطق ، ودعاة الاخلاق الكريمة ، لأن هذا المشهد يعمل الأمل بأن يطلي الرواية سبلتيان الى الزواج ، وهكذا تمّ القصة بد اطلالة على قطعة زرقاء صافية من السماء ، كما يقولون ، فتكون الرواية درماً مفيداً من أولها الى آخرها ، لأن الروايات الفرنسية ، كالنفوس المسيحية ، تحتفظ بقدرتها على الخلاص في النهاية .

ولكن الحياة التي لا تجيد العيش تزعم ، بكل غباء ، انها قادرة على التفلّت من لياقة الرواية الفرنسية . وفي القصة التي نرويها ، كما جرت بالحقيقة ، يقع مشهد المطبخ الذي اكشف فيه كل من كوستال وصديقه مناطق محترمة من شخصيتها ، وهما جنباً الى جنب ، موقع قمة حقيقية ، ولكن له من القمة مزاياها ونقائصها ، لأنه ، بعد بلوغ القمة ، لا بد من الهبوط . وقد انتهى هذا المشهد دون ان تكون له نتيجة .

ولما التقى الحبيبان من جديد ، بعد ذلك المشهد ، لزمت سولانج الصمت ، وكادت تبدو كتيبة . ربما كانت لكآبتها اسباب ، وربما كانت دون سبب . وقد تكون بقيت كما هي في سالها العادية . إلا انها كانا قد ارتفعنا بملاقتها الى ذروة غير مألوفة .

كانت بعض ملاحظها وبعض حركاتها الغفوية تبث فيه الشك بأنها تحبه

حباً عميقاً ، اذ لم يكن وجهها يشرق ابتهاجاً عندما تراه ... ومنذ خمسة عشر يوماً لم تفكر بتظهير الصور الشمسية التي اخذتها له ... وبينما كانت كثيرات من النساء يغمرنه بفيض من العناية والتعجب ، كانت هي منعقدة ، لا تبدي ولا تعيد ...

قالت له مرة : « ليس في حبنا حماسة جاعة ، لا من جهتك ولا من جهتي » وهذه ضمانات لثبات مودتنا .

وكانت هذه ال « لا من جهتك » صدى لما قاله لها في ما مضى من انه غير ولهان بها . ولكن ال « لا من جهتي » بدت له على شيء من البرودة .

وراح يفكر قائلاً في نفسه : « ان سولانج مصباح محجّب . لا ريب في انه مضيء ، ولكنه لا يشع » .

وتبين له انه لا يكاد يعتمد عنها حتى يزول تأثيرها عليه كان شخصيته المستبدة قد طفت على شخصيتها الضعيفة . فهو الى جانبها يؤمن باستقامته وطيبة عنصره ، فاذا ابتعد عنها عادت تعتلج فيه الرغبات الملتوية الشريرة . انه بطبعه شديد الحذر كأمير مطلق ، ودائم الاستعداد للاعتقاد ان الآخرين يريدون به الضرر الذي لا يستنكف هو عن إلحاقه بهم . ودون ان ينتبه ، بدأ 'يجل' نفسه المقلقة في شخصية الفتاة المائلة في ذهنه ، فاذا هو امام سولانج اخرى غامضة ، معقدة ، كأنها انعكاس له . لقد خلقها خلقة جديدة على صورته ومثاله في نظرته اليها .

سألها يوماً : « ما رأيك في مداعبتي الاولى لك » في غابة بولونيا ، خلال لقائنا الاول ؟ « فلجابت بانها 'دهشت دون استياء' ، وبأن موجة من الكره امتولت على شعورها . وعلى ضوء هذه الصراحة راح يبالح في تقديره ، ويعتبرها بليدة جسدياً ، ويقارن ، على صعيد المتعة الجنسية ، بينها وبين غيغيت وغيرها من النساء الملتهبات ، ثم يقتهد آسفاً ، ويمطيهما على اجتهادهما النرامي علامة ٢٠/٥ . وامعن في التحليل مدفوعاً برغبته الدائمة



في ابتكار النظريات وفي المقارنة بين الرجل والمرأة ، فشرع يقول :  
« الرجل لا يحب يقلبه إلا المرأة التي اشتهاها اشتهاً جنسياً . أما المرأة  
فتحب أولاً بقلبيها ، ومن هذا الحب تنبع الشهوة الجسدية . الرجل الدميم  
محبوب ، أما المرأة الدميعة فلا . المرأة المحبة لا يهمها ان يبقى الرجل  
الذي تحبه يومين دون ان يخلق فقه ؟ وليس هناك رجل واحد يرضى  
بان يقبل امرأة ملتحية » .

وفي بعض الاحيان كانت برودة سولانج تبعه ، اذ يجد فيها ذريعة  
للمستقبل ، وغرباً للفرار الى حب جديد ، والى غزوة موفقة يغتم فيها  
رفيقة من نوع آخر .

لر ظلت سولانج كما كانت يوم الأسعد في المطبخ ، لكن من المحتمل  
ان يفتون بها . ولكن اذا ارادت هجره ، وكانت البادية في اعلان  
القطيعة ، فانه سيهجرها ولا يبالي . ليس في العالم اناس يحتاج الى  
وجوده إلا ابنه ... وليس في العالم مخلوق لا يحل عمله مخلوق آخر .

وعلى هذا الاعتبار لم يكن كوستال يشعر بالغيرة ، بل كان يعتقد ان  
الغيرة من الاحاسيس الشعبية الحقيرة . وسواء أقدلت الفتاة في حبه ام  
هجرته ، فالامران في نظره متساويان ، على ما فيها من تناقض ، لأنه  
قادر على الانسجام مع كلِّه منها بسهولة ، وارتياح ، وباقصى السرعة .  
فهو يحتدم حباً بقدر ما يحتدم حب رفيقة الساعة ، ويتساها اذا شاءت  
ان تلساه . وله من الامكانيات النفسية والسيطرة التامة على عواطفه ما يمكنه  
من التصرف كما يريد .

وتبادر الى ذهنه ان علاقته بسولانج قد تكون آخذة في الافول ،  
فرأى انه يسوء اليها اذا تأخر في توضيح موقفه منها لاعطائه طابعاً  
شرعياً ، لأن حالة نصف المراء التي كانت سولانج فيها لا ترضي فتاة  
مثلها تواقاً الى الكمال المطلق . واعتقد ان ساعة البت في هذه القضية  
قد ازفت ولم تعد المحاولة فيها جائزة .

ولهذه الغاية ، اجتمع سولانج في منزله مساء ، وخلاها في تلك  
الغرفة التي كان يسميها « قبر المرأة المجهولة » ، فاذا بالباب يُقرع ...  
من يكون هذا الزائر غير المنتظر بعد الساعة التاسعة والنصف ؟  
كان الخادم قد انصرف منذ ساعة ، فلا يمكن ان يكون هو الطارق .  
نهضت سولانج مدعورة ، وجلست في السرير تحمق في الظلام ، فجعل  
كوستال يهتدي من روعها . وكان اعلان كهربائي احمر يشع في الخارج  
طابعا على فرامي الفتاة وكتفها نقطة ارجوانية ؛ وتسلل النور الخارجي  
من خلال عوارض ستار النافذة فألقى على وجهها خطوطا متوازية بعضها  
اسود وبعضها ابيض ، فبدت كأنها سجينه وراء قضبان حديدية . وكان  
هذا السجين الخيالي حبا لكوستال ، إلا انه لم يفكر بهذا الأمر .  
وعاد الزائر الليلي المجهول يقرع الباب من جديد ، ثم أعاد الكرة  
للمرة الثالثة واطسال القرق ، فزلت سولانج من السرير وتوجهت الى  
المفصل .

وتبها كوستال . ولما شرعت ترتدي ثيابها ، توسل اليها ألا تفعل ،  
ولكنها كانت قد فقدت رباطة جأشها وغدت فريسة الارتباك . وموت  
دقيقة ، فجلست سولانج على احد المقاعد وهي نصف عارية .  
وقرع الجرس من جديد ، ثم راح الزائر يضرب الباب بقبضتيه ...  
فدخل كوستال هذه المرة ، واحس بشيء من الخوف ، واسرعت  
سولانج فارتدت ثيابها ، فاذا هي فتاة في قياقة لائقة ، ولا يجمل ذروها  
انها تزور الكاتب المديتي في منزله من حين الى آخر . ولكن هذه  
الفكرة المرجحة لم تكن كافية لازالة اضطرابه . فهو رجل عصبي المزاج ،  
قرع عليه باب غلغله وهو في السرير مع فتاة عارية ، فكيف يستطيع  
تبرير موقفه لو وقعت عليه للعيون ؟

ولكن الزائر توقف عن قرع الباب ، فحس كوستال في الظلام على  
رؤوس اصابع قدميه الى البهو الخارجي ، ليتثبت من ان الزائر غير متربص في

الشارع ، قرأى تحت الباب بطاقة 'دست من الخارج' ، وإذا هي من اندريه !

رفع كوستال هذه البطاقة الى النور وقرأ فيها :

« احدثت رسالتك في نفسي تأثيراً عميقاً ، فاحببت ان تتفاهم ، وان تتفق على شيء ، فركبت القطار واقيت اليك . انت الآن في منزلك ، بدليل ان احدى الغرف مضاءة . ولكن لا بأس ... ارجو ان ترسل اليّ برقية الى العنوان التالي تضرب فيها لي موعداً ، وارود ان يكون موعدنا غداً اذا لم يكن ثمة مانع » .

تباً لهذه المرأة ! لم تكتفِ بارهاق اعصابه من بعيد ، فجاءت تفرع بابه بعد الساعة التاسعة والنصف ليلاً ... وضربت الباب بقبضتها كأنها تسوق بغلاً ... وراقبت فوافذه كأنها من رجال الباحث ، وازعجته ومن يحب ، وهي التي لا يحبها .

قال لسولانج ان الزائر و صديق أبه ، ولكن لما سألتها أتريد البقاء معه ، اعتذرت لأنها مضطربة الأعصاب ، فقال لها :

— لا تعتذري ، فسيظل صوت هذا الجرس يرن في اذنيك طويلاً ، وستسعين ضرب القبضتين على الباب ... فاما ما ازال اسمع ازير الرشاشات على الرغم من مرور تسع سنوات على الحرب ... وضرب القبضات على الباب يذكّرني بالرشاشات . فلنشتر سهرتسا في غابة بولونيا . وغداً انتظريني على مقربة من منزلك ، الساعة الرابعة إلا ربماً ، لنذهب معاً الى منزلي الريفي .

وكانت منزله الريفي بيتاً صغيراً تحيط به حديقة في شارع « بور رويال » ، ولم يكن كوستال يذهب اليه إلا نادراً .

ثم كتب برقية الى اندريه ، فكان شيطان المكر ينظر من فوق كتفه الى ما يكتب .

يكتب اليها يقول :

صديقتي العزيزة ! ( وتمد خمس سنوات لم يكتب اليها : صديقتي ،  
إلا هذه المرة ) .

كم انا مسرور بان اراك ! لو علمت انك انت التي قرعت الجرس ، لما  
ترددت في فتح الباب ، على الرغم من اني كنت عارياً ، لاني كنت  
وحيداً اعاني الضجرا تعالي غداً ، ٢٥ حزيران ، الساعة الرابعة والنصف ،  
الى شارع « بور رويال » ، المنزل رقم ٩٦ ، واقرعي الباب ثلاث مرات .  
ان ضرباً من الجنون البريء جعلني احب هذا المكان وامضي فيه بعض  
اوقالي منذ سنوات عديدة ، وسنكون في لجوة من ازهاج الناس . لك :

ملاحظة . - بكتابتني اليك الآن اخون امرأة اخرى . ما أطف  
الحيانة واحلاها !



وخرج مع سولانج .

كانت النجوم ترقص في السماء كندرات الفجار في اشعة الشمس ،  
فاوقف السيارة امام احد مراكز البريد ، وناول سولانج البرقية التي  
كتبها الى اندريه قائلاً لها :

- في وسعك ان تلقي نظرة على العنوان ، لعري ان هذه البرقية مرسلة  
الى امرأة ...

فنظرت اليه وفي عينيها مزيج من الاستفهام والخوف ، فقال :

- هذه امرأة أعاقبها .

- علام تعاقبها ؟

- على اني لا احبها .

رلا عاد الى منزله ، كتب في مفكرته :

« على شرفة منزلي ، الساعة الثانية عشرة إلا ربعا ، أتدوسني بكل

محاسني لذة للكر والحياة . انها لحالة ساقطة بالمتعة ، حتى الي لأسائل  
نفسى كيف يخرج منها المرء بدون سبب جوهرى خطير . السماء فوق  
المدينة وردية اللون كالخبيد عندما تلتفحه حرارة النار . نسبات من  
الزمرّد تجري على وجهي .



في اليوم التالي ، الساعة الرابعة بعد الظهر ، وصل كوستال وسولانج الى منزله في شارع بور رويال . ولما بجاجة الى وصف هذا المنزل ، لأنه عش غرام بكل ما في هذه الصفة من قباحة . إلا انه يمتاز بأشياء مبتكرة لا مثيل لها في البيوت التي هي من نوعه ، فكل قطعة من الأثاث تحمل لوحة على الطريقة الأميركية المنتشرة في فرنسا ، وكل واحدة من هذه اللوحات تحمل جثة من وحي صاحب البيت ، ومن هذه الجمل ما يلي :

سيداتي !

لا تلذ من الرجال أكثر مما يطلبون اليكن .

السيد لا يتزوج .

السيد لا يعيد الرسائل الى صاحباتها .



لم تكن هذه الكلمات دليلاً على حسن النوق ، ولكن لها هدراً في كونها من وحي طيش الشباب . وارتداد القمم الاخلاقية الشاغرة يصبح لطيب مذاقاً عندما ينحدر منه الرائد احياناً الى السير على الارض المنخفضة .

قال كوستال لسولانج :

.. ليست هذه الكلمات كلها موجهة اليك ، فلا تجزعي . سأعيد اليك ومائلك . والآن تبسيني .

وكانت هناك علية يُرقى اليها بسلام ، اطلق عليها كوستال اسم « البرج الحسام » ، وهي شبيهة به لانها تشرف على اللهب ، ولأن

الحمامات البشرية تختبئ فيها كلما دعت الحاجة الى توازن . وفي بعض الاحيان كان يطلق عليها اسم « كولومباريوم »<sup>١</sup> ، اي المكان الذي يحفظ فيه رماد الموتى ، عملاً بخرافة قديمة يعتقد اصحابها ان الافكار الحزينة تثير الرغبة في التمتع بالذات ... مع ان كوستال لم يكن بحاجة الى ما يشير هذه الرغبة في نفسه .

وفي هذا المكان ، وقف كوستال في صمت شبيه بالهدوء الذي يسبق العاصلة ، ثم خاطب سولانج قائلاً :

- والآن ، يا صغيرتي الحلو ، انتهت مرحلة اللعب والمزاح ، ولا بد لنا من ان نخطو الخطوة الحاسمة . فعلى هذا السرير ستصبحين امرأة بعد قليل . في وسعك ، منذ الآن ، ان تنظري بانتباه الى ما حولك ، وان تفرسي ما ترين في ذهنك ، اذا صح ما يقال من ان للعمل الذي انتِ مطبلة عليه اهمية في نظر الفتيات . ولا ريب في انه عمل مهم . فهو كبسمة الزيت في امتداده حتى يشمل حياة المرأة كلها . حاولي اذاً ان تقومى به قياماً حسناً . وبانتظار الفترة الحاسمة ، عليك ان تقيمي هنا بكل هدوء كثرة الخرشوف . فبعد قليل ساستقبل زائراً في اليوم . دونك هذا الستار ، فاحتجي وراعه ، ولكن بوسعك ان توي وتسمعي كل شيء دون ان يراك احد او ان يشعر بوجودك . وإلى اللقاء . اما اذا كنتِ بحاجة الى ما يساعدك على الاعتصام بالصبر ، فهذه كتب تعلم مبادئ الاخلاق . فاليك بهذا الكتاب ، مثلاً : « الاخلاق قبل الفلسفة » ، تأليف « لويس مينار »<sup>٢</sup> ؛ انك تجدين فيه الخطوة الواسعة

---

١ - استطاع المؤلف ان يتلاعب هنا بالمعاني لما بين اللفظي Colombier و Columbarium من التعاقب اللفظي على الرغم من تباعدهما المعنوي ، اذ ان اللفظة الاولى تعني : بيت الحمام ، ومعنى الثانية : بيت وملك المرق .

٢ - عالم كيميائي (١٨٢٢ - ١٩٠١) اكتشف الكولوديون للاستعمل لتضخيم الجروح ولتظهير الصور الشمسية . خلف مؤلفات قيمة ، منها : « تأملات وثني متصوف » ، ودوايات في احوال اليونانيين القدماء .

التي سجلتها الاخلاق بفضل الفلاسفة . آه ! ما اروع براعتهم في هذا الميدان !  
ونزل الى اللبوس حيث جلس على احد المقاعد الوثيرة ، وهو يسائل  
نفسه عن الخطوة التي سيتبعها في استقبال اندريه . ثم احس بانجاده الماضية  
في مثل هذا الميدان ، فرأى ان القضية ليست جدية بالاستعداد ، واعتبر  
اهتمامه بالتحدث الى اندريه خطيئة تتال من كرامته ، فقرر ان يصرف  
تلك كبره عنها .

وراح يتصفح اسدى المجلات ، ويذم صغر سولانج المختبئة ، الغائبة  
والحاضرة معا ! أليست شبيهة بالله في حضورها الرامن وبعدها عن الحواس ؟  
غرق في جلة من الفروض النير الواضح ، وعصفت به تزعمة روحية ،  
فنظم الابيات التالية :

إلهي ! لا تحتجب في جلالك العظيم  
إلا ظاهرياً عن رؤية عيني ؛  
ومها اوغلت بعيداً في صمتك البهم  
لا قسم اذنك عني .

وفي الساعة الرابعة والدقيقة الخامسة والثلاثين ، لم تكن اندريه قد  
وصلت بعد . ومرت عشر دقائق اخرى ، فسرّ كوستال بتأخيرها لأنه  
وجد فيه مبرراً اضافياً للشر الذي ينوي ازاله بها ، فهو يستطيع استئصال  
الامانة ، والمار ، والمهجران ، وفقدان الحب ، والافلاس ، وجميع المعائب  
برباطة جأش ، وحتى بشيء من المرح ، ولكنه لا يطيق الانتظار . وكان  
يقول لنفسه ، منذ الموعد الاول : « الصفة الفضلى في الماشقة هي النقة  
في ضبط المواعيد . وما خلا ذلك فتأخري كله » . قالها لسولانج ايضاً ،  
وكان يسجل في مفكرة خاصة عدد دقائق التأخر عن الموعد لكل من  
صديقاته . فاذا بلغت جملة هذه الدقائق خمس ساعات فادر الى القطيعة  
مبدئياً على الاقل ، ولكن بعد ان يكون قد انذر الصديقة المذنبة ثلاث  
مرات : مرة عندما بلغت دقائق تأخيرها ساعتين ، ومرة عندما بلغت



ثلاث ساعات ، ومرة عندما بلغت أربع ساعات ، وذلك عملاً بالمبدأ العربي ، القائل : « قبل أن تقتل الأفعى ، انظرها ثلاث مرات » . ولم يكن تأخر سولانج قد بلغ ، حتى ذلك الحين ، أي طوال ستة أسابيع ، سوى ساعة وسبع دقائق . وكانت هذه نسبة مشرقة لها . وفي الساعة الخامسة إلا ربعا قرع الباب ، ثم دخلت اندريه ، فبادرها بقوله لها :

— ما أنك قد عدت ، ابتها الآلة العزبة ! فالثلث يقول : « القط الواقع في غليان الرجل لا يخشى الماء البارد »<sup>١</sup> ،

ولما صافحته احتفظت بيده في قبضتها فارة طويلة ، فتضايق . ورأى أنها تبدلت نوعاً ما . فقد كانت في ما مضى تكتفي برش وجهها بقليل من البودرة ، ويرسم خط ضئيل من الحبرة على شفثيها ، فإذا بها اليوم متبرجة على نطاق واسع ، ولكن بطريقة ريفية تقتصر إلى كثير من الذوق : فالحبرة صارخة ، والبودرة متراكمة في أماكن من الوجه ، وخفيفة في أماكن أخرى . وكانت ساقها عاريتين . ويمكن تفسير هذا العربي بأشدداد اللبظ ، إلا أن له ، بالحقيقة ، تفسيراً آخر ... وكان وجهها هزيلاً ، جافاً ، كوجه كاتب يجتهد لم يقرظه أحد في الصحف منذ زمن بعيد . وبالاختصار بدت له كأنها نبتة محرومة من الري . وكانت حينها مطوقتين بدائرتين زرقاوين ، واسمتين ، باردتين ، يمتد منها خطتان إلى جوار الصدغين ، كالنحر الذي تخلقه السفينة ورامها في مياه البحر . ولم يكن كوستال قد رأى هذه الدقائق من قبل ، فهاله منظرها القبيح في ضوء النهار الفاضح ، وتبادر إلى ذهنه أن الفتاة المائتة أمامه غدت ضحية هادات مريية .

وأجالت نظرها في اللوحات الموزعة على قطع الأثاث ، فقال لها .

---

١ - يقال هذا المثل في اللغة الفرنسية لمن يواجه مصيبة صغيرة بعد مروره بكارثة ، ويقابله باللغة العربية المثل القائل : « من شرب النهر لا يفص بالسانية » .

- لا ، يا آنسي العزيزة ، لست في مكان رديء 'يخشى شره' . كل ما في الامر اني اضع فيه هرتي في موسم السفاد مع هرتي فعل ، ولكن احد الاثنين يرفض دائماً التجاوب مع الآخر . وفي اغلب الاحيان يأتي الرفض من جانب الذكر . ما اغرب اطوار الطبيعة ! يجب ان اسجن الهر يوماً ما هنا مع قارة ، فقد تولد في نفسه الرغبة !  
قالت :

- الرغبة في انت يفتوسها ، بعد انت يكون قد عذبها طويلا . وفي هذه الاثناء ، تكون انت وراء زجاج النافذة ، تنظر الى هذا المشهد بلذة وارتياح ... أكاد اراك في هذا الموقف العزيز على قلبك .  
اجاب باشمازاز :

- ما اقبح هذه الصورة التي ارسمت عني في ذهنك !  
وكانت واقفة حياه ، وهي تحت تصرفه المطلق . فراح يفكر باحثاً عن افضل طريقة لتعذيبها الى اقصى حد . ففي الليلة السابقة انفلتحت في نفسه هوة سحيقة من الشر لسا قرعت بابه . وكان منذ خمس سنوات ، وحتى ذلك الحين ، يكبت رغبته ويكبح جماح نفسه كي لا يتفوه بكلمات جارحة ، اما الآن فقد ازفت الدقيقة المنتظرة بفارغ الصبر ليدلق ما في صدره من حمم النفيظ والثقة . كل ما كان فيه من الشفقة ، والعطف ، والصبر ، حوَّله قرع الباب في الليلة السابقة الى شراسة ، بميلية تكاد تكون كيميائية ، من تلك التفاعلات التي تغلب الاشياء الى عكسها ، فينقلب اللين دماً .  
رجل يخاطب نفسه قائلاً : « اللين والدم سيان . احب اللين والدم ، كما احب ارواح الموتى » .

وتصلب كل ما في عزمه وارادته ليزيد هذه الشراسة قسوة وضراوة ، وعاد يقول في نفسه : « كنت اشفق فاحس باثني بطل . ولكن هذا الشعور كان يزعجني » . ولم يبق عليه إلا ان يطلق العنان لذلك للشخص الآخر الذي نشأ فيه بعد كبت طويل ؛ لم يبق عليه إلا ان يلقي على اندريه

ذلك الوقر الثقيل الساحق الذي ما يرح بمسكنا به ، فوق رأسها ، منذ  
خمس سنوات .

استيقظت فيه قدرته على تعذيبها وجعلت تتمطى ببطء الوائق بقوته ،  
فراح ينظر اليها نظرة المصارع الى خصمه ، ليختار الاسلوب الافضل  
للقبض عليه والبطش به .

وتذكر انها كتبت اليه يوماً عبارة قالتها كليوباترا لانتونيوس ، وهي :  
« ليس لجودتك فصل شتاء » . فقال في نفسه : « ولماذا اعطف عليها  
وارحمها ؟ اني لا املك لهذه الطيبة سبباً . ثم ، لماذا تكون جودتي مخالفة  
من الشتاء ؟ ان الشتاء فصل جميل للغاية عندما ينظر اليه المرء بالنسبة الى  
تأثيره في الآخرين . ليمش من يستطيع ان ينفخ من له البرد والحرارة ا  
اذا كانت نفوس الابرار كالاشجار الخيرة ، كما قال الانجيل ، فمن واجبها  
ان تحب الشتاء بقدر ما تحب الصيف ، وان تحب الجذب بقدر ما تحب  
الخصب ، وان تحب الظلام بقدر ما تحب النور . لا بد من اشياء وعناصر  
عديدة لتكوين الانسان . أحس ان في نفسي جميع فصول السنة ، وهي  
تتوالى بلا انقطاع . اني كون بدور في الفضاء ، عارضاً للشمس ، على  
التوالي ، جنباته المختلفة . اجل ، على التوالي ، ودائماً على التوالي . وستعرف  
اندريه الآن من الشفقة التي عمرها بها رجلٌ مثلي طوال خمس سنوات » .  
قال لها متصنعاً اللطف :

— انك عارية الساقين . ويذكرني هذا المشهد بان الشبان الفرنسيين من  
الطبقة البورجوازية الرفيعة في الجزائر ، اذا ارادوا الايقاع بفتاة من  
الطبقة البورجوازية الرفيعة ، اخذوها بالسيارة الى احدى الغابات المجاورة  
للمدينة . فاذا رفضت الاستسلام لهم هناك ، انتظروا الليل ، ثم انتزعوا  
منها حذاءها وحركوها وسحبا وعادوا بسيارتهم . فتخرج بما تيسر لها من  
وسائل ، وهي عارية القدمين . ولا تقل المسافة بين الغابة والمدينة عن ١٢  
كيلومتراً .

— ما اشقى فتيات هذا البلد !

— ما حيلتنا في الامر؟ هذه طريقة تكره الفتيات على التصلب والجري على القدمين ، اقولها دون تلاعب بالالفاظ . وعلى كل منا ان يجيد الدفاع عن نفسه ، أليس كذلك ؟

— اجلي ، الدفاع عن النفس ! مساكين انتم الذكور ! انكم تدافعون نارة ضد المرأة التي ترفض ، وطوراً ضد التي تطرح نفسها على رؤسكم ، وفجأة راحت تسرع في كلامها ، وتتدفق بحماسة ، وتكاد تتلجلج ، كأنها تهول على سفيح شديد الانحدار ، فقالت :

... اما انا فعملت الرغيم من ظنونك بي وآرائك في ، لم اطرح نفسي عليك ، لم اتوسل اليك ، بل قدمت لك نفسي . وهذا تقيض ما تظن تماماً ، ولكنك رفضت تقدمتي ، فلا بأس . فمن يصبح محبوباً يفقد جزءاً من حريته ، على ان هذه السنة مفروضة على كل حي . ان استمرارك في الحياة يوجب عليك القبول باستبداد الزمن ، والمسافات ، والحرارة ، والاحوال الجوية ، والحاجة الى الطعام والنوم ...

— حياتي كلها قائمة على هذه القاعدة : تختص من كل ما لا تحتاج

اليه .

... اذا كنت قود ان تخشى شيئاً ، ففي وسعك ان تختار غير الحب ، ولا سيما حيي ، لأنه لا يخيف . وانت ادرى للناس بانني ما ألهمت عليك إلا قليلاً . فقد خرجت من حياتك صامته ، وما ازال ألزم هذا الصمت واشرق نفسي فيه . أسمع لي أن اصارحك بالحقيقة ؟ كنت متعبة ، الى اقصى حد ، منك ومن هذا الحب الشقي الذي لم يتغذى ، طيلة حياتي ، إلا من نفسه . في عذابي الطويل بدأت اعتقد اني غدت ، في نظرك ، ميتة لا تتحرك ، وانك حذفتي نهائياً من حياتك وفكرك ، فاذا بك تكتب الي . صحت بي : « أعيدي ، أعيدي » ، كي ارجع الى خشبة المسرح ، كأن الدور الذي امثله قد اعجبك ، وهو مزيج من المأساة والمهزلة . ما اقدرك

في فن القبض على النساء والحفاظ على احتدامهن في سبيلك الماذا جئت اليك الآن ؟ اولا لأبرهن لك اني غير مستاءة منك ، ثم لأنني لم اتخل بعد عن اميتي على الرغم من كل ما كتبت اليك . فالطريقة الوحيدة التي تستطيع ان تكبرني بها على التخلي عنك هي ان تصارحنى بانك لا تحبني . لم تقل لي قط انك لا تحبني . منذ اربع سنوات وتسعة اشهر لم اسمع منك مرة واحدة انك لا تحبني . هربت مني ، اجتلبتني ، ولكنك لم تقطع علاقتك بي ، بل كنت تعود الي بطيية خاطر بعد فرارك مني ، لانك ضعيف في قرارة نفسك ..

رفع كوستال يده الى رأسه بحركة من يريد ان ينزع شعره من شدة الغيظ وهو يقول في نفسه : « رأسي ! رأسي ! أكاد لصاب بالصداع ! » واستطردت اندريه قائلة :

— جئت لأسمع منك كلمة الرفض ، اذا كنت هي التي تريد حقا ان تفرطها . جئت لاسمعا من فمك . ومما يكن من الامر ، فيجب ان نلجأ حالا ان البضع للعلاج هذا الدمل المزمن بيننا . اجاب دون ارتباك :

— حسنا ، سننظر في هذا الامر .

ولم يكن قد قرر بعد ما ينوي قولا وعلا . ونظر اليها بانتهاء ، فادرك الغاية المبيتة من ثمرية ساقها البيضاء ، وتزين وجهها بالبودرة والحرمة ، والثان تسريحتها ... ولكنه لاحظ ان ثوبها مفتق قليلا ، وان طرف قميصها المخروم قد خرج من تحت الثوب وظهر على صدرها ، ولم يكن نظيفا فاصع البياض ... وكانت اظافرها طويلة ، مهندمة بعناية ، ولكن تحت صباغها الوردي اللامع خطا ضيلا أسود من الوسخ ، ما يدعو الى التساؤل هل كانت اندريه تحسب هذا الوسخ من مقومات الجمال كما تحسب الزنجيات تضخم الشفاه ومدتها على اطباق الحديد ضربا من الزينة ... ولعلها كانت تعتقد ان في القذارة نوعا من الوقاية الصحية ،

كئساء بعض القبائل المتخلفة اللواتي يحافظن على الاحرام المتصقة برؤوس اطفالهن محافظة تكاد تكون ضرباً من التقوى ، ظناً منهن انها الضمانة الوحيدة لحفظ الصحة ...

ان الذين يدرجون على امال قياقتهم ونظافتهم يحاولون احياناً ان يتبرجوا ليظهروا بمظهر أهل الاناقة ، فتخونهم دقائق صغيرة ، وتفضح ما في مظهرهم من التصنع في مناسبة معينة . ومن سوء حظ النساء ان الرجال يهتمون الامال في قيافة الرجل ، ورونه فظلياً ، مفرساً ، في قيافة المرأة .

وخلال هذه المقابلة كان كوستال يتكلم لأندريه ابتساماً طبيعية ، عادية ، دون ان يتنبه الى انه يتكلم . اما اسباب هذا الابتسام فكانت :  
١ - لأنه كان يشعر بفرح عميق لتدفق منه حيوية ساذجة شبيهة بتلك التيارات الكهربائية اللازوردية اللون التي تهبج النظر ، ولكنها تستطيع ان تصعق وتقتل .

٢ - لأنه كان يسل نفسه بالتمتع التي سينتمها بعد قليل عندما يباشر عملية التمليب .

٣ - لأنه كان يملف على أندريه . ولم يفارقه هذا العطف قط خلال علاقتها الطويلة . وقد يكون هذا هو السبب الاول لتقمنه عليها ورغبتها في تجريبها .

وبعد ان شبح نظراً اليها ، مدّ يديه ونقل وعاء الازهار من مكانه على الطاولة ، ووضعه في مكان آخر بحيث يحجب به وجهه عن انظار التي تحبه . فنقلت كرسيا لتراه . فنقل الوعاء من جديد وحجب به وجهه . فقالت :

— لماذا لا تريد ان اراك ؟

فاجاب بلهجة المداعب المرح :

— لارعجك قليلاً ... ولكن لا بأس اذا كان لطيفاً معك .

وازاح الرعاء .

قالت :

- ألا ترى اني كنت غيبية وحققاء الى حد بعيد في علاقتي بك ؟ لو ادرك الرجل كم تستطيع المرأة ان تكون بلهاء ، لأشقى عليها عوضاً عن ان يمزقها .

- لا تتطع المرأة عن المطالبة حتى تنال شيئاً ما . ومن حسن الحظ انه يمكن اعطاؤها كل شيء . مثلاً : الشفقة . فالرجال يمنحون دائماً هذه الشفقة دون ان يلتبهوا . انهم يسمون شفقتهم حباً . وهذه الشفقة هي التي تربط الرجل بالمرأة ، على الصعيد العام ، أكثر من الحب . وكيف لا يشقى الرجل على المرأة عندما يدرك « ما » هي ؟ لا يشقى المرء على الرجل العجوز لأنه في نهاية المطاف ، وقد كان له يومه ، ولا يشقى على الولد لأن عجزه عابر والمستقبل له ؟ اما المرأة التي بلغت ذروة نوجها وما تزال هذا « الشيء » الذي نراه ، لما قيمتها ؟ ما كانت ليخطر قط في بال المرأة انها عديمة الرجل ، لو لم يقل هو لها انها مساوية له ، تطلقاً منه ، وعلى سبيل الاحسان .

يبدو ان هذه الشفقة تتحول احياناً الى رغبة ، الى شهوة .  
- طبعاً . كل شيء يتحول الى كل شيء . وبما نسميه « حباً » ، « بلطاً » ، « لامبالاة » ، « شفقة » ، ليس في بعض الاحيان إلا عاطفة واحدة لها اسماء عديدة . والحمد لله على ان الشفقة لا تستمر إلا بعض الوقت ، وإلا قضت علينا ... وقد كتب للمرء ان لا ينجو من عبودية الحب إلا ليفزع في عبودية الشفقة . نستطيع ان ندفع الناس الى عمل كل شيء بآثاره شعورهم بالشفقة . أقدمون ان بعضهم يموت لشدة شفقتهم ؟ ان جميع الاعمال التي تحققت بفعل الشفقة انقلبت ثمرات وانتهت الى مصيبة ، ما عدا الشفقة على التفوق والمتفوقين . ولكن هذا النوع من الشفقة نادر للغاية . ان نصف عمليات الزوج الملعونة محققة في ساعة شرم

لأن أحد الزوجين اشفق على الآخر . وفي أيام الحرب ، لما 'جرحت' ، سمعت الناس يرثون لي في محطة القطار ، فاحسرتهم بقدر ما غمروني بشفتهم . وكنت اشعر بأن شفقتهم تجعلهم تحت رحمتي ! وكان في رسمي ان احصل منهم على شيكات ، ان اغرر ببتاتهم ، ان اكل ما اريد دون استحقاق ، ودون ان اكلف نفسي اقل عناء . كانت حالة مقرفة ، ولكنها كانت تفسح لي في المجال للافادة . ويبدو لي اني كنت قليل الذوق لو طمعت بأشياء أخرى غير التي املكها في هذا العالم وسميت اليها باستغلال النباه والفورر او الجشع في نفوس الناس عوضاً عن استغلال الشفقة .

ودخلت فراشة من النافذة فتجاهلت وجود اندريه ، وبدأت ترف حول كوستال كأنها تلتصق مداعبته ، ولكن مداعبة الفراشة ليست من الامور السهلة .

قالت له اندريه بهدوء وبطء :

- بدأت افهم الآن . لم يكن شعورك لمحوي إلا شفقة علي . ليس في نفسك للنساء إلا الشهوة ، والرغبة في التعذيب ، والشفقة . ولا مكان للحب في قلبك . انك تنتحل جق الشفقة على النساء ! أندري انت تفكيرك على هذا الصعيد من اسخف مضحكات القرن التاسع عشر ؟ يطيب لك الزعم ، على غرار ميشليه ، ان النساء « بانسات شقيات » . اننا في غنى عن شفقتك . دع هناك حجر اللب ، ولا تضرب به احداً ! ليست النساء بحاجة الى شفقتك . انك اشد الناس حاجة الى من يرثي لك .

- لماذا ؟ ألاني لا احبك ؟

- لانك لا تحب احداً . ليست لك امرأة ، ولا ولد ، ولا بيت ، ولا هدف في الحياة ، ولا ايمان . ويخيل اليّ ان خيبتك بهذه الحالة

١ - اشارة الى خرافة قديمة نظمها لافوتين شراً ، ونحوها ان دبا رأى ذبابة على رجه صاحبه النائم . لأراد قتلها كي لا توقظه . فأخذ حجراً كبيراً واللها هل الذبابة فسحق رأس صاحبه سهفاً .



يدفعك الى الاحتكاك بالذين يحبون ، الى من نفسك بينهم ، الى استدعائهم  
لتكون معهم كأنك منهم . ولكنك لست منهم . لا لا لا ! انك أبرص ،  
أبرص ، أبرص .

- اجل ، هذا ما كنت اقوله لك . انا هذه المصيبة كلها لاني لا  
احبك . وبعد ، يا اندريه هاكبر ، فانظري اليّ دون ضحك : أبدو  
عليّ الى رجل شقي ؟

- انك تخفي وجهك الحقيقي بقناع . وليست ابتسامتك إلا ضرباً  
من التكشير .

- الكتاب يتصنعون التكشير ليحسبهم الناس بؤساء . يريدون ان  
تكون وجوههم شبيهة بوجه باسكال<sup>١</sup> . أما سمعته يتفزلون بالكتابة  
الباسكالية ؟ هناك طريقتان مضمومتان لدخول الاكاديمية : كتاب في  
راسين<sup>٢</sup> ، وكتاب في باسكال .

- اعترفت لي مرة بالحقيقة . أنيت انك قلت لي : «اني اكذب  
دائماً» ؟

- أذكر هذا القول بوضوح . قلته لك لاعطيك عني فكرة خاطئة .  
وعلى كل حال فلا قيمة مطلقاً لما اقوله لك ، لانه لا شيء ! من يريد  
التعرف الى امثالي من الرجال ، يبحث عنهم في مؤلفاتهم ، لا في ما  
يقولون على سبيل العبث او التسلية .

- يكفي ان يرى المرء صورتك التي نشرت هذا الاسبوع في مجلة  
«الحياة الادبية» ليدرك انك غير سعيد .

- يكفي ان يرى المرء صورتك التي نشرت هذا الاسبوع في مجلة «الحياة  
الادبية» ليدرك ان مصوّر المجلة ازعجني وضايقني . روبرت ، يا عزيزي ، انك

---

١ - فيلسوف ورياضي فرنسي (١٦٦٣-١٦٦٦) ، أشهر مؤلفاته : «الخطرات» .

٢ - شاعر فرنسي (١٦٣٩-١٦٩٩) . أشهر مسرحياته : «اندرومك» و«بيرينيس» ،  
«بازيد» ، «ميتريدات» ، «الطبيقي» ، «فيلس» ، «استير» ، «مكتليا» .

## تعاين ردة الفعل ٢٢٧ المكررة .

— لا يعني ان اعرف ما هي ردة الفعل ٢٢٧ المكررة ، لانها ، ولا  
ربما ، بما لا يسري ... ولكن ما الذي تعنيه بها .

سأرى انها شيء لطيف للغاية . تعلمين ، ولا شك ، ان جميع النساء  
ينفعلن انفعالاً واحداً اذا فوجئن بصدمة قاسية ؛ وردة الفعل واحدة  
لديهن جميعاً . ليس في حياة النساء اسرار . أو هنّ الرجال بوجود هذه  
الاسرار على سبيل المجاملة ، ولاضرام النساء فيهنّ ، لأنهم يشتهونهن .  
وسارت النساء على هذه الطريق المرسومة لهن واوغلن فيها . فالحياة  
تجري معهن دائماً على الطريقة التالية : في المرحلة الاولى نجد جماعة من  
النساء المتشابهات بكل شيء ، يرددن الفاظاً وعبارات واحدة ، يضحكن  
من اشياء واحدة ، حتى ليخيل لي انهن مجنونات من مادة واحدة قابلة  
التبادل فيما بينهن دون ان يتغير فيهن شيء . وفي المرحلة الثانية ، اذا  
تعرفنا الى احداهنّ مزدانة بشعور مرهف نوعاً ما ، نرى انها تختلف عن  
الآخرات اختلافاً تاماً . ولا تستطيع ان تعرف شيئاً عنها من رفقاتها ،  
فهي بالنسبة اليك لغز مغلق ، وتظل لغزاً مغلقاً ما دمت لا تمتلكها ،  
لان الشهوة هي التي توهمك بان هناك الناز . ومع امتلاكك المرأة ونلت  
منها أربك ، عادت الى ما كانت عليه ، واصبحت في نظرك كالاخرات .  
ومن الواضح ان ردود الفعل عند النساء اوتوماتية ، تستطيع معرفتها قبل  
حدوثها ، ولستطيع تصنيفها ، وهذا ما فعلت . اعطيت هذه الردات  
ارقاماً متسلسلة ، فالردة ٢٢٧ المعكورة هي الردة التقليدية الصرفة التي  
تجعل المرأة البائسة تحاول اقتناع الرجل الذي تحبه بأنه هو ايضاً بائس ،  
لا لأنها تود ان تؤاسيه وتسبغ عليه ما فيها من حنان الامومة ، بل لأنها  
تلتهب غيظاً وحسناً حين تراه سعيداً وتعلم انه لا يستمد سعادته منها .  
والرجال ايضاً يصابون احياناً بالردة ٢٢٧ المكررة ، ولكن مبشها عندهم  
الحسد . واخيراً ، نلاحظ هذه الردة لدى جميع الكاثوليكين تقريباً ،

رجالاً ونساء ، لأنهم يحاولون اقناع الكفار بأن الكفر جعلهم يائسين .  
ورقم الردة في هذه الحلقة ٧٩ ك . م . وهذاان الحرفان يعنيان :  
« كثنوليكي مؤمن » ، لتمييز صاحب هذه الردة من الكثنوليكيين غير المؤمنين .  
- لا ادري ما فعلت لك النساء لتقول فيهن هذا القول . أغلب الظن  
انهن عذبتك عذاباً مريعاً . عفواً ! كنت أنسى انه لا يجوز لي  
التحدث في هذا الامر . فهذه الردة ٢٢٧ المكررة ! كن مطمئناً ، فستتخلص  
يوماً ما من النساء . وكثيراً ما فكرت بك وساءلت نفسي كيف ستكون  
حالك في شيخوختك . الي أرى منذ الآن انك لن تكون على شيء من  
الجمال . وقد استطيع ان اصف مسبقاً اخايد وجهك ، فخطوطها ظاهرة  
اليوم كالخطوط التي يرسمها المصور بالقلم الرصاص عندما يباشر تصميم  
احدى لوحاته . ان في جبينك اخايد جديدة لم يكن لها وجود منذ  
ثلاثة اشهر ...

فراح يضحك مقتبلاً بوقاحتها الساذجة ، واحس بقوة غير مألوفة  
تجلبده اليها . وكان متردداً في اختيار احدى شخصياته المختلفة لاذلالها الى  
الميدان ، ثم فكر بأنه كان من المحتمل ان « يأخذ » اندريه بطيية  
سخاطر ، لو لم تكن سولانج هناك ، في برج الحمام ترى وتسمع كل شيء .  
وجعل ينظر الى ضيفته المربكة قائلاً في نفسه : « لها نظرة لا بأس  
بها » ، ولكن أنكفي النظرة الجميلة ؟ يقول الخياطون ان قفا القماش لا يقل  
قدراً عن وجهه ؟ ولكن !

والنرة الاولى احس برغبته في امتلاكها . وربما كانت الدوائر الزرق  
حول عينيها هي التي اثارت فيه هذه الرغبة . وقد يكون اشتهاها لانها  
اقربته . فهو من القائلين بان مفان الفطاعة لا تكسر إلا الاقوياء .  
وكان في هذه الاثناء ينظر الى ثيابة جامدة منذ ثلاث دقائق على  
رمد السواكير واعقابها المتراكمة في المنفضة ، كأنها تجد من اللذة ما  
تجده عندما تجثم على قطعة حوى ، وقد انكشت بالرماد حتى اصبح

يسهل القبض عليها بالأصابع . وتبادر الى ذهنه انه كهذه النهاية ، لا فرق  
عنده بين الرماح والحوى . واعجبته غرابة الانقلاب المفاجيء في  
شعوره نحو اندرويه ، وفي السياسة التي انتهجها حيالها منذ خمس سنوات .  
لم يكن يبغيها ، انما لم يكن يبالي بها ، ولكن بشيء من المطف .  
ومثل هذه اللامبالاة يمكن ان تؤدي الى اشياء كثيرة . ولم يكن يزعمه ان  
يخونها من شدة الفرح ، فلماذا لا يمنحها النعمة الكبرى ما دامت قد استحققتها  
بصبرها الطويل ؟ ولم يكن يزعمه ان يحننها من شدة الالم ، فقد استعانت  
ايضاً هذا العقاب . وكان من المعقول ان يعلنها ليعوض عن الخير الذي  
اسبغه عليها دون مبرر ، وان يسمدها ليعوض عن الضرر الذي ألحقه  
بها دون مبرر . وبعد ، فهل كان بحاجة الى القيام بعمل معقول ؟  
كل شيء سهل عليه الآن ، كما كان كل شيء سهلاً عليه ساعة كان  
جالساً الى مكتبه وامامه ورقة بيضاء . لم تكن قساوته فاجعة عن حدود  
شعوره الانساني ، بل كانت نتيجة قدرته على تطوير شعوره وتخويره على  
هواه ، كأنه يضبط على زرّ فينبعث فيه الاحساس الذي يريد .

ان حياة الانسان خاضعة لقوانين استبدادية لا حدود لها ، بعضهم  
يحاول مقاومتها ، وبعضهم لا يعرف ماهيتها ، بينما كوشال يرفضها ،  
وعوضاً عن ان يتألم منها يفضل ان يحبها حق العبادة ، لأنه استطاع  
اخضاع حياته للفكرة التالية : ما دام العالم يقدم لنا وسائل كثيرة  
لاغتنام المنفعة والسرور ، فمن الغباء ان نتعذب ونتألم ، لانتنا ندفع ثمن  
عذابنا في هذه الحياة ولا نجد تعويضاً عنه في الحياة الاخرى .

وعمل بهذه الفكرة تألم كوشال من النكسة التي حلت ببارلسا ،  
ثم قرر ان يحب هذه النكسة ، اذ رأى ان هذه هي الطريقة الوحيدة  
للخلاص من الالم . وليست الوطنية شعوراً فطرياً ، بل مكتسباً . وكل  
ما هو مكتسب عرضة للفقدان .

وبهذه الطريقة عالج الجور الاجتماعي كما عالج الشر في جميع أشكاله .

وكان يقول في نفسه : « اذا كنت مضطراً الى التألم من الشر ، تصبح حياتي عذبا جهنميا ، اي حاقة ، اذا قلنصب الشر ايضا » .

وردد برهة ، اذ خطر في باله ان يضرب موعداً لاندريه في اليوم التالي ، فيمنحها ما تشتهي من الوصال ، ولكنه سأل نفسه أتبقى رغبته الحاضرة فيه الى اليوم التالي ؟ ثم تذكر قولها الخفيف المضحك : « انك لا تدري ما تستطيعه ارادة المرأة » ، فانتبهت المشكلة فوراً ، ووضع لها حدت نهائي ، لان هذه العبارة أيقظت في ذاكرته جميع الاسباب التي جعلته يستنكف عن « أخذ » اندريه منذ خمس سنوات . وتذكر ايضا عبارات اخرى من هذا النوع دفعت الى التصلب حتى العناد . ولكنه فقد رغبته في تعذيبها ، ولم يشأ ان يثُل دوراً في مأساة هزلية ... لم يشأ ان يكون مرأ يملب فارة لما في هذا الدور من السهولة والصفاة ، فقرر ان ينهي هذه اللعبة حالا ، فقال لاندريه :

— اعذريني اذا نبهتك الى ان الساعة بلغت الخامسة والنصف . وفي الساعة السادسة ستأتي صاحبة هذا البيت لادفع لها بدل الايجار . فاذا كان لديك شيء خاص تريدن اطلعي عليه ...  
فقاطمته قائلة :

— أأنت انت الذي استدعاني اليه ، يا كوستاك ، لان لديك شيئاً خاصاً تريد اطلعي عليه ؟

— انا ؟ علامَ تريدن ان اظلمك ؟

ورأى وجهها يتجهّم ويسو ، فيصبح شبيهاً بوجه البغايا حين يقول لمن مفوض للشرطة انه لا يستطيع اطلاق سراحهن ... واحسّ بشيطانه يلامس كتفه قائلاً له : « لا تكن شريراً مؤذياً ! » واجابه في سره : « بلى ، بلى ، لماذا لا اكون شريراً مؤذياً مع هذه ، ما دمت ساكون طيباً محسناً مع تلك التي تلتظر في برج الحمام ؟ » وحس الشيطانات : « وهذه ، متى يأتي دورها ؟ » فاجاب : « مرة اخرى ! »

**وقالت انتحريه :**

- ان تصرفك معي امانة مزممة ، وتراني اسائل نفسي احياناً كيف استطعت احماله .

... وأنا أيضاً طرحت على نفسي هذا السؤال ، ما أطول بال النساء ،  
وما أقدرهن على إحداث إساءة الرجل اليهن ؟

- طبعاً... عندما يستولي علينا الحب ؛ أما انت فلا تفكر إلا بإساءة استعمال قدرتك وسلطانك . ان حياة رجل على شاكلتك شيء رهيب ... لا حدود لقياحته المسخ .

— سکل و کاتب و جدیر پہذا الام لا یستطیع إلا ان یکون مسیحا .

— انك تقرر ببض للناس ، وتحرم البض الآخر حقه الطبيعي في الحياة ، ولا تفهم مطلقا مع الجرى الانساني الذي يسير فيه الجميع ... انك تقتل كل شيء في البيضة ، تحنقه في المهد . حياتك برمتها سلسلة من الاجهاضات . تجهض ما في نفسك ، وتقرر الاجهاض على الآخرين . أنسيت انك كتبت اليّ يوما تقول : « ان تعذيب النساء امر في غاية السهولة اترك للصمالك » ؟

- هذا الـ : يوماً ، قديم جداً ، يعود الى زمن كنت فيه تكتبين  
اليّ : ان الفناء لا تتمب من الحب الطاهر المنري قبل صديقها ، ولا  
يمكن ان تكون البائدة في طلب التخلي عنه . وعلى كل حال ، فانت  
فناء ذكية يتعنر تمنيك ، وفي وسعك ان تتلاهي بالأمك .  
- لا ، لا ، لا كتمسل في هذا الاعتقاد . لست ذكيّة بقدر  
ما تظن .

— أليس العذاب في الحب ولأجل الحب نوعاً من السعادة ؟ وإذا مجرك  
هذا العذاب أفلا يترك في نفسك فراخاً ؟  
— انك تتكلم كما يطيب لك !

ۛ انك تكلم كما يطيب لك ا

— لست أدري ، هذا ما تقوله النساء .

وفي هذه الفقرة ، بدأت تخافه . وكان خوفها غريزياً كخوف الحيوان ...  
كخوف من يرى نفسه سجيناً ، في غرفة مغلقة ، مع مجنون يلعب في عينيه  
ومبيض الاجرام . وفي موجة النعر الطاغية عليها ، راحت تحاول تهدئته  
واسترضاه ، فقالت :

— الوصل اليك ، يا كوستال ، ألا تكون شريراً . لست شريراً  
بطبعك ، ولكنك تجهد نفسك للتظاهر بالشر .

وراحت تبذل جهودها لتقنعه بأنه فاضل ، كما كانت لساء اخريات يحاولن  
اقناعه بأنه « مسيحي على الرغم منه » ، ثم قالت :

— أنحسني عجرة لاني اسببتك ؟

— اجل ، بكل تأكيد .

فصاحت بقوة ولزق :

— لا ا ا ا انك غطىء . لا تنتقم مني لأجل وهم في خيالك لا حقيقة له .  
لذاصر انك لم تتعذب بسببي ، وانما انا التي تعذبت بسببك . لم تكن  
فورات غضبي إلا موجات من العذاب تفيض بها نفسي ، وقد تأملت منها  
بقدر ما تأملت من التظاهر باعراضك عنك ونقمي عليك . ولكنك لم تشعر  
باني كنت اعرض عنك وانقم عليك ا لا عديم هذا السلام البائس الذي  
بنيت في نفسي خلال ثلاثة اشهر من الصراع والدموع . قلت لك في ما  
مضى : « عوضاً عن مكوثك وعن غمرة الشك التي انحبط فيها ، اضربي  
ضربات قاسية » لانها وحدها تمنني القدرة على التخلص منك . أما الآن  
فاقول لك : « لا ا ارحمني ، ولا تضربي بقساوة » . وبعد ، ما عساي انخسر  
إذا أبيت ان تعاملني بلطف ؟

لم يشعر كوستال باقل سرور لما رآها مرتعبة منه . جلّ ما كان يريد  
ان يمنحها وهي صافية الذهن ، كلمة الوعي .  
قال لها :

اعترفت منذ حين ان حبك لي ليس من الصنف الرفيع لانك تفضلين  
سعادتك على سعادتي . فاطلب اليك ان تقضلي سعادتي ولو مرة واحدة .  
دعيني اعذبك . احب فيك الالم الذي اسببه لك . وهكذا اجد نفسي فيك  
واحبك . اعطيني لذة مقاومتي اياك طوال خمس سنوات ، فاعطني الآن  
لذة فسوتي عليك . لا تريد النساء ان يعلن كم يتراكم من الكذب ،  
والاثنية ، والمياء ، والصدقة في الحب الذي ييوج به الرجل لمن . اما  
معي فستعرفين حقيقة هذا الحب . وهذه المعرفة ستكون كبيرة الفائدة لك ،  
تكتسك من معرفة الحياة . ان ما نحتاج اليه في هذه الدنيا ليس الاستقرار  
الشبيه بالجمود . فالحياة لا تكون طيبة إلا اذا زخرت بالرجولة .

— من اخبرك اني اتمتع بالرجولة ؟ هل من شأني انا ان ازخر بالرجولة ؟  
الي امرأة ، امرأة ، ثم امرأة ، أفلا تريد ان تفهم ؟  
— للنساء وسيلة مضمونة لتحمين من العذاب .  
— وما هي ؟

— لينظرن الى المرأة عندما يتمنن ، فيعمدن فوراً الى تغيير ملاحظتهن .  
وثمة طريقة اخرى للتخلص اوتومانياً من المذاب ، هي ان تفكرني  
بالحالة التي ستكونين فيها بعد خمس سنوات . تعلين حق العلم ان حبك لي  
سيزول بعد خمس سنوات ، وان هذه القصة التي نمر بها الآن سيبود لنا  
كالاخبار التي تشرها الصحف تحت عنوان : « منذ مائة عام » ،  
مهزلة مضحكة . فالحياة شبيهة بكثبان الرمال : يتكون كتيب ،  
فبأني كتيب آخر ويظلمه ، وهكذا دواليك . تقضي انثريه هاكبر  
التي ستكون بعد خمس سنوات . فالمسألة لا تحتاج إلا الى شيء من  
الخيال .

اوشكت ان نجيب بعنف ، ان تنفجر ، إلا أنها رأت على الطاولة  
وعاً من الحريش<sup>١</sup> ، وكانت تكرر هذه الحشرة ، فصاحت :

١ - حشرة سامة تسميها العامة ام اريمة واربعين .



— أقتلها ! أقتل هذا الحيوان القبيح .

— لانا أقتلها ؟ لم تؤذي .

— وانا ، هل أذيتك ؟

وألفت على الحشرة جريدة ، ثم صحتها . فنظر اليها كومتاك نظرة قاسية ثم عن الاستياء والحقد ، ثم قال :

— انك تمييزني جداً ، يا آلسة هاكبو . كنت منذ أيام في مطبخ مع فتاة صغيرة جميلة صيداً . وشعوري بهذه السعادة حداني على ان أشتري السعادة لك ايضاً ، فكتبت اليك ، فبحثت امس الساعة التاسعة والنصف لضربين بابي بقبضتيك كالمالج الخالي من الذوق . وكنت مع الفتاة الآلفة الذكر ، وكنا قد اتفقنا على ان اجعلها امرأة ليلة امس ، فمزلت بجيبك هذه العملية وخربتها . ومع ذلك تساءلت فصرخت لك هذا الموعده ، لانك جئت من سان ليونار لاجلي ، ولم اشأ ان يلعب تعبك مدى . ولو لم لتأخري ربع ساعة ، لكنت لنا ساعة ونصف الساعة للتحدث بلطف والسجام . اما الآن فلا ادري ما هو قصدي .

... ما الذي تبحث عنه ؟ أريد ان أعرفني حق اريحك من وجعدي معك ؟ أرى انك ما دعوتني إلا لهذه اللغاية : لتروي لي قصة قذارلك مع فتاة المطبخ اقلت وأقول دائماً انك عاجز عن ان تحب في المساواة ...

... لا احب في المساواة لأنني ابحت في المرأة عن الطفولة . ولا استطيع ان اعطف على امرأة ، ولا ان اشتبهها ، إلا اذا كانت علاقتي بها تذكركني بإيام حداثتها .

— اذاً ، ستكون نهايتك في عكة الجنح ، بشمة الشذوذ والتغريب بالقاصرات .

— ان حب القاصرات دليل على استفعال الذكورة .

— أمدا هو وعطفك ، الذي حدثني عنه في رسالتك ؟

راى انك نصبت لي هنسا شركا مغنويا ، خطيبا ، بعد ان اعددت  
وهيأته بكل عناية كما كعدت وتهيأت كل شيء ... ولكن ، قل لي ، ألم  
تخرج من صمتك الطويل لتكتب الي : « فرصة سانحة » فاعتميتها ؟  
- كنت امزح .

- كان نيرون يضحك ويقول انه يمزح كلما انفض على احد اصحابه  
ليطمئنه بخنجره ، فاططأه .

اجاب بلهجة تم من منتهى السخرية :  
- رباه ! ها نحن قد وصلنا الآن الى نيرون !  
ورفع يده يلامس بها احدى هيليه قائلا :

- لا تؤاخذيني . ما ذنبي اذا كنت احب المزاح ؟ ان الحياة تصبح  
للذبة سائغة حين نمرتها من الجدية ومظاهر الوقار . ولكنك ، مثل  
جميع النساء ، تظنين دائما اني لا امزح حين امزح ، واني امزح حين  
لا امزح .

-- لم يبق عليك إلا ان تعترف بانك استدعيتني لتعذبني ، ولتراقب  
في نتائج تمذيبك البارح ، ولتنظر الى شعوري وافكاري تتعطل في  
نفسي ، كما تنظر الى فصيلتين من النمل تصارعان حق الموت ويفارس  
بعضها بعضا ، او الى قتال يجري بين سكان القمر ، وانت بعيد ، بكل  
حذر ، عن الميدان ، ويرعبك حق التفكير بان تتورط فيه . تحب  
الاحتفاظ بي في متناوله يدك ، كما يحتفظ زعيم أكلة اللحم البشرية  
بالرجل الابيض الذي وقع اختياره عليه ، ليقتطع منه شريحة كلما طاب  
له الاكل ... اواه ! ما اجل شفقتك على النساء وكيف تكون حالك  
لو لم تكن شقوقا ! انها شفقة الطاهي على البطة وهو يقطع رأسها .

- اعترف بان تصرفي معك لم يكن خاليا من الدجل في بعض  
المناسبات . اما الآن فلا اريد بك شرأ . منذ قليل احببت ان اعذبك ،  
اجل ، وطلبت اليك الملاح لي بتعذيبك ، ولكنني عدلت الآن عن تلك

الرغبة ، لأن لك في نفسي مودة كبيرة .

وفي هذه اللحظة ، رأت أندريه شيئاً بدا لها عجبياً مستغرباً :  
رأت عينيه تتألقان بلُجْد واحترام ، فتبادرت إلى ذهنها كلمة « أخوي »  
التي كانت ، في ما مضى ، تحب ترديدها كلما فكرت به . وطفرت  
هذه الكلمة من صدرها إلى شفثتها كأنها وحدها تستطيع التعبير عما  
اعتلج في صدرها تلك اللحظة . إلا أن ذلك التالى المشجع ، المنعش ،  
ما لبث أن تلاشى من عيني كوستال .

قال لها ليبحث في نفسها أملاً خلافاً كاتباً :

— أعتقد أني أستطيع أن أكون سخيّاً معك ؟

— لم أصد أؤمن بك ولا بما يأتي منك . لقد خدعتني طويلاً ،  
وضللتني وبألفت في تضليلي عن قصد وتصميم ، حتى غدت أعرف  
الرجال . أنهم ليج بريدة الغور من الفطاعة والحفايا والتناقض أمام نساء  
لا يعرفن غير الحب ، لا يعرفن إلا تضحية الحياة في مقابلة الشر بالخير ،  
مهما كنّ حقايرات ، ومهما تكن قدرتهن على الحب ضئيلة .

— اعتقد أننا لا نطلب اليهن هذا القدر من الحب . أما التناقض  
فأقول فيه أنه يجد مجالاً أوسع في حياة الرجال لأنهم أذكى من النساء .  
— دهني منك ومن ذكائك . وإذا كان لي في نفسك ذرة من العطف ،  
كما قلت ، فانتدني . انتدني ، يا كوستال . لا يكلفك هذا الانقاذ شيئاً ،  
ولكنه الحياة كلها بالنسبة إليّ . وبعد ، فيجب أن أحياء !

وكانت إلى جانبه ، على مسافة بضعة سنتيمترات ، وقد انخفضت  
عينها . وظلت منمضضة العينين كمن يتوقع ضربة . وكانت أشبه بالشبح  
في استسلامها الملتهم ، وبعينها المطوقتين بدائرتها الزرقاوين . ولم يكن  
يسمع إلا نقر العصافير على زجاج النوافذ ...

ولما ظل كوستال صامتاً ، وكانت قد لاحظت أنه لم يطرف له جفن  
عندما قالت : « وبعد ، فيجب أن أحياء » ، أدركت أنه قال في نفسه :

« وما الفائدة من حياتها ؟ » وابتعدت عنه بضع خطوات وهي منكسة الرأس ، ثم قالت متلعة :  
— التمس منك المعنرة ، ففي عيني قوة تراب .

واستدارت نحو الحائط لتكفكف صوعها بحرمتها في صمت رهيب ، لا تنهد فيه ، ولا زفرة واحدة .

انتظرها كوستال حتى فرغت من بكائها . ثم رأى ان هذه الرواية قد طالت أكثر من اللازم ، فقال في نفسه : « لم يفت الوقت بعد ، فلي وسمي ان اجعلها سعيدة حتى الجنون بكلمة واحدة » . ولكنه لزم الصمت ، ولم تتحرك شفتاه بتلك الكلمة . فعادت اندريه الى جوار الطارئة ، ودنا درستال منها خطوة ، فوقع نظره على يدها اليمنى ، ورأى ما لم يكن قد رآه بعد ... رأى اظافر اندريه كلها طويلة ، مهندمة بعناية ، ما عدا ظفر الاصبع الوسطى ، فقد كان مقطوعاً من ارومته .

وارتفعت عيناه من يد الفتاة الى الدائرتين الزرقاوين حول عينيها ، وجعلت جفونه تطرف بسرعة تحت تأثير موجة عارمة من الشهوة تدفقت في جميع أنحاء جسده . ولكن الفرصة المؤقتة مرت مروراً ، وانتهى بعدها كل شيء .

— متى الكسر ظفرك ؟

فاجابت ، وهي منكسة الرأس :

— ليس لهذا الامر أهمية !

واطبقت يدها بحركة عصبية لتخفي اظامها . فاستطرد كوستال قائلاً :

— اذهبي في سبيلك ، يا صغيرتي . اعتقد اننا انتهينا من حديثنا .  
وفكر بانها قد تكون مسلحة ، وقد تحاول قتله او صفعه على الاقل ، فدنا منها ليتمكن من تحويل ضربتها عنه اذا حاولت ان تضرب ... دنا منها كما يدنو مصارع الثيران من الثور ليتعاضى نطح قرنيه . قرفعت رأسها ،

وبدت ذاهلة ، مشدومة . وسدقت اليه بإمعان دون ان تتحرك وفي عينيها  
ذلّ وانكسار . فاحرك انها لا تريد قتله ، وان هذه الفكرة لم تخطر في  
بالها ، فقال في نفسه : « ما اغرب النساء للفرسيات ! »

وخاطبته قائلة :

— كوستال ، لن اراك بعد اليوم . ولكي اطرح عليك سؤالاً اخيراً :  
أفقد الشعور انت ؟

— انا أفقد الشعور ؟ هذه نكتة طريفة . لو كنت أفقد الشعور لما  
كنت مذنّباً .

.. ما معنى هذا القول ؟ أفهم منه انك تريد ان تكون مذنّباً ؟  
لم يجب عن هذا السؤال ، بل قادها برفق ، بمسكاً بذراعها ، وسار  
بها صوب الباب المؤدي الى الحديقة الصغيرة ، فالشارع .  
وكانت في السماء غيمة لها شكل جناح ، فقال كوستال في نفسه :  
« أطلع قبة على جبينها قبل ان اطرحها في الشارع ؟ » ولم يجد من  
الاسباب ما يشجعه على هذه البادرة او يثنيه عنها . وكان جرس الباب  
معطلاً منذ حين ، لا يرن إلا نادراً اذا فتح الباب من الداخل . فقال  
كوستال في نفسه : « اذا رنّ الجرس ، اقبلها » . وفتح الباب ، فظل  
الصمت سائداً . وكانت زقزقة المصافير تغزل فوق رأسيها خيمة من  
الألحان . فابتسمت اندريه .

واغلق كوستال الباب . وخطر في باله انها ستعود ، وستقرع الباب ...  
وان شيئاً ما سيحدث . إلا انه كان واحداً . وطالما خدعته ظنونه .  
ولما عاد الى اليهو ، انتظر قليلاً ، ثم صعد الى برج الحمام ، او غرفة  
رماد الموتى .

ـ والآن ، يا صغيرتي ، ما رأيك في ما حدث ؟

وكانت سولانج واقفة في برج الحمام ، في المكان الذي احتلته وراء الستار لترى وتسمع ما يجري في البهو . فنظرت الى كوستال بعينين شاردتين مشربتين بالاحمرار ، وقد تورحت وبعثتها كما كانتا تتوردان حين كان يضيء الكهرباء بعد ان يلهب جسدها تقبيل ومداعبة . وكان رجبها يبدو ملفوفاً ومتورماً قليلاً من حرارة القبل ، فاذا به في ذلك اليوم متعب ظاهر للمياء ، مع ان كوستال لم يكن قد قبله إلا ثلاث مرات او اربعاً ، منذ ساعة ونصف الساعة . وكان شعرها منتفشاً ومبعثراً ، لأنها لم قبلته صباح ذلك اليوم .

وأعاد عليها سؤاله قائلاً :

ـ ما رأيك في هذا المشهد ؟ ألم يكن صراعاً حسب القواعد المتبعة

في مواسم الاوياف ؟

ـ ليتني ما رأيته ! لما قرأت لي بعض رسائل هذه المرأة ، اشتاقت عليها ، اما الآن ، بعد ان سمعت ما سمعت ، فقد زالت من نفسي كل شفقة . لما اعطاها هذه الرسائل أصيبت بصدمة ، واعتبرت عملها فضولاً وقلة ذوق ، مع ان كوستال لم يكن قد اطلعها على اسم اندريه . وقد صارحته بما يساور نفسها في هذا الشأن ، فاجابها :

ـ اني ازيح قبعتي من مكانها<sup>١</sup> .

١ - قال « برعي ليسكوتق » ، في مذكراته عن بلاط ملك فرنسا لريس الرابع عشر ، ما يلي :

قالت : ماذا تعني ؟

قال : سأشرح لك معنى هذه العبارة عندما تتقدمين في السن .  
ولكنها أصبت أنها أصيبت بصدمة قاسية . وتغلغل في أعماقها شعور  
غامض بتضامنها جنسياً مع أندريه ، فضيل إليها أن كوستال قد أذهلها  
هي أيضاً لما أذل اختاً لها في الآونة . إلا أن ثقها بنفسها كانت كبيرة ،  
فلم يخطر في بالها أن تسأل نفسها : « أهواء يعاملني مثل هذه المعاملة  
يوماً ما ؟ »

وخاطبها كوستال قائلاً :

- إن رؤيتك تتمشي . ويسرني أن أرى امرأة تبقى على صعيد  
الحقيقة . أصاركك بأنك إحدى النساء النادرات اللواتي عرفتهن في حياتي  
رايكنت أنهن غير مجنونات . فالكتاب يحتذون المجنونات كما يحتذب اللحم  
الذبان ، فإذا بنا ، في نظرم ، مسؤولين عن عزلتهن ، هن كبت شهواتهن ،  
وإذا بهن لاقات لأجل الوهام وخيالات في رؤوسهن . أما أنت فأنك  
الشدوذ الذي يؤكد هذه القاعدة . واني احبك لذلك شاذة .

- ولكن ، لماذا تجيب عن رسائلي ؟

- وما حياتي في الأمر ؟ عندما أرى الذبان على قطعة اللحم أقول في  
نفسي : « يجب أن يأكل الجميع » .

« اشعري مكروير الكونت دي غيش ، قال : كان الكونت يوماً في حاشية  
الملكة ، وقد تحلكت حوله جلاتها الأميرات والدرجات ومن جميلات ، بينما  
بقي كثيرون من الحاضرين وقفاً ؛ فاحس الكونت أن يد إحدى السيدات ،  
من صديقاته ، قد امتدت إليه وراحت تعبت فكان من جسمه لا يليق ذكره ،  
أو بلعري يحسن حسهم ذكره . بدافع للتواضع ، وكان الكونت قد سار  
هنا المكان بقيته ؛ ثم لاحظ أن السيدة أدارت وجهها عنه ، فرفع  
جبته بجنب ، وراح الحاضرون يضمكون متهامين . ولك أن تدرك كم كان  
خجل تلك السيدة كبيراً وحللاً ... »

« وكان الكونت يتكرر كل يوم لعبة جديدة من هذا النوع ليوضح النساء ،  
ومع ذلك كن يتألمن عليه من كل صوب » . - المؤلف .

وطوقها بذراعيه ، ثم جعل يفتق ما في وجهها من دغمة ونضارة .  
وسمت إحدى يديه حتى بلغت كتف الفتاة من تحت حافة الثياب التحتانية ،  
وكان من أروع مقتضي هذه الحركات ، وراح يمزقها بالقاء نظره عليها ...  
وكان قد فاق الى الانقياس أخيراً في شيء يشتهي ، واستخدمت رغبته  
في الاستيلاء على سولانج كأنه التقاه بعد غياب طويل .  
وكان عائداً ، بالفعل ، من بلد بعيد ، من جميع اشخاص لا يعجبونه ،  
فكاد يرسل ذلك النباح الحساف الخنوق الذي رسله الكلاب في لشوة  
سرورها لدى عودة اصحابها الاخيار او الاشرار .  
قال لسولانج :

-- جئتك الآن برداءتي ، وهي ما تزال حارة . هذه الرداءة هي عطفي  
عليك . والرداءة والمطف شيء واحد . ما معنى ان يكون المرء عطوفاً ،  
او ان يكون رديئاً ؟ لا فرق بين الحالين . قد نروي أحياناً عطشنا  
بسيكارة ، والسيكارة تحرق ، بينما الماء يرطب . إلا ان الحالين شيء واحد .  
لا نحاول ان نفهمي ، فنبشأ نحاولين !

أرأيت هذه الفتاة ؟ ان مثيلاتها يملآن الاسواق ا و هن جميع النساء  
الدائيات ولطفتين لأنهن لا يعجبني . انهن لا يصلحن إلا لعملية تفريق على  
طريقة « كارييه »<sup>١</sup> . وهكذا انتهى ممهن دائماً : « روروب » ... اشق  
تحتن المنواة ... وعليهن سلام الشيطان . ان ما يجب الآن هو ان تلتصع  
هذه الفتاة لأتخلص منها تخلصاً حقيقياً ، نهائياً . أريتك هذا المشهد لتدركي  
ما يحمل بين لا احب . هذه فتاة نشأت من لا شيء ، وارتفعت وحدها  
بلا مساعدة ، في اصعب الاحوال واقسامها . انها مثقفة ، مرهفة الاحساس ،

١ - جان باتيست كارييه ( ١٧٥٦ - ١٧٩٤ ) عضو في مجلس « كورنيلسيون »  
الفرنسي في أثناء الثورة الكبرى . اشتهر بالظلم والفسادة اذ كان يأمر بأغراق  
مئات المشبوهين في نهر الارار ، ببنية كانت . وقد اقيم أخيراً بالحيانة ، وانتهى  
بان لهي سفته عن القصة .



متوقدة الذكاء ، مفعمة نبوغاً ، تحبني منذ خمس سنوات . فإذا وضعنا استحقاقها ومزاياها في الميزان بالنسبة اليّ ، تبين لنا ان استحقاقك انت ومزاياك لا شيء . ولكني لا احبها . لم اعطها شيئاً قط . لم اتصدق عليها بقبلة . لم آخذ يدها بيدي ، لاني لا احبها .

اما انت ، فما كنتِ تظهرين حتى اعجبتي . اني اعطيك كل شيء : عنايتي ، وعطفي ، وقوتي الجنسية ، وذكائي . تذكرني هذا ، واحفظيه لليوم الذي سنضطرين فيه الى الشكوى مني . فهو آتٍ حتماً .

انك تمنين بكل شيء دون سبب ، ودون استحقاق . لا مبرر لاعطائك انت دون سواك . لا مبرر لهذا التفضيل وهذا الانحياز . اذكر بيتاً من الشعر لا ينفك يلفز في ذهني كلما فكرت بك ، وهو :

« لا ادري لماذا اخترتها » .

ولا اذكر متى قرأت هذا البيت ، ولا اين قرأته .

من انت ؟ انت فتاة كالاخريات . انت فطرة ندى على عتبة في مرج . فلو تجملت فيك جميع المآل ، جميع « الصفات السلبية » في العالم ، اتظنين اني كنت عدلت عن سببك ؟ كان عليك ان تعجبي . ولم يكن هذا الامر في يدك ، ولا كان رهن ارادتك . مررتُ بك واخذتُك بالصدفة تقريباً . وهكذا تجري الحياة ، من صدفة الى صدفة . لماذا تختار هذا دون ذاك ؟ بالحقيقة ، ليس لهذا الاختيار اسباب . واذا وجدنا له سبباً فهو سبب ضئيل ، تافه ، لا يستحق الذكر . كل شيء لك انت . وللآخريات لا شيء على الاطلاق غير الحية . انا هنا في وحدة من الظلم سحيقة ، ولهذا اراني مرتاحاً ومبتهجاً . ولكن هذا لا يعني اني لا احب الانصاف والعدل . اني افضل نارة الظلم على الانصاف ، وطوراً الانصاف على الظلم . ولا بد من اطلعك على هذا الامر . وانت تعلمين اني احب ان اقول لك اشياء مزعجة . فهذا جزء من حيي لك .

وكانت تستمع الى حديثه دون ان تفهم جيداً كل ما يقول ، وهي

في غمرة من التعجب والتحول . ولا غرابة اذا تعجبت ونعلت ، فهي من عيطة اذا تحدث افراده عن احد الكتاب قالوا : « انه كاتب ، ولا يجوز ان تأخذ ما يقول على ماأخذ الجد » . وكان هو مسروراً بصمتها واحجامها عن الرد عليه ، لان ردّها لا يمكن ان يكون إلا مختلفاً عن فكرته هو منها قالت .

قال لها ايضاً :

-- كم هناك من اشياء ليست انت ! كون المعارف ، كون الآلام ، كون العدالة ، كون المسؤولية ... انها اكوان لا يخطر وجودها في بالك ، وانا لا اراها إلا كما ارى البرق الخائب . ينطلق سهم قاري في الجو ، فيلقي عليها ضوءه لحظة . ثم تعود الى الليل ، ليلى انا . ومع ذلك ، أراني كبير الاهتمام بك ، اعطيك من مادتي ، واخاطبك احياناً كأنني اخاطب عالماً مجهولاً .

كم كلمة من كلماتي بلغت هدفها ؟

ما اكثر ما اضمت من للطلقات النارية ! أعقّ انا ؟ أخطئ انا ؟

انت فتاة صغيرة ، بوجوازية ، باريسية ، في العشرين من العمر . وهناك اناس يقولون لي في سرهم : « أيذا الشيء تهتم ، بينا الطبقات الاجتماعية ... بينا الشعوب ... بينا الامبراطوريات ... ألا تشمر بالجنون ؟ » ويقول آخرون : « ان هذه النفس الصغيرة وحدها تساري نفس شعب بأسره . جميع الآلام التي فجرتها الحرب في العالم لا ترجع على دمة واحدة تذرّفها هذه الطقة . واذا لم يكن في حياتك شيء إلا انك غمرتها بالحب ، فقد قتت بدورك الانساني على هذه الارض خير قيام ، واستثمرت بقعة الارض الانسانية التي جعلتها الحياة في كل منا ، فحرقتها ، وزرعتها ، واستنبتها شجراً وجمالاً . »

بين هذين الرأيين ، أيها الصحيح ؟

ان هذا السؤال يطرح دائماً ، وهو دائماً حثير وفاسد . قال رأيان صحيحان

كلاهما . يجب ان نستوعب احدهما ونتركه كلياً ، ثم نستوعب الآخر  
ونتركه ايضاً . فهنا وجهان اثنان لحقيقة واحدة . ان اصحاب القلم  
الأنيق يكتبون ان الحقيقة ألامسة ، ولكنهم ينسون دائماً ان يأخذوا  
بعين الاعتبار عدد الصفحات الملاء المشعة في هذه الألامسة .

والآن ، الزمي الصمت ! لا تردني علي . لست بحاجة الى ان تفهمي  
ما اقول . ولكنني ، انا ايضاً ، لست بحاجة الى الاطلاع على انك لم  
تفهمي ما قلت .

وراح يفلق النوافذ<sup>١</sup> ويسدل الستار . وكانت على الطاولة ورقة  
ملونة الطبع ، كتب عليها بحرف كبيرة عنوان اعلات هذا نصه :  
« اري كل شيء » ، فطواها بخنفر وسجاء ، كي لا ترى شيئاً .  
وكانت نفسه محتمة كأنها تهضم جرعة كبيرة منمنشة من الكحول .  
ولم تكن هذه الجرعة إلا المتعة المارمة التي غنمها من قسوته على اندريه .  
دفع سولانج الى السرير وقلبها عليه ، وهي مرتدة ثيابها ، ثم مد  
ساقها بعناية .

وبعد هذه المقدمة ، تقمصه عالج مصارع ، لا م<sup>٢</sup> له إلا ان يسيطر على  
خصمه ببطورة تامة .

كان عادة<sup>٣</sup> يخشى ان يضمها بشدة لثلا يوجعها ، فهي ما تزال رخصة  
العود ! اما الآن فقد عمد ، للمرة الاولى ، الى اللشراسة الوحشية . ولم  
يلجأ الى العنف ، لان سولانج كانت تتعبط بمحاولة الافلات ، بل نعد  
القصة لأنه اراد ان يترك ذكرى متميزة لا تغرب عن الذهن .

راحت الفتاة تصيح : « لا ! لا ! » وفقرت فاهها ، وجعلت تحرك

---

١ - كان برج الحمام يطل على حديقة احد الاديار المعيدة في هذا الحي . وكثيراً ما  
كان 'يسمع قرع الاجراس ، وتقع عين كوستال من التافقة على الراهبات . ولم  
يشأ المؤلف استدلال التناقض بين اعماله وسجاء الكبير ، مع ان هذا الاستدلال  
كان في غاية السهولة . - المؤلف .

رأسها بيناً ويساراً . فنشق انقاسها ، واشتم منها رائحة جديدة غير التي كانت لها ... رائحة منبعثة من الاعماق ... رائحة كانت الصبغات الملهوفة تغارفا من قرارة الروح والجسد .

لم يستطع ان يحمّد رأسها إلا لما عضّ لسانها ، وراح يشد عليه بأسنانه كلما حاولت حراكاً . وبأعضاء جسده جميعاً ، جعل يعرك ، في انتظام ورتابة ، هذا الشيء الغامض الذي كان يدعى اللسان دنديتو .

وفجأة ، أصبح كل شيء سهلاً ، فانساب كوستال في شعور جديد . انخفضت سولانج عينيها وانقطعت عن الشكوى ، بينما كانت صاحبنا في وضع المتكف المتأمل في احساسه الذي بدا له زهيداً واقل من معتدل .

لم تعطه إلا متعة عقلية ، فقال في نفسه : « قضي الامرا » واكب عليها يلشق وجعها ، كأسد يمزق لحم فريسته ، ويضع عليه قائمته ، ثم يتوقف من حين الى آخر عن تمزيقه ليلحمه .

كان جبينها وانفها رطبين ، يرشحان بقطرات الهية من الندى ، لمسحها بأحدى المحارم التي طرّزتها له اندريه هاكبو . وكان رأس سولانج قد ازالق بين الخدتين مستلقياً الى وراء ، فتجلى جمال العنق الاصلع الطويل ، والنعور المثلث ، والصدر الناعم ، وحجب جمال الوجه .

وكانت نظراتها مفعمة بتعبير يليخ عن المطاء الكلي ، اللامحدود ، حتى انه ارتعد خوفاً ، ومدّ يده الى عينيها فاعمضهما . وكانت شفتاهما منفرجتين ، وقد بدت تحتها اسنانها الصغيرة كاسنان الخروف عندما يفصل الجزار رأسه عن جسده . هناك ثلاث ابتسامات متشابهة : بسمه الميت ، وبسمه المرأة السعيدة ، وبسمه رأس الحيوان النبيح .

حدثت اليها برهة بكل انتباه ، ثم اخذ يحاول تمييزها من سواها ، ليرى ما الذي يجعلها اكثر من جسد انثى ، وشيئاً آخر غير الاداة اللازمة لتمرّن فن المداعبة ، او شيئاً آخر غير مرآة رأى فيها نفسه وهو يتمتع .

استلقى الى جانبها ملتصقاً بها . واحسن بفكرة كئيبة ترفرف في  
روحه ، ثم انطلقت هذه الروح تجول حول كل ما هو غير سولانج .  
انها الفتاة الدهرية التي يقول فيها للرجل قول الانجيل : « ما لي وما لك  
يا امرأة ؟ » انها فتاة الرحمة للنساء .

ولا ريب في ان الغيوم حجبت وجه السماء في هذه الاثناء ، لان  
الغرفة غدت احلك ظلاماً . فتذكر كوستال النساء المراهلات الاعصاب ،  
البيضاوات الاجساد ، النارقات في المعاصي والنزوب ، اللواتي يأخذهن  
الرجل بين ذراعيه ، في ساعة الفسق ، في مكان مرتفع ومشرف على  
المدينة حيث يبدأ تدريجياً اشتعال الانوار ، فتقول المرأة : « هوذا  
ضوء يلتصع ... » ويحتفظ الرجل بها ، رحمة لها ، وهو يرميها  
بأنه يحبها .

وجرت هذه الذكريات ذكريات اخرى الى ذهن كوستال ، فانتشعت  
حياته كلها امام بصيرته انفتاح ريش الطاووس ، فاذا بها ، ماضياً  
ومستقبلاً ، مبهتة بصور وجوه تبقع ريش الطاووس بالدوائر المذهبة ،  
فاشفق على تلك المخلوقة الصغيرة المنطرحة الى جانبه ، ووجهها في حفرة  
كتفه اليسرى حيث غرقت قبلها وجوه كثيرة . فلو كانت هذه الحفرة  
لوحة تصوير لتلتقط صور الوجوه التي تتمكس عليها ، لبدت فيها صورة  
مذهلة مؤلفة من تراكم تلك الوجوه على صفحة واحدة ...

اشفق عليها لانها تجاوزت بحياتها ، وألقت بنفسها بين يديه . ولكنه  
على الرغم من هذه الشفقة احسن انه لن يتردد في لومها وتوبيخها اذا  
جلأت الى اقل حيلة في تصرفها معه ، او اذا اتخذت بعض الاحتياطات  
على سبيل التحفظ .

اشفق عليها لأنه لا يحبها اكثر ، ولم يجد من الاسباب اكثر من التي  
وجدتها لتزداد حرارة حبه لها ... ولانها بالنسبة اليه واحدة بين  
كثيرات ، بينما هو الوحيد بالنسبة اليها ، ثم لانها تعتقد انه يعطيها نفسه ،

بينما هو يعلم انه لا يستطيع اعطاءها هذه النفس .  
وجعل يفكر قائلاً في نفسه :

« بصرف المراء ايام الشباب في حب اشخاص لا يستطيع امتلاكهم إلا  
امتلاكاً ناقصاً ، شيئاً ، لشدة خيجه . وفي سن النضج بصرف ايامه في  
امتلاك اشخاص لا يستطيع ان يحبهم إلا حباً ناقصاً شيئاً ، لانه  
شبع واكتفى » .

كانت إحدى ذراعيه تحت رأس مولانج ، ولكن وجهه وجسده كانا  
متحولين عنها . وكان من حين الى آخر ، يحس ان خيافته لها تزداد  
فسرة عليها في احاطه ، فيمد يده ياحناً عن يدها ، ليشجعها ويقويها ،  
كانها تقرأ ما في نفسه وتحتاج الى التعوث .

وبما انه قال منها كل شيء ، ولم يعد ينتظر مزيداً ، شعر بحاجة الى  
مضاعفة تظاهره بلاعفتها والمطف عليها ليقاوم مجرى الوقت الذي يدفعه  
بسرعة الى يوم محتم ينتهي فيه حبه لها .

استدارت صوبه وقبلكه على خده دون ان تعرفه بكلمة . وعلى الرغم  
بما جرى بينها ، احتفظت قبلاتها بنضارة الطفولة وبراعتها . وقد خرجت  
من ركودها الطويل لتطبع على خده هذه القبلة ، كما ترتفع موجة وحيدة  
لوق بحر هادي . فانتجرت من قلبه صيحة تقول : « من المحتمل ان  
تتمذب بسبي . احبها ، ولكنها لا تملك القدرة على تمذيبي . يجب ان  
اضع حداً لهذه اللعبة ، لهذا التفاوت المقيت الذي لا يضر فيه الا  
الضعيف ! »

وارتفع فيه صوت همس في اذنه : « تقول انك تحبها ، ولا تستطيع  
ان تتمذب بسببها ، وهذا يعني انك لا تحبها » . فرد على ذلك الصوت  
قائلاً : « ما أغرب هذا الاصرار على اعتباري شيئاً بالآخرين ! احبها  
ولا يمكن ان تتمذب بسببها لاني اختلف عن سائر الناس . لست من  
لذين يسهل تمذيبهم » .

واستولت عليه شهوة جامحة الى اعلان الحقيقة . وكانت هذه الشهوة  
يستخدم فيه احيانا قيضا من الانوار او غمرا من التموض ، او هالة من  
المجد او نزوة من الرذيلة ، حتى ان احدى صديقاته سمكتها : « الاستقامة  
الكارثة » . وفي هذه اللحظة المصمة بالاحاسيس احب ان يقول لسولانج :  
« يا صغيرتي الحبيبة ، يا صغيرتي الحبيبة ، من الافضل لك ان انترك :  
لا احبك كفاية ، ولا يد لك ، انت ايضا ، من التخلي عني يوما ما  
لامرأة سواك . وسيأتي يوم لا اعود فيه اذكرك ملامح وجهك . ابي من  
النوع المتشرد بين الرجال . صاحب نساء اخريات ، جدييدات ، وقد  
اكون بدأت احبهن منذ الآن ( لم يكن هذا القول صحيحا ) . وربما لم  
اعد احبك ... ربما اني لم احبك قط ، يا ابنتي الحبيبة ... » ولكنه  
كان يعلم انها كالاخرين ، كمظلم هذا العالم ، تعيش وتتغذى بالكذب  
دون سواه ، وقد تقوت اذا لم يكذب احد عليها . وان الحقيقة مكروهة  
وممنوعة تحت طائلة التأديب البوليسي ، اذا تزهت عارضة كما هو  
معروف عنها <sup>١</sup> .

لزم الصمت ، ولكنه ضغط بشدة على يدها ، وهو يقول في نفسه :  
« ان ما يجب الآن هو ان تكون مسرورة » . اما هي فقد امنت بدس  
وجهها في عنقه ، وارسلت هديلا لا تنصفه اذا شبهناه بهديل الحمامة ،  
لانه كان هديل الحمامة بالذات .

سألها ما معنى هذا الهديل ، فاجابت : « يعني اني على ما يرام ... »  
وكان صوتها بعيدا ، حقيقا ، كأنه آت من ذات اخرى لها ، من  
شبهها وهي طفلة ، وكان هذا الشبح يتكلم من اعماق وجدانها الذي  
وقع فيه .

فتذكر ، عندئذ ، انه عرف نساء لم يبعث فيه مثل هذه الرغبة في  
الفرار ، حين كان يستلقي الى جانبهن ، بعد الوصال ، كما هو مستلق

١ - اشارة الى المثل الفرنسي القائل : « الحقيقة تخرج عارية من القبر » .

الآن . الى بجانب اولئك النساء وفي مثل هذا الوضع ، كان يخاطب نفسه قائلاً : « قد أموت هكذا ، ولا يعني ان أموت الآن » . اما الى بجانب سولانج فلم يتبادر هذا القول الى ذهنه ، ولم يفكر بأنه راغب في الموت .

وعاد يردد : « ان ما يجب الآن هو ان تكون مسرورة » . فرأى ما تنطوي عليه هذه العبارة الصغيرة من المعاني ، وتبين له ان هذه المعاني لا تختلف مطلقاً عما كان يشعر به نحو اشخاص كثيرين ومن مختلف الأنواع . وليس المهم ان نعرف كيف يكون المرء مع الذين يحبهم ، بل مع الآخرين .

ولذا ذكر ايضاً ما انتابه من التأثير العميق لما قرأ كتاب : « الحياة المرحية في الكتيبة » ، ووقعت عينه على اقوال النقيب الهرم « هورلوريه » الذي قال يوم اسير الى التقاعد : « خدمت اربعين سنة في الجيش . وكل ما له قيمة في هذه الخدمة كان نجاسي في منع بعض الجنود من ارتكاب الخبايا ، وانتاذا البعض الآخر من العقوبات ، وجعل حياة الشكنة اقل كآبة واوفر مرحاً وسروراً . فاذا وجد يوماً أناس تذكروا نقيبهم وقالوا : « كان هذا النقيب رجلاً طيباً » ، اكون قد حصلت على افضل جزاء اطلع اليه » .

ما كاد كوستال يقرأ هذه الكلمات حتى رفع رأسه ، واحس انها تفلتت الى اعماق اعماقه ، ثم قال في نفسه : « اني رجل من طراز هورلوريه . لا ريب ان في نفسي اشياء اخرى ، ولكني هورلوريه » .

ورأى بوضوح ما تمنيه عبارته بشأن سولانج ، ورغبته في « ان تكون مسرورة » لان هذه الرغبة لم تكن تختلف عما احس به حيال رجاله في جبهة القتال . فقد كان يسأل نفسه : « أترام مسرورين ؟ أترام يحتاجون الى شيء ابر يشكون من شيء ؟ »

وفي منزله كان اهتمامه يتجه الى الخدم ، فيزعج نفسه ليسمح لهم



بالحصول على اوفر نصيب من المرات والانشراح . وفي المستعمرات ،  
كانت اذا سمع احد الخدم الزوج يسعل وهو قائم ، يهب من فراشه  
ويغطي بهجوماً ليدفقه .

لو عرضنا حياة كوستال على هذا الصعيد لتبين لنا انه كثيراً ما  
كان يرى شريداً مجهولاً ، فيأويه في بيته ، ويحتضيه ، ويتضامن معه  
في ظل هذه الضيافة ؛ وكان يلتقي كثيرين من الرجال والنساء المحتاجين ،  
فيعطيهما اكثر مما يعطيهما سواء في مثل حاله . وكان يعطي دون ان  
يكون مدفوعاً ببداً يدين به ، ودون ان يؤمن بان الخير افضل من  
الشر ؛ كان يعطي دون ان يكون له رأي ثابت في هذا العالم ، لانه ادرك  
عن كثب ان تحديد شؤون الحياة غير ممكن ، وان « الشعب » لا يحرص  
في نطاق ثابت من الاعتبارات ، وان هذا النطاق لا يصلح لظهار حقيقة  
مكان المستعمرات ، ولا حقيقة النساء ، او الفرنسيين . فكل شيء موجود  
في كل شيء ؛ والاخير اشرار ايضاً ، كما ان الاشرار اخيار ؛ واعطى ،  
اخيراً ، دون ان يخامره اقل فكر بان هذا العطاء محسوب له في مكان  
مما من قلوب الرجال والنساء الذين اعطاهم ، والذين نسوه بسرعة ، او  
في اعتبار الرأي العام الذي يجهل اعماله ، او امام الحاكم البشرية التي  
برزع منها الاوغاد مظلهم ، او امام المحكمة السماوية التي لا يؤمن  
بوجودها ، وكل ما يستطيع قوله فيها انها لو وجدت ومثل امامها في  
قصر الاتهام لجاء مئات من الناس يشهدون له . وليس من المعجب ان  
يمثل امام المحكمة لانه لم يبال قط بالقوانين .

وفي تلك اللحظة ، رأى ان سولانج دنديتو واحدة من الجمهور  
الذي تراءى له ، فاشفق عليها لانها لم تكن معه في عزلة عن الآخرين .  
وظل مستلقياً ، لا يفكر بها ، فسألته :

— يمّ تفكر ؟

لان صمته الحالم كان قد اقلعها ، فاجاب :

— بك .

والسبب في ضميره خيط من السام في منتهى الحقة والدقة ، فقال في نفسه : « سأضع ، يوماً ، في أحد مؤلفاتي ، صورة لاسنانها الشبيهة باسنان الحروف الذبيح ا » ولدى تفكيره بأنه « سيستعمل » سولانج ، احسّ بنصه تشد على عنقه كأنه على وشك البكاء . ولكن فكرة مفاجئة ، مرحة ، قفزت من ذهنه كما يقفز الدلفين فوق مياه البحر الهادئ ، فراح يخطب نفسه قائلاً : « ما أكثر ما سمعت الناس يرددون اني ملذب ، وحقى « مجرم » ، لاجبامي عن أخذ فتاة تقدم لي نفسها ا فيا ايها الطبيعة ، ربا ايها المجتمع ، ربا ايها الرأي العام ، أراضون انتم هذه المرة ؟ اراهن على انكم تجدون في تمرني شيئاً من النقص حق في هذه الساعة » .

رسلته هذه الفكرة بقدر ما شجعته على البوح بما في صدره ، على قول ما كان يصعب عليه قوله ، فجلس ، وانحنى على سولانج ، واهبسم لها قائلاً :

— انت خلقتي الآن ، يا صغبرتي دنديتو ! وقد رأيت كيف تجري شؤون الحياة ... وانا مستعد ان اشاري لك صكراً اذا استطعت الانفصال عني .

فقطبت حاجبها قليلاً ، فجعل يمتد بايهامه بجبينها المتجمد بين الحاجبين ، وهو يقول :

قلت : « لا » ، بينما كنت لتعلمين ممى ما فعلنا ، فانقذت شرفك . ولحسن ثمة اشياء مزعجة . أتدوين ما ينبئني المرأة ان تعمل في مثل هذه الحال ؟

ومس في اذنها كلمات لها علاقة بالصيلة . وودّ لو ان الحجرة التي تحتويها اشد طلاماً ، لو انها تحضن حلك القيل كله . وردد مرات عديدة قوله : « ينجلني ان اقول لك بعض الاشياء ... » ولكن الحقيقة ان خجله لم يكن

تاجاً عن هذه الاشياء ، ولا عن اضطراره الى قولها ، لانه كان يعلم انها مفيدة ،  
وان كل مفيد ينطبق على قواعد حسن الاخلاق ... بل نخجل لانه كان  
يردد كثيراً هذه الاقوال في مناسبات شتى .  
واخيراً ، نهضت سولانج دون ان تقوه بكلمة ، وتوارت في العرفة  
المجاورة .

وجلس كوستال في مقعد وثير ، وراح يصفي الى ضجة المساء الجاري  
من مختلف الانابيب والحنفيات في المغسل ، ويقول في نفسه : « ها هي  
تعمل كذا الآن ... ثم تعمل كيت ... » فكأنه كان يرافق حركاتها بلكره  
دون ان يراها ، فاذا بالشبه الكبير بين هذه الدقيقة ومئات الدقائق الاخرى  
التي عرفها في مثل هذا الموقف يفرق نفسه في خضم من الكتابة ، فقال  
مخاطباً نفسه : « هذا شيء جديد ، مدعش ، بالنسبة اليها ... اما  
بالنسبة اليّ فهو عادي عتيق » . ولو انه غم من هذا الوصال متعة  
كبيرة لكانت كآبته اخف وطأة ، ولكن الحصول على المتعة الصغيرة  
يتطلب مزيداً من الجهد . وقد لاحظ ان سولانج لم تنغم من عملها لذّة  
تفوق لذته .

وعادت من المغسل ، فانكأت يديها الى مسندي المقعد الجانبيين ،  
والجحت على كوستال ، بحركة كلها رافعة ، وفيها أغنى معالي  
الارثة ، فاذا بها شخصين تجوّا من الفرق ، واستلقيا جنباً الى جنب  
على رمال الشاطئ ، يتنفسان الصعداء . ووقعت بقوة في اضطرابه حتى  
تقلّص هذا الاضطراب ثم تلاشى ، فانتقل الى مقعد وسيع ، واجلسها الى  
جانبيه ، ثم قال لها :

— اجل ، كل ما جرى مزعج ومؤسف . ومع ذلك فقد أريتك منذ  
قليل تلك المرأة لتدركي مصير الفتاة التي لا تقوم بما يجب عليها القيام به  
في الوقت المناسب . ثقي بان ثمة طريقة واحدة لحب النساء هي :  
الوصال ، وطريقة واحدة لاسعادهن هي : احتضانن . فالبخور بحاجة الى

الحرارة ليتفوّح منه العبير ؛ والنساء يحتجن الى هذه الحرارة لتفوح عطورهن . وكل ما تبقى ، كالصدقة ، والاحترام ، والتجاذب الفكري ، يظل كشبح الوهم اذا خلا من الرصال . والشبح قاص . دائماً ... جميع الاشباح قاسية . اما الحقائق فلستطيع التفاهم معها . ألا تذكرين قول القديس بولس : « الحرص على الجسد هلاك للروح » ؟ اني اعرف عائلات عديدة شقية بسبب « احترام » الرجل لزوجته . يجب ان 'تعامل المرأة كأنها مخلية باستمرار ، وليس مرة واحدة ، في اندفاع حماسي عابر . وليست المشكلة في انت هذا الاستمرار سهل او صعب ، انما هناك اعتبارات اخرى اود اطلعك عليها : لا ريب في انك 'منيت' بخبيسة مرة ، منذ قليل ، في ذلك التواصل الابدلي الذي تم بيننا ، كما منيت' انا ايضاً بالخبيسة . ذلك ان الفتاة الفرنسية تحتاج الى ستة اشهر من المراسلة لتتعلم كيف يجب ان تحب المتعة ؛ اما الفتاة الإيطالية ، او الاسبانية ، فيكفي انت يقبض الرجل على كنفها لتتبار بين ذراعيه ، وتفرق في اللذة العارمة . اما الفرنسية فبطيئة الانطلاق ، يضطر الرجل الى بذل جهود كبيرة ليعطيها قليلاً من اللذة ، وقد اعتدت أن اعانجها ستة اشهر حتى تبلغ النضج المرجى . ربما حصل لك بعض الشر من اخذي لك ، ولكني لو لم آخذك لحصل لك شر آخر لانك تحبينني . ثم انك بلغت الحادية والعشرين من العمر . لا أعني ، طبعاً ، انك في خريف حياتك ، ولكن تذكري ما جرى في المباراة الاخيرة لاختيار ملكة جمال العالم : فقد تم الاتفاق على اعتبار الثانية والعشرين من العمر حداً اقصى لنضج الجمال وتألقه ... تشجعي ، يا حسنائي ، ودعي الوقت يأخذ مجراه ، فسأني يوم تشمرين فيه بشوقي من بعيد ، وتفرينها بحبك . وسلتناشق وننسجم معاً كرفيقين في مباراة ركض طويلة ، فليسير متفاهمين ، متشاركين ، تتخاطب في فترات صمتنا ، فتردين ما أريد ، واريد ما تريد . وعندئذ لا تلتصمين الظلام كلما احتضنتك ، بل تطلبين رضح

النهار لتريني ، وستريني ... ما الذي سيسمفني في شيخوختي ؟ انتاجي  
الادبي ، وذكريات المعادة التي منحتها للنساء في حياتي ... وستكونين  
احدى هذه النساء .

وكانت تلامس شعره برفق ، ثم عقدت يديها على ام رأسه ، والقت  
جبينها على صدره بحركة تعتبر عن الخضوع اللامتناهي ، فلم يعد يرى  
غير شعرها .

وبعد قليل خرجا . رأيا رجلاً عجوزاً جالساً على بنك ، يطعم  
العصافير ، فانحرفت سولانج عن طريقها ، وابتعدت كي لا تنفر العصافير  
المتجمعة حول العجوز . وفي الشوارع ، حول بعض الوجوه المشرقة ،  
كانت تجري الحثالة المعروفة الحاققة ، حثالة الذين لا يحبون ، ولا يجدون  
من يحبهم ، ناهيك بأشكال اخرى من النعامة اشتهر بها الباريسيون .  
واحس كوستال للمرة المائة - دون ان يفقد احساسه شيئاً من جدته  
وفتوته - بلشوة الاعتزاز الملكي لأن يسير الى جانب امرأة تساهي  
يحييها الانتباه ، وتكاد تثير حولها صيحات الاعجاب ، وهو يرافقها  
مرافقة المالك الشرعي لها .

وكانت حتى ذلك الحين تخاطبه بضيعة الجمع التي لا تستعمل إلا بين  
الذين لم ترتفع بينهم الكلفة بعد ، وتجهل انها تمنح كوستال بذلك سروراً  
ممتاً ، لأنها تسمح له بأن يخاطبها بالمثل ، وبأن يلقي على علاقتها الجميلة  
ستاراً من مظاهر الوقار والاحتشام المتبادل ، فيخلق ، الى جانب الحالة  
الحقيقية ، حالة اخرى تناقضها ، ويتلاعب بهذه الازدواجية وهذا التناقض  
على هواه . وقد كان هذا التلاعب طابع شخصيته الخاص .

وفي بعض الاحيان ، كان يضع يده على خصرها ، كأنه يريد التثبت  
من انها الى جانبه . إلا انها ما لبثت ان قابضت ذراعه ، فكانت تلك  
المررة الثانية التي اقدمت فيها على هذه البادرة ، أما المرة الاولى فكانت  
يوم نشب بينها ذلك الخلاف الكبير . وفي كلا المرقين فعلت ما فعلت

بعد ان اسامت اليه وآلته ، فتأثر ، واحس بعطفه عليها يزداد ويتدفق .  
ولكنه ما لبث ان تضايق من تعلقها بذراعه ، لانه منذ أيام شبابه ،  
ومنذ ان خرج للمرة الاولى مع امرأة ، وكان في التاسعة عشرة من العمر ،  
ما برح يرفض بعناد توقيع سيره في الشارع على سير رفيقاته . كان  
يعتبر هذه المسامرة مهزلة تحط من قدر الرجل . لذلك مشى مع سولانج  
مشية مرتجة حوالي خمسين متراً ، وهو يسائل نفسه لماذا يهجر الرجل  
عن السير مستقيماً عندما تكون المرأة التي يحبها وتحبه متأبطة ذراعه !  
أفليس في هذا المعجز رمز عريض المنزى ؟

وكان سولانج شعرت بارتباكها ، فأصلحت خطوها كجندي يسير في  
عرض ، ووقمت مشيتها على مشيته ، فلاحظت دقة انتباهها وارتاح الى  
بأدائها ، ولكنه تضايق اذ خيل اليه ان ثقل سولانج كثقل سلسلة تكبل  
ذراعه . لقد احبت المسكينة ان تتقرب منه ، فتقرقه ، وجعلته يكره  
ان تكون الى جانبه امرأة . واغتم فرصة تعرفه السير ، والمرور بين  
السيارات المزدحمة ، فانفصل عنها برفق دون ان يشمرها بنفوره . ولما  
تحرر منها ، احس بعطفه وحنانه بفيضان عليها من جديد .

وكانت سولانج مدعوة ، ذلك المساء ، الى تناول العشاء عند احدى  
صديقاتها ، فتوجهت مع حكومتال الى بيت هذه الصديقة . وفي اثناء  
الطريق ، مرّا باعلانات كبيرة علقها مكاتب السياحة والسفر ، عليها صور  
لساء ممراوات فائحات لاغراء السياح الفرنسيين ، وصور ماسحي احذية  
صغار جلب السياح الانكليز ، وصور اخرى ، ورموز قتل على هذا  
الاختراع الشيطاني المليء بالمعاكسات ، والمزعجات ، والاشطار ، واضاعة  
الوقت ، وتحطيم الاعصاب ، الذي يسونه : السياحة ، ولا مثيل له إلا  
الحرب ، مع العلم ان المرء في السياحة يبذل امواله ، وفي الحرب يتقاضى  
اجراً عن عمله .

وفي هذا الجو من التفكير خامرت كوستال رغبة في ان يقدم شيئاً

لسولانج ، واحسن انه ينفر من السياحة ولا يروقه دوار البحر حتى ولو كانت الى سبائه . إلا انه احب ان يبذل مبلغاً كبيراً لاجلها ، لأن هذا البذل لم يعد يعني الشراء بعد ان ملته نفسه وكانت له بكليتها . وكان في هذا الشعور ما فيه من الرقة واللفظ حتى في بعض الاعمال الوضيعة التي يقوم فيها المال بدور كبير . وكثيراً ما خيل لكومستال ، حين كان يبذل ماله في مثل هذه الاحوال ، ان الاوراق النقدية تشمل في محفظته كالخضبان الاصيل المتحفّز للانطلاق عندما يرفع امامه الحاجز .

قال لسولانج :

— يا صغيرتي الحارة ، احب تبذير المال في سبيل النساء . هذا جزء من شرف حياتي . وبعد حين ، عندما امسي عجوزاً شقيماً ، لا مورد لي سوى معاش سنوي قدره ثمانمائة فرنك خصصني به جمعية اهل القلم ، وعاليدات التبزع الذي فتحته لاجلي جريدة « الفينارو » ، فسألم بان المال ، الذي اهدقته على من احببت في حياتي ، يتجمع في مكان ما مجمعاً مرثياً ، ملوساً ، فامضي من هذه الدنيا مسرراً بما فعلت ، وعيناي شاخصتان الى هذا الجبل من الذهب — من ذهب اعتبره مستخرجاً من صلي . اقول هذا وليس في نيتي ان اخرج شعورك . فالغاية من هذه المقدمة هي اني متضايق لاني لا اصرف في سبيلك إلا القليل من المال عندما تخرج معاً . اشعر اني مع امرأة شريفة ، وهذا ما يزعجني حتى الايلام ...

ما معنى هذه الفقرة ، او بالحري هذه الوحشة اللثيمة ؟ ألم يتسخط بها ذهنه بعد ان ...

يا للذكور ما أغيبهم ! ان أفضلم لأشدم مكرراً !  
وأكمل حديثه قائلاً :

— ثمة اوراق نقدية ما وجدت الا لتتحول الى سعادة ، وانا خير فيها . ولا اخفي عنك اني احذق الافادة من الحيلة والخليقة . أريدن مرافقتي في سياحة تستغرق شهرين ؟ اقول « شهرين » لأن هذه المدة هي

الوقت اللازم لافناء حب صادق جميل . وقد تطول هذه المدة اكثر من شهرين ، الى ان يرقوي احدهما من رفيقه ويساوره السأم .  
قال : « احدهما » على سبيل التورية ، وهو يعلم انه سيكون البادىء بالقطيعة .  
واستأنف حديثه قائلاً :

• نذهب الى حيث تشائين . الى ايران . الى مصر . او الى ترنسلفانيا .  
او الى بنسلفانيا . او الى جبل ارارط . لا اقول لك كلمات خالية من المعنى للتسلية . ما عليك إلا ان تفهمي بكلمة ، باسم بلد ما ، وهيتا بنا . في حياتي وفي فني استطيع كل شيء . الصوبة عندي هي ان اشتهي شيئاً . وما اني قد اشتريت هذا الشيء . وانا على ما يرام ، لاني احب شهواتي . يخيل اليّ ان الله اعطاك اهلاً يريدون سعادتك قبل كل شيء . وستعودين من رحلتنا مزودة بشهرين من السعادة . وبهذه السعادة تضعين يدك بقوة على المستقبل ، اذ تصبحين افضل حالاً للزواج . لست عذراء ، على الرغم من اني اصر على ان ادعوك « فتاة » ؛ فالاجتهاد في التسمية من حقوق الكتّاب الكبار . ولا استطيع ان استعمل كلمة : « امرأة » ، إلا اذا كنتُ مكرهاً ، لاني احب الشباب . وكلمة « امرأة » تبدو لي قديمة ، نابية . لست عذراء ، ولكني اعرف الرجال ... لبقليل من الحنكة والذكاء تستطيعين اقناع زوجك بانك مثال الطهارة والنقاء . واذا عرف الحقيقة ، فلن يفوه بكلمة احتجاج ، فلسنا شعباً ممجياً في فرنسا ! فإما ان يملك سيدة فلا يبقى لك مجال للتندم ، وهذا ما اسمح لنفسى بان ارجوه لك ؛ او تصبحين شقية معه ، وفي هذه الحال لا اكون بمبدأ عنك ، فنطلقك منه ، اذا دعت الحاجة ، ونودعه معاً الى جبل ارارط . وامر هذه الرحلة مأروك لك ، فان شئت جملناه سرياً ، وان شئت أعلنناه للجميع . واذا أعلنه فسيكون لك مبعث مجد وفخار . انك لا تهتمين مطلقاً بأعجاذك ، فلا بد من ان اقوم عنك بهذه المهمة . ولكن في وسعنا ان نخطط سفرنا بالكتان ، فقد تمت بعشر



رحلات عسل في حياتي ، فاعرف احدٌ عنها شيئاً . وافضل الذهاب الى المنفى والقيام بالاشغال للشاقة مدى الحياة ، على ان افشي بسر امرأة احببتها . واعطي اخيراً اني اقترح عليك مشروعاً لا يمكن رفضه ، ولا نجد بين الذرائع الخلقية والاجتماعية وغيرها ما يحظر علينا تنفيذه . لا ريب في اننا سنلتقي باناس منخفاء يقولون لي : « انت ، يا رجل ، مخلوق سافل قدر . » إلا اني ساجيبهم : « لست مخلوقاً قدرأ . اني روح ترفرف في الهواء . والحقيقة الساطعة اني لست من جبلتكم وطبيعتكم ، الخ ... » واعطي ايضاً ان على من يريد ادخال السرور الى قلب شخص ما ان لا ينظر بمبدأ ، وان لا يهتم بالعواقب والذلول . اذا اراد المرء ان 'يسر' احداً ، فكأنه يضع مؤلفاً ادبياً ، ومن واجبه ان يعمل عمله دون ان يبالي باحد ، لانه اذا فكّر كثيراً بما يعمل فقد يحجم عن العمل ... وشرد برهة في تفكيره ، وهو يحلم بان يرى ممها جال العالم ، وان يكشف لها عن هذا الجمال ، وان يصبح وحدةً متمسكة ممها ومع هذا الجمال . ثم تفكك حلمه ، وخفق قلبه ، وسار على طريق جديدة . ولذاكر انه احب يوماً ان يقوم بهذه الرحلة ، ولكنه اراد السفر وحده . ولم يكن بين البلدان الجميلة التي راودت خياله بلد لم يره مرتين : مرة وحده ، ومرة مع امرأة محبوبة . وكلما اراد ان يبعث في نفسه صور هذه البلدان ليخدم بها فنه في الكتابة تراءت له المشاهد التي كانت فيها وحده ، ووجد فيها ما لتوق اليه نفسه من القوة ، والشمر ، والفعالية .

لا يستطيع الرجل ان يكون وحيداً بكل معنى الكلمة اذا كانت الى جانبه امرأة . هذه شريعة عظيمة خالدة . واذا كان الله قد قال : « الويل للرجل الوحيد ! » فلأنه يخشى الرجل الوحيد . وقد جعله « زوجاً » ليضعفه ويحمه تحت رحمته .

ولكن كوستال نفى من ذهنه التفكير بالانفراد والعزلة ، وهو يقول

في نفسه : « منها يكن من الأمر فكل ما قد عمله بولانج سيكون لاجلها . وليس قليلا ان يُسعد المرء مخلوقة جديدة بالسعادة ... »

وجرّها الى تحت قنطرة باب كبير حيث وقف ينظر الى وجهها باهتمام باحثا فيه عن المكان الافضل لطبع عليه قبة ، ثم لثم احدى عينيها بلطف وخشوع ، وأبقى شفتيه طويلا ملتصقتين يحفظها .

وعندما تمّ بالافتراق قال لها :

.. أتدري اني سأضع في احد كتبي صورة جاءني منك ، من اسنانك ؟ سأشبهها بأسنان بخروف ذبيح .  
.. يا للظاعة !

.. هذه هي الحقيقة ، ولا بد من قولها . ولكن ألا يعجبك ان « استملك » في مؤلفاتي ؟

.. لا ، بل يسرني ان اكون مفيدة لمؤلفائك .

.. هذا قول حسن ... ولست الاولى في قوله ... اجل ، انه قول حسن ... وهكذا استطيع ان احبك اكثر بما احبك الآن .

والتي عليها نظرة تشع بالمطف ، فالتحذت ملاعبها طابع جدّ بليغ التعبير ، فبدت اقل حسنا مما كانت . وفكر كوستال بأنه اذا استمر على هذا الخيال الى نهاية المطاف ، واذا اقترن بها اخيرا ، فلن يكون افتراقه إلا رحمة لها . فساوره الخوف من الرحمة .

ولما عاد الى غدعه وطلق يرقب سريره ، رأى على الشرفف بعينين مستعيطتين من الدم . ففكر بان هذا الشرفف سيوصل الى الغسالة لينظف . ولو انه ثلوث هكذا منذ خمس عشرة سنة ، لاحتفظ به كما هو لذكرا للمحادث الجلل .

واعتلجت في صدره غصة موجعة ، اذ تبادر الى ذهنه انه لا يعطي بولانج بقدر ما تستحق . ولكي يموتش عليها ، استلقى على السرير ، ثم رفع الشرفف الملوث ، ووضع دمها على قلبه ، وغرق في النوم وهو

بشعر بانه في حاية ما يكن لها من المودة .  
 وفي الايام التالية ، انتظر اشارة من اندريه فنبشه بانها ما تزال في  
 قيد الحياة : رسالة ، او برقية ، او زيارة ... وجند البوابين ، والخدم ،  
 وجميع الذين يلقون به ليقطعوا عليها طريق بيته ، فكان في حذره  
 سخيلاً مضحكاً ...  
 اوامه ا ليه يستطيع نقيها الى جزيرة الكلاب ، بالقرب من  
 القسطنطينية ، او الى بلد بعيد من هذا النوع !  
 إلا انه لم يتلق من اخبارها شيئاً .  
 اوامه انتحرت ؟  
 ما كادت هذه الفكرة تخطر في باله حتى اسبغت عليه ارقياً عيلاً .



من العادات المستهجنة ، لدى جميع الفتيات تقريباً ، رغبتهن في تعريف  
ذويهن الى الرجل الذي يحببته ، حتى ولو كان ذووهن بلاء ، كافين ،  
ينفثرون منهن هذا الرجل الحبيب . وعلى هذا فقد كان لا بد من دعوة  
كوسثال الى تناول الغداء في بيت دنديتو .

وكان ظهور العائلة امامه يثير في نفسه ثلاث عواطف : الخوف  
من الـ « هيبوغريف » المهدد ، فيقول في نفسه : « ها هم يباضرون الحصار » ،  
والشعور بالسخافة ، لان فكرة السخافة مقارنة في ذهنه بفكرة العائلة ،  
والنفور الشديد ، لانه لا يستطيع إلا ان يكره الامل ، ما دام من المحتمل  
ان يصبحوا يوماً اعداءه .

وقد اجتمعت هذه العواطف الثلاث في نفسه حيال دعوته الى بيت  
دنديتو ، فساوره مزيج من الاحتياج والفيظ ، فيه شعور بالمجازفة ، وبالتجربة  
التي لا بد من بذل الجهد لاجتيازها .

وكانت سولانج قد ارادت تشويقه وتحمريك رغبته بقولها له : « سارى  
ابن اهل لطفاء ، جذابون » ، فراح يفكر قائلاً في نفسه : « جذابون  
باللسبة الى من ؟ باللسبة اليها ؟ هذا امر لا يهمني . باللسبة الى ؟ ما  
يدريها ؟ »

وتذكر اولئك الناس الذين يكتبون على بطاقات دعواتهم انواع الطعام  
التي يقدمونها في حفلاتهم ، ليشتجعوا المدعوين على تلبية الدعوة : « شاي ،  
بورتو ... »

يا لتعذيب الاربوبيين ما اغلظه اذا قيس بتعذيب المتوحشين : كالصليبين ،

الخ ...

وما كاد كوستال يرى السيدة دنديتو حق بدت له بقامتها كأنها حصان ، وبقيافتها من رجال الدرك . كانت اطول من زوجها ومن كوستال بمقدار الرأس ، فهاه الكاتب ان يرى فيها صورة كاريكاتورية لابنتها : الانف ذاته ، إلا انه مشوه ؛ والشفتان نفسها ، إلا انها كالحلتان لا لون لهما ؛ النظرة ذاتها ، إلا انها مثقلة بعصب السنين . واذا لم يكن هذا المشهد مريعاً ، لانه من الامور الطبيعية ، فكان بالغ التأثير ، على كل حال .

وجعل كوستال يخاطب نفسه قائلاً : « في الحسین من العمر ، ستصبح خليلتي في هذه البشاعة . وبعد خمس عشرة سنة ، ستكون كتلة ضخمة من الشحم واللحم . هذا انذار من السماء : لا يجوز لنا ان نضيع دقيقة واحدة من حياتنا » .

وتألم في احماق نفسه اذ درى ان السيدة دنديتو على علم بالعلاقة القائمة بينه وبين سولانج ، وانها قد تكون املتت على ابنتها ما يجب عمله في بعض المناسبات . وكان تفكيره بان سولانج لا تستطيع الكذب يرهقه كيوم شديد القیظ .

اما السيد دنديتو فكان ، بخلاف زوجته ، وسيماً ، وفي وسامته نبل ، حق ان من يراه لا يحسبه فرنسياً . وكان حليق الوجه ، يكسو رأسه شعر كثيف كشم للشبان ، ولكن الشيب يتض اكثره ، فبدا وكأنه طبيب حنون ، كاولئك الاطباء الذين ترى صورهم في اعلانات العقاقير . وكانت ابتسامته مشرقة جذابة ، تكشف عن اسنان سليمة ناصعة البياض . إلا ان جميع فساتين وجهه كانت متوترة من شدة الألم ، تسدل بوضوح على دمنة مرض عضال . ولما جلس الجميع الى مائدة الطعام ، لم يفقه السيد دنديتو إلا بكلمات قليلة على سبيل المجاملة .

لا شيء يلبيه بحقيقة المرء كنزله . هذا ما يردده للناس في اغلب

الاحيان . وكان منزل اسرة دنديتو يدل على فقدان الذوق الفني في ترتيبه ، على الرغم من وجود هذه الاسرة في محيط اجتماعي راق ، وفي باريس . فكانت هناك اشياء جميلة جداً الى بجانب قذارات وخيصة تدل على الادعاء والفرد . ولم يكن لأحد عذر في عرض هذه القشور ، لانها كانت معروضة على سبيل التبرج والمباهاة .

لو رضي رجل اعزب بمثل هذا البيت ، لكثرة اشغاله ، او لعدم مبالاته بالمظاهر الخارجية ، لوجد له كوستال عذراً . اما ان ترضى به اسرة محافظة ، وفيها فتاة كسولانج ، وان تصبهم هذه الفتاة عن اجبار ذويها على جعل منزلهم لائقاً ، وان تحمل هذا الاثاث الذي يؤدي العين ، فأمر لا يطاق . . . وقد اعتبره كوستال كافياً لادانة سولانج . فلا ريب ان فيها شيئاً من اللابح يرتفع الى الإقامة بين ما يحيط بها من سقط المتاع . وهذا له الامر في غاية الخطورة لانها لم تتردد في اطلاقه على هذه الاشياء ، ولم تلحظ بالصدمة التي تسببها له ، ولا بما قد يستتجضضها من هذه الصدمة .

وبدأت السيدة دنديتو تتحدث عن ابنتها كأنها تعرض بضاعة للبيع ، فقالت ان سولانج لم تصب قط بمرض ، وانها لا تحب العطور ، ولا الحلي . ولما اجابها كوستال بأنه لا يحب هذه الاشياء ، قالت بدلال واضح المدى : « هذه نقطة تشابه جديدة بينكما » . وقال كوستال في نفسه : « يا للعصية !... انها تعتبرنا خطيين منذ الآن » .

وتحدثت السيدة دنديتو عن زوجها كي لا يظن كوستال انها تزوجت بجنة ، فقالت انه مؤسس الحركة الرياضية في فرنسا ، وانه تولى ادارة الجمعيات الرياضية ، وشجع الفتيان على الاهتمام بالحياة الرياضية ، وكان « رجل عمل » . فكبت كوستال نفسه ، وبلغ ما كان يريد قوله من ان هذا العمل ضرب من الجرب يسبب الحكمة لا اكثر ولا اقل ، وان العمل الوحيد الجدير بهذا الاسم هو العمل الداخلي ؛ وان كل

رجل عمل يستطيع تبرير عمله اذا جودل فيه ، لان الدفاع عن العمل مستحيل ، النخ ...

وكانت سولانج مطرقة تنظر الى صفتها ، ولا تقوه بكلمة ، فقد تضايقت الى اقصى حد لوجود كوستال بين زوجها ، فتصلب وجهها ، وبدت خبيثة وشريرة .

فيا ليتها الحياة المائلية ، هذه احدي ضرباتك ! انك تشومين ملاك اللطف والدمائة باعطائه ربحه امرأة شريرة ماسكرة . نحن يرى سولانج للمرة الاولى كما كانت في تلك اللحظة لا يستطيع إلا ان يقول في نفسه : « انها خلاصة الحب ، فالخذر الخذر ! »

وفل كوستال والسيدة دنديو يتعدنان عن لا شيء ساعة كاملة . فكانت السيدة دنديو تريد ، بعد فترة مناسبة من الوقت ، ما سبق ان قاله كوستال ، كي لا تقول حماقات ، ولتكون واثقة من ان حديثها يعجب . فاذا قال لدى تناول المقبلات على المائدة : « ان مزاوله الصحافة لا تمنع الكاتب الحقيقي من مواصلة عمله الادبي » ، أعلنت لدى تناول القهوة ، بلهجة واثقة كأنها تريد اقناع كوستال بصدق ما تقول : « لا شيء يمنع الكاتب من وضع المؤلفات الادبية والكتابة في الصحف » . وكان كوستال يحس انه في موقف زري يزداد سخفاً وانحطاطاً ، لان وجوده في ذلك البيت بصفة « خطيب مكن » ، كان يبدو له شائناً يحط من قدره ا

خطيب ! « صهر » ا على الرغم من جميع الجهود التي بذلها لم يستطيع ان ينفذ عنه الشعور بهذا القدر .

وراح ينظر الى السيدة دنديو وزوجها ، ويحتقرهما لفة حرصهما على ابلتها قائلاً في نفسه : « سواء أكان تصرفها ناجماً عن غرور ، ام عن مناورة ، ام عن جهل ، فالنتيجة واحدة : تركا سولانج تخرج مع رجل مثلي . ويصعب عليّ التكليم بأنها لا يعلمان اني اضلجعهما . ربما كانا يظنان اني سافرون بها ، ولكنهما لا يعلمان شيئاً مما يحول في خاطري . ما

ووجدت سولانج إلا لتكون فتاة حقيقية ، فقد كانت فيها نواة فتاة حقيقية ،  
فما دافعا عنها ضد نفسها ، قنبا لها من قدرين إلا دين لها ، ولا تقاليد ،  
ولا ثقافة ، ولا كرامة ، ولا درع تقيها صروف الحداث . ان مهمي هي  
الهجوم ، وعلى المجتمع ان يدافع عن نفسه ! ولكن الواقع اني كلما  
حاولت الاستيلاء على الاجساد ، او اشاعة الاضطراب في العقول والنفس ،  
لا اجد اقل مقاومة ، لا اجد إلا جبهة طرية . اني ألعب لعبتي ،  
والناس يتقاعسون عن لعب لعبتهم .

ومنذ ذلك الحين ، بدأ يفرض انه قد يستدرج بطريقة ما الى الاقتران  
بسولانج ، وبدأت فكرة تفرجه الى ابوها الخالين من الذوق تعمل في  
نفسه ضد مشروع الزواج .

ولا بد من الملاحظة ، في هذه المناسبة ، ان ارضاء كوستال امر عسير ،  
فلو كان دنديتو وزوجته مهذبين ، حريصين على التمسك باصول الآداب ،  
ولو لم يسمحا لابلتها بالخروج معه وحدها ، لنقم عليها وعليها ،  
ولأنهم جميعا بكل فريته ، ولصرف الفتاة عنه قائلا : « لا اعرف شيئا  
في العالم اقبح من للصون والحشمة » .

واذا به يدين بمنطق عجيب فيحتقرهما اذا كانا مهذبين ، ويحتقرهما  
اذا كانا قليلي التهذيب ، فيجعل من احتقاره نكاشة يقبض بفكيها عليها كما  
يقبض على سولانج . واصبح في وسعه ان يطبق عليها كاشته هذه ساعة  
يشاء ، ساعة يزول حب الفتاة من نفسه . فقد اصبحت الآلة التي أعدها  
على اتم الاستعداد للعمل .

وبعد الغداء وصل اناس في زيارة تقليدية ، فاستقبلتهم السيدة دنديو  
وسولانج في ردهة الاستقبال ، ودعا السيد دنديو كوستال الى مكتبه .  
وشرع كوستال يفكر بما قد يدور من حديث بينه وبين مضيله ،  
فقال في نفسه : « اذا قال لي : اني اضح مصير سولانج بين يديك » ،  
( واحس بنصته من التأثير المبيت والعطف تقبض على عنقه ) فساجبيه :



« انها ستكون لي بمثابة اخي الصغيرة » . وهذه عبارة سهلة ، لا تنطوي على اقل وعد . فخليقي ، بالنسبة الي " ، لا تختلف عن الاخت الصغيرة .

ولما وصل السيد دنديو الى مكتبه ، ارتقى على مقعد واطىء عميق ، فبدأ صغيراً كذبابية تنطوي على نفسها اذ تقوت . وارتسمت صورة ساقيه المزيكتين تحت البنطلون كأنها ساقا هيكل عظمي . ولا نصيف المكتب لأننا نعلم ان القراء يقفزون من فوق الوصف حين يطالعون رواية .

وافتح السيد دنديو الحديث قائلاً :

— يا سيد كوستال ، لست كالصورة التي رسمتها عني في ذهنك . اذا كنت قد لزمت اللصت على المائدة ، فلأني اتناول طعامي كل يوم مع السيدة دنديو منذ احدى وثلاثين سنة ، فلم يبق ما يقوله احداً للآخر . اجل ، فقدت عادة الكلام ، او بالحري تمودت مخاطبة نفسي وانا الوحيد في غرفتي . اما انت فقد احببت ان اخاطبك على انفراد ، لاني اود ان اتحدث اليك جدياً . ولكنني اجد فيك ناعية غامضة تحملني على التردد ، واشتهي ان افرح جميعي قبل ان اتحدث عن نفسي ، أفأسمح لي بان اكلمك بصراحة مطلقة ؟

اجاب كوستال :

— حاول ، ولا حرج عليك ، فسنرى ما سيكون .

واحس كوستال بانفاس الادهيبوغريف ، تعصف بنفسته .

فقال السيد دنديو مبتسماً ، ومتظاهراً بأنه يحسب كوستال مازحاً :

— هيا بنا ، اذ لا سبيل الى التردد ، فن يكتب مثل هذا الكتاب

الضخم ( وأشار الى احد مؤلفات كوستال على الطاولة المجاورة ) جدير

بان نكون منه صريحين الى اقصى حدود الصراحة . اذا ، اليك ما اريد

قوله : لماذا تحمل هذه ؟

ردك باصبعه على الشاة الحمراء في عروة كوستال اليسرى .  
فاجاب كوستال :

... لا احب الشذوذ عن المؤلف . فلو رفضت هذا الرسام ...  
وكان ينوي ان يكمل جوابه قائلاً : « ... لكان قصري على مذهب :  
مخالف معرف » ، ولكنه توقف مدركاً انه قد يرتكب هفوة .  
فقال دندو :

... حسناً ، وما عليك لو رفضت ؟ اود ان اطلعك على شيء .  
رئيس والد سولانج ، فتناول ملفاً من احدى الخزانات ، وانتزع منه  
قصاصة جريدة قدمها الى كوستال ، فاذا هي تحتوي خبراً منشوراً في  
جريدة « اسرار مدينة رت ... » بتاريخ تموز ١٩٢٣ ، تحت عنوان :  
« مواطننا شارل دندو رفض رسام جوقة الشرف » . وقد نشرت  
الجريدة نص الرسالة التي وجهها دندو الى الوزير صاحب العلاقة ،  
وهو التالي :

سيدي الوزير ا

هلمت انك تنوي اقتراح منعمي رسام جوقة الشرف ، فاعلم اني كرسيت  
حياتي للشبيبة الفرنسية بمبدأ عن اخواء الشهرة ، ولم افعل ما فعلت  
للحصول على مكافأة لا بد لي من اقتسامها مع ايّ كان .  
ثم اني بلغت السابعة والخمسين من العمر . فاصح لي ، يا سيدي الوزير ،  
بالاعراب عن امنية : هل الحكومة ، في المستقبل ، ان تعتمد على معبرين  
أكفاء ، عندما يكون الامر متعلقاً بمعرفة الاشخاص الذين عملوا شيئاً  
لخدمة الوطن .

وتفضل ، يا سيدي الوزير ، الخ ...

لم يجد كوستال في هذه الرسالة إلا نقمة رجل يعتبر عن خيبرته لانه  
لم يمنح الرسام وهو في الثلاثين من العمر ، فقال في نفسه : « لا بأس  
بهذه الرسالة من حيث كونها شكراً بارعاً موجهاً الى وزير غافرة فكرة

القيام بإدارة لطيفة . اما وان السيد دنديتو اعطى رسالته للنشر في  
جريدة « احرار ن ... » فالمسألة فيها نظر ...

وتحدث السيد دنديتو بعدئذ ، فالقى محاضرة في « اللغة » . وكان  
كوستال يعرف هذه المحاضرة ، ويلقيها على الناس في بعض المناسبات .  
اما رأيه الحقيقي في شارات الشرف فكان شيباً برأى « ابيكتيت »<sup>١</sup>  
القائل ان هذه الشارات « اشياء لا يبالى بها » . ولكن الرسالة المنشورة  
في « احرار ن ... » تدل دلالة واضحة على ان السيد دنديتو يقيم وزناً  
كبيراً لهذه الاعتبارات الشرفية .

وبينما كان دنديتو يبحث في احد ملفاته ، القى كوستال على كتابه  
نظرة مؤلف : فالكتاب يرمقون اسماء المطبوعة على مؤلفاتهم كما ترمى  
المرأة النساء الجيلات ، او اللواتي يحسبن نفوسهن جيلات ، فرأى ان  
ذلك « الكتاب الضخم » لم يفتح منه الا حوالى عشر صفحات . والحق  
يقال ان قراءة عشر صفحات فقط تكفي لمعرفة الكاتب ، ولتكوين  
فكرة عن مستواه الادبي .

ولما فرغ السيد دنديتو من محاضراته في « اللغة » سأل كوستال قائلاً :  
-- ألم تخبرك سولانج بالي مريض ولا امل لي بالشفاء ؟ ليس من  
الثابت ان الأمل مقطوع ، لكنني اعتقد ان لا سبيل الى الرجاء .  
-- لم تقل لي الآنسة دندو شيئاً في هذا الموضوع .

-- ساموت بعد شهر . والموت نهاية الاوهام ا  
-- اما انا فارى ان الموت نهاية الحقائق .  
-- ولكنك نهاية الاوهام بالنسبة الي . ساموت في الحادية والستين من  
العمر . وهذا اخفاق فريع بالنظر الى رجس مثلي ، عاش منذ ثلاثين

---

١ - فيلسوف رواقى عاش في القرن الاول لليلاد . اقام في روما وكان عبداً رقيقاً  
ملكه عبد حوره نيرون يدعى إبيكتوديت . جمعت احاديثه الفلسفية في كتاب  
عزائه : « كتاب ابيكتيت » .

سنة على بعض مبادئ الحياة الطبيعية التي كان من المنتظر ان تضمن له عمراً طويلاً . ان الحادية والستين هي العمر الذي يموت فيه الجميع . ولكن تصور الجهود التي بذلتها : منذ اكثر من ثلاثين سنة وانا انا في غرفة مفتوحة للنوافذ ، لا اتناول شرباً كعولياً ، ولا ادخن ؛ منذ اكثر من ثلاثين سنة لم تلامس وجهي او جسمي قطرة واحدة من الماء الساخن او الفساتر ، حتى لو كنت متوجعاً ؛ منذ اكثر من ثلاثين سنة ، وانا انهض من النوم كل يوم في الساعة السادسة صباحاً ، وامارس الرياضة البدنية طارياً ؛ ومنذ سنة واحدة ، كنت انصب خيمتي في الجبل ، وامشي مسافة اربعين كيلومتراً كل يوم ، وكيسي على ظهري ، كالشباب ، ورأسي مكشوف للشمس او للطر . واذا كان وجهي متوجعاً الآن ، فان جسمي كان منذ شهر واحد كجسم رجل في ريعان الشباب . وحتى في هذه الساعة ، لا تحسبني أكرش ...

قالها مشيراً الى بطنه ، ثم استطرده :

— الي اشد خصري بزار قطني يندر كأنه كرش . فقامني رقيقة ، هيداء ، والخلاصة ان حياتي كانت «طبيعية» . واعتقد انك تزن كلمة «طبيعية» بدقة ، وتفدرها حتى قدرها ... بذلت هذا الجهد كله لأموت في الحادية والستين ، اي على عتبة الشيخوخة . وحين الفكر بان هناك اناس يعيشون في الرخاء ، والاستهتار ، والانفاس في الملذات ، ويتجاوزون السبعين والثمانين ، ارى الي بذلت جهودي جزافاً ، واني سُخِعت فكننت خاسراً .

ورأى كوستال ان دندبر على حق ، وان اثمابه ذهبت سدى ، فتذكر قول الكتاب المقدس : « ما دعت سائتي الى مصير الجاهل ، فلماذا كنت حكيماً ؟ » ثم قال :

— المهم ان تعلم أصعباً عليك كلن امتناعك عن الخمر والتدخين

وغيرهما ؟

بلى ، كان صعباً عليّ في اغلب الاحيان ، ولا سيما التهور من الفراش في الساعة السابعة صباحاً . ولكنني كنت اريد ان اقهر نفسي . لو اني كافحت في سبيل رغبتي ورغيف ولديّ لقلت في نفسي : لم ينسب تعمي سدى . ولكنني عشت من عائدات املاكي ، ولم اكفح إلا ضد نفسي ، فكان كفاحي ضرباً من البذخ . وها انا اقول في نفسي اليوم : « اتعبت نفسي للاشيء » . واعلم ، يا سيد كوستال ، انه ليس من الواجب ان يكون المرء شجاعاً في الحياة ، فلا فائدة من الشجاعة . اما انا فاضطر الى المثابرة . يجب ان اتابع طريقي حتى النهاية .

وبحركة من رأسه ردة خصة من شعره قدالت على جبينه ، فكانت حركته شبيهة بحركات الاولاد الطوال الشعر .  
قال كوستال :

- ولم تصرّ على مواصلة الطريق حتى النهاية ؟  
- أتريدني ان اكرر بثلي أعلى آمنت به الثلثين وثلثين سنة ؟ وان افرض على نفسي هذا التكذيب القاسي لكل ما كنت اعتقد به ؟ اعرف اناساً قد يسخرون مني بطيبة خاطر ، اعني بلوم للشامة . فقد جعلت الذين عرفوني عن كذب يكوّنون هي فكرة معينة ، كاني نوع خاص من الرجال . وعليّ ان احافظ على هذه الفكرة في افهامهم الى النهاية ، ولو كنت مخطئاً . وها انا امامك الآن ، وقد انطفات عيناوي ، وانطلقاً قلبي ، وانطفات روحي . واعلم حق العلم ان جرعة من الشمبانيا تتمشي ، وتعيد اليّ شيئاً من الحيوية والنشاط . ولكن كيف يجوز لي ان اطلب هذه الجرعة ؟ لو فعلت لكنت كن يهدم في لحظة ما بناء طيلة حياته . لا ، لن اغترّ من المبدان .

قال كوستال في نفسه : ما لغرب هذا الانحراف العقلي ! مكثدا يصبح المرء « رجلاً اكلوية » وهو يحسب نفسه « نقياً » .  
واستطرد هتيتو قائلاً :

- ساموت قريباً . واذا لمحت الى مصيري لتبيحاً ، زعموا اني خائف  
اسب التحويل ، ولكن صمتاً ...

وسمعت حركة في الغرفة المجاورة ، ثم قال فنديتو بصوت خافت :  
( انت الجدران آذاناً ) . وكانت ملاحه كلامه ولد قبض عليه وهو  
يرتكب خطيئة . ولما زالت الضجة ، استأنف حديثه قائلاً :

- اجل ، ساموت قريباً ، ويجب عليّ ان امزح ! يجب ان انظر  
باني لا اعلم الحقيقة ، ولا ارى شبح الموت ، لتستطيع عائلتي ان ترح  
خاية الذهن من القلق . وعندما أشرف على الاحتضار ، يجب ان اقول كلمة  
تشرّفني ليردها الأهل مفاهيم بها الناس . وانت ما رأيك ؟ أهول  
كلمة تاريخية متى رأيت نفسك على فراش الاحتضار ؟

- اعطى الأمل بالمحافظة على وضع لائق ، ساعة احتضاري ، اهني  
الي سأحذر التفوّه بكلمات تاريخية . واذا اضطررت الى قول شيء ، فاعتقد  
اني سألتبس الصلح من القراء لاني لم اعتبر عما في نفسي تعبيراً افضل  
بما فعلت ...

- انت رجل عمومي ، تكتب للجميع ويهتم بك الجميع . وحالك يختلف  
عن حالي . فانا كنت اعتقد ان لي ملء الحق في ان اضع حداً لهذه المهزلة  
المستمرة منذ ثلاثين سنة ، وان لي ملء الحق في ان اعيش ثلاثة اسابيع  
من الصديق والصراحة قبل ان اغادر هذا العالم . ولكن لا ! فالمعكس  
هو الواقع ، والمهزلة مستمرة . انها الآت في بدايتها . امس ، جاءني  
الطبيب ، وكان عليه ان يجري لي عملية مؤلمة ، فرحت انحرق فوقاً الى  
التوجع والشكوى ، لا شيء إلا ليطلبوا الي ان التذبح واقارم آلامي ،  
فيلسن لي ان اصبح بهم : « المقاومة ؟ علام المقاومة ؟ اذا كان لي الآن  
رمق من النشاط ، لاني بذلت نشاطي ، في ما مضى ، دون حساب ، أفيجب  
عليّ ان اهرق هذا الرمح اكراماً لميونكم الفاتنة ؟ أيجب ان تمشي جنني  
مشية موفعة ، كأنها جندي في عرض ، وان تدير صابرة على ما تعاني

من الآلام ، لتكونوا مسرورين ، وكيلا تحمقوني ؟ إيه ! احتمقوني ما طاب لكم ! فما حمقي احتقاركم في المكان الذي انا ذاهب اليه ؟ ، هذا ما كنت اود ان اصبح به . ولكن عوضاً عن تحقيق هذه الرغبة تمثلت بالتصلب الروماني ، وتظاهرت بأني رجل من البروتز ، فما اشرت الى اني اعرف حقيقة ذاتي ، ولو اشارة مبهمه ، عابرة ، ولا شكوت ، ولا ترجعت . وبينما كانوا يحبون بي ( اقول هذا على سبيل الافتراض ) كنت احتمق نفسي لقيامي بتمثيل هذا الدور السخيف ، المضحك ، من مظاهر البطولة .

- انت اذاً تكذب على نفسك . واطغر ما في الامر انك تكذب لمسايرة آراء الناس .

- آراء الناس ! لو قدّرت الامثلة التي اعطيتها لكان الامر ، ولكني رجل غريب الاطوار في نظر اكثريه الذين اعرفهم ، فهم يتحدثون عني متندرين فيقولون : « ان دنديتو لا يأكل معلبات لأنها ليست طعاماً طبيعياً ... اذا رأيت دنديتو فالزع الرشاح عن رقبتك لئلا يلقي عليك محاضرة . أتدري ؟ انه يحطم الجليد على وجه الماء ليختل في ايام الشتاء » . ان زوجتي تهزأ بي علانية . وتتظاهر سولانج بالقاء نظرة جدّة على آرائي ، ولكنني اعلم انها تسأيري لطفاً منها . وكان ابني يعمل عمداً كل ما يناقض مبادئ ليضايقني . اذاً ، فنتيجة حياتي سلبية في جميع مراحلها . ولم يقتصر اخفاقي على اني قدمت قدوة لم تكن لها قيمة القدوة ، بل من المحتمل ان تكون القدوة التي قدمتها غير جديرة بان 'تحتذى' . وكان من الممكن ان تكون الحال غير ما هي الآن ، لو كانت لي مؤلفات مثل مؤلفاتك ... آه ! هنيئاً لك ، انك مرطح !

قال كوستال في نفسه : « سيمتد للناس ان السيد دنديتو مات بداء السرطان . وربما كانت الحقيقة انه مات بداء آخر هو : انه لم ينل التقدير الذي كان يستبهره حقاً له . فكما تحتاج المصابيح الى بطول ، يحتاج الرجال

الى تغذية نفوسهم بكمية معينة من اصحاب الناس بهم . واذا لم يجدوا من  
يمجب بهم كفاية لاقوا حتفهم . والوسيلة الوحيدة التي كانت صالحة لتهدئة  
آلام السيد دنديتو في ايامه الاخيرة هي امتداح غروره .

وتأثر كوستال بكون العجوز يحسده ، بسذاجة ، او ببسِل ، على  
انتاجه الادبي ، وهو ما يزال في الرابعة والثلاثين من العمر ، فتصور  
فضاعة المأساة الرهيبة التي يعانيها العاجزون عن التعبير عما في نفوسهم .  
وتحدث دنديتو بلهجة الصديق عن « مستقبل » كوستال ، فقال له :  
« ستنال من دنياك كل ما تريد ، الخ... » ولكن الحديث كان  
يدور على فكرة اخرى هي : « على الرغم من مواهبك ونجاحك لم تحتل  
بعد في الرأي العام المقام اللائق بك . ولا ادري اذا كنت قد لاحظت  
هذا الاجعاف ... »

قال كوستال في نفسه : « هذا الرجل متشائم وثاقم . وما هو يحاول  
اقناعي بان لدي اسباباً كافية لتجعلني مثله متشائماً وثاقماً ، ويحد في نجاح  
محاولته هذه نوعاً من التمزية » مع ان الظاهر فيه انه يريد لي الخير .  
ولكن لا يجوز ان نطالب الناس بالكثير . وبدت له هذه الحال هذبة  
سائلة لاقتناعه التام بان السيد دنديتو لم يقرأ قط من مؤلفاته اكثر من  
عشر صفحات .

واستأنف كوستال الحديث قائلاً :

« لا تظن ، يا سيدي العزيز ، ان امثولتك ذهبت سدى » . فقد القيت  
عليّ الآن امثلة تمزج طريقتي في معالجة الحياة . فانا اعتقد انه من  
الجنون ان يصحبت المرء نفسه وريائته وغبائه دون اسباب في منتهى  
الوجاهة .

وكانت في السيد دنديتو - على الرغم من سألته اليائسة - بقية من  
الحبوية تمنعه من تكذيب نفسه والتعكُّر لما كان يعتبره لباب الحياة ،  
فلم يعجبه استنتاج كوستال ، فرد عليه بقوة قائلاً :



— كل ما في العالم من خير هو وليد كبت النفس ومقاومة الرغبات .  
فاجاب كوستال بتزق :

— لا اصدق شيئاً من هذا !

ثم قال في نفسه : « هذا نموذج من الآراء المبتذلة التي تحاول الانسانية  
المسكينة ان تبرر بها متاعبها » .  
وقال السيد دندير :

— دعني اقمع ، فكرياً على الأقل ، باني على صواب . واذا كان ما  
عملته باطلاً ، فيلحق لي يقيني باني بذلت منتهى جهدي لاحقق فكرة  
حسبها صالحة .

فادرك كوستال عندئذ كم كان هذا المبحوز مغلوباً على امره ،  
فاشلق عليه من اعماق قلبه .

وتذكر ان سليك اكتب شيئاً شبيهاً بالآراء التي ابداهها السيد دندير ،  
فلنته الى هذا الامر . إلا ان المبحوز تميز غيظاً لدى سماعه اسم سليك ،  
وقال :

— لا اريد ان اسمع شيئاً من اقوال هؤلاء السجاجة ا فقد ملأت  
دفاتر عديدة بآراء علماء الاخلاق ، واقوالهم ، ونصائحهم ... ولن اموت  
قبل ان احرقها واجعل من ثارها شعلة ابتهاج وسرور . ثم اعسد الذكر  
اين قرأت منذ ايام هذه العبارة : « زبالة فلسفة »<sup>١</sup> ، فما رأيك ؟ انت يا  
سيد كوستال رجل قلم . ولا ريب في انك تعلم ، بهذه الصفة ، ان  
ضاربة على الآلة الكاتبة تنقل كتاباتك بذلكه واتقان افضل لسك من  
نظرية جديدة في ماهية الكون . تباً لهم من مشعوذين ا اني احب الحياة ،

---

١ - فيلسوف روماني ( ٢ - ٦٠ ) وضع مؤلفاً ضخماً في الاخلاق مستوحى من  
فلسفة زينون الداعية الى شدة الطبع والتزم لطلب على الحرف والالم . وتمزى  
اليه تلميذات عديدة امها : ميدي ، والطرواديت ، واغامتون ، وليبير .

٢ - بنائيت استرالي . - المؤلف .

ولا اجد فيها غير السررات ، ومع ذلك يريدون اقناعي بأنه يجب علي ان اعتبر مقاديرتها الى الأبد شيئاً سائقاً يفرج القلب ليدخلون المسير في جسدي ، ومن واجبي ان اجد الألم لذيقاً ! عرفت شيوعاً كانوا يتحدثون عن نهايتهم القوية بطلاقة وهدوء ، ويواصلون ادارة اعمالهم كأنهم في أمان ، على الرغم من معرفتهم بان موتهم على مسافة بضعة خطوات منهم . ولا اغالي اذا قلت لك ان جميع هؤلاء حقى ، بلهاء . فالأذكاء يخافون ، يشلم الخوف . اما للفلاسفة الاوغاد ، قال الحبر ، اذا كانوا يؤمنون حقاً بما يقولون . اما اذا كانوا يهزأون بي ، فليسقط هزؤهم نصلاً قاطعاً على اعتاقهم . انه لياخذني المجد كلما فكرت بان البشرية لم تنجب امبراطوراً يبيد طفلة هؤلاء الفلاسفة جملةً كما كان اباطرة روما يبيدون المسيحيين . قال كوستال في نفسه : « ان السيد دنديو متحمس اكثر من اللزوم بالنسبة الى كونه على وشك الوفاة . ولعلكن ربما كانت الامور تجري هكذا في مثل حاله » . ثم خاطب العجوز قائلاً ، كي لا يقطع الحديث : — اراك نسيت ان اكثر الفلاسفة هلكوا على ايدي الملوك والامراء الذين يثثون اداة المدالة الفورية الحاسمة .

فاغض السيد دنديو عينيه ، وقد بدت على فصات وجهه معالي العياء كافة ، لمخاطب كوستال نفسه قائلاً : وهذه نتيجة السير مسافة اربعين كيلومتراً في الستين من العمر . فالنشاط لا يبذل عبثاً ، لأن له ثمناً باهظاً ، ولعلكن هذه الحقيقة لا تقال . فلنأزم الصمت ، ولنحترم خبرة الكبار .

ورفع السيد دنديو ذراعيه ، ثم القاهما على مسندي المقعد بحركة فيها ابلغ تعبير عن الانزعان والكآبة ، وظل مضمض العينين ، ثم قال : — اورد ان اقام ، ان اظل قائماً ، ولكن السيدة دنديو وسولانج توقظاني دائماً لتعطياتي بعض المقاقير ، مع ان المقاقير عديدة الفائدة ، والنوم عذب مريح . ولكن لا امية لراحي . يجب حرمانى النوم لاجل المقاقير ...

يجب ان نتصرف حتى النهاية حسب المألوف ، لا بموجب ما تقتضيه الحقيقة .

كان كوستال قد حسب هذه الدعوة الى الغداء شركاً أعدت له فيه اصفاة الزواج ، وتبادر الى ذهنه ان السيد دندير دعاه الى مكتبه ليحدثه ، على حدة ، عن حسرات سولانج ، وفضائلها ... فكم كانت دهشته كبيرة لما رأى العجوز لا يأتي على ذكرها ، ولا يعتبره خطيباً ممكناً ، ولا يحسبه من جهة « ذويه » الذين تكلم عنهم كلاماً لا يدل على المحبة والصداقة .

وبدا كوستال يعتقد ان السيدة دندير وحدها مطلعة على ما يجري بينه وبين سولانج ، فإما ان تكون مسرورة بهذا الأمر ، لأنها تجد فيه مجالاً للافتخار ، دون ان تنظر الى النتائج البعيدة ، وفي مثل هذه الحال تكون على جانب كبير من الغرابة ؛ وإما ان تكون غايتها القضاء سثار « الخطبة » على هذه العلاقة لانقاذ المظاهر ، فيبقى مشروع الخطبة مظهرأ ، لا حقيقة . وربما كانت السيدة دندير مصممة على متابعة هذه القضية لبؤس المأرب الذي تطمح اليه . ومهما يكن من الأمر ، فقد اتضح ان السيد دندير كان شخصية مهمة ، لا شأن له في هذا الموضوع . وهذا امر يدهي لأن وفاته كانت منتظرة بين يوم وآخر ، حتى بات يُعتبر كأنه في عداد الاموات .

رفتح السيد دندير حيله ، وبدا كأنه يشير ، بحركة مبهمه من يده ، الى كل ما في الغرفة من اشياء ، ثم قال :

- هذه الاشياء كلها ، ماذا تفيدني ؟ انها حماقات ، سخافات ، يستمين بها الناس على قتل الوقت . بدأت الآن ارى بوضوح ... هذه الاشياء كلها تكذب . الساعة المعلقة بالخائط مخطئة ، تدل على غير الساعة التي نحن فيها ، انها معطلة ؛ ميزان الجو مختل ، لوحة « كورو » المعلقة الى جانب الساعة

١ - رسام فرنسي ( ١٧٩٦-١٨٧٥ ) اشتهر برسم المشاهد الطبيعية ، وبرز في اغداثه .

مزيفة . اما الكتب فالسكوت عنها افضل . كل ما ارى دجل ونفاق .  
وقد عشنا في هذا الجو حتى ألقناه ، وغدونا منه وفيه . فلو تسنى لنا  
 يوماً ان نكتشف هذا النفاق لهلكنا كالمسكين على المحدرات الذين يموتون  
اذا حرموها .

وهب جالساً بقوة كأنه يتصلب ، ثم خاطب كوستال قائلاً :  
- اني اشكرك على شيئين : اولاً على انك لم تحاول التملويه هلي  
بخصوص سالتني الصعبة ، وثانياً على انك لم تبذل جهودك لتعزيني . فلو  
كانت ثمة فكرة تستطيع تعزيتي لوددت ان تكون فكرة الموت الطبيعي ،  
لا فكرة الموت في سبيل قضية ...

ولزم كوستال الصمت ، فاستطرد السيد دندور قائلاً :

- ومن المحتمل ان اموت ميتة اخرى غير طبيعية .

واشار الى الخزانة وهو يقول :

- لدي هنا ما يستعمل النهاية اذا اشتدت آلامي : فارورثال من

الفيروثال ، اذوب محتوئهما في الماء واشربه ، وينتهي الامر .

- اجعل ، ولكن اذا كانت الكمية غير كافية ، وعاد اليك

وعيك ، فما عساه يكون رأي عيلتك فيك ا

فابتسم دندور ابتسامة ضيقة كابتهامة الاطفال واجاب :

- أظن ؟ لا ا اذا شربت الفيروثال فلا أمل لي مطلقاً بعودة الوعي الي .

- لماذا لا تستعمل المسدس ؟

ثم استطرد مزججراً :

- ألأنك تخشى ان تقع الشبهة على عاقلتك ا ؟

- نعم ، لأجل سولانج . ولكن المسدس خطير ، فمن المحتمل ان تتعريف

---

= الاضواء على لوحاته ، وفي ابراز جمال العمران . من اشهر لوحاته : فيلوبي ، ومشهد  
الكرايزه . وفي لوحاته ايضاً مشاهد شريرة بما فيها من اللون النور المتدفق ، ار  
ظلال الضباب .

فوهته ، فتخطي الرصاصة هدفها .

— ما عليك إلا ان تسدد الفوهة الى العظمة الكائنة فوق الصدغ . فاذا فعلت فلا خطر من الاخفاق إلا اذا تعطل المسدس . اني اعرف ذلك . نأ للأسلحة النارية اقطع ما فيها انها لا تضمن لصاحبها إلا سلامة وهمية . اذا اراد المرء ان يقتل اسداً ، فدونه المديّة القاطمة . لم يجد الانسان بعد افضل منها .

— وبما اني لا استطيع الانتصار بالمديّة ، فلا غنى لي عن الفيرثال .  
أتظن ان من يلتحر جبان ؟

— ان الرعايد الذين يجزرون عن الانتصار لشدة جبنهم هم الذين يزعمون ان من يلتحر جبان .  
— هذا هو رأيي تماماً .

وساد صمت ثقيل كأن كلا منها ادرك انها فرغا من الموضوع الذي كان مطروحاً على بساط البحث . ثم قال السيد دندير :  
— صرفت اربعين عاماً من حياتي للقيام بأعمال كلفتني تضحيات جمة ، ولم أكن مكرمها على القيام بها . ففي أيام الشباب ، اذبلت زهرة العمر مكباً على كتب القوانين بذاكرة ضيفة لا تقوى على الاستيعاب ، مع ان جميع افراد عائلتي كانوا يملكون ، كما كنت اعلم ، اني لن اكون محابياً إلا للمحافظة على المظاهر مدة سنة او سنتين . تزوجت دون حب ، ودون غاية نفعية ، ودون رغبة في الزواج . انجبت اولاداً لأن زوجتي ارادت ان يكون لنا اولاد . واستطيع ان ابوح لك بانني لم افرح بولادة مولانج . أقمت في باريس ، مع اني احب الطبيعة والعزلة . وأكرهت نفسي على القبول بما لا تحب ، مما يقول للناس : وهذا واجب ... وهذا لا بد منه ... . وهايرت زمناً طويلاً على الذهاب كل سنة الى الاماكن الشهيرة بينابيع المياه المعدنية ، على الرغم من كوني خبيرتها عن كتب ، عاماً بعد عام ، فايقتت انها لا تمود عليّ بأقل فائدة .

فت يجميع هذه الاعمال دون سبب ، لان الذين عاشرتهم كالوا يقومون  
بها ، او لانهم كانوا يقولون لي انه يجب عليّ ان اعملها . وهنا انا على  
وشك الموت ، ولا ادري لماذا رضيت بحياة لم تعجبني ، مع اني كنت  
قادراً ان اعيش عيشة حافلة بالمسرّات . أفليس هذا امراً في منتهى  
الغرابة ؟

— لا غرابة مطلقاً في ما تقول . فالانسان يتقاد للتيار الذي هو  
فيه : هذه هي القاعدة . والانسان يعيش على الصدق : هذه هي القاعدة .  
وفجأة ، فتّح الباب ، ودخلت السيدة دندير ، فخطبت زوجها قائلة :  
— جئت اسألك هل انت بحاجة الى شيء .  
— اشكرك ، لا اريد شيئاً .  
— ألا تريد ان افتح لك النافذة اكثر ؟  
— لا ، فضجة الشارع تعبني .  
— ارى ان زجاجة الكولونيا فارغة . فسأشترى لك زجاجة جديدة .  
— لا ، فالكولونيا باردة ، لا اطلبها ...  
— أسخن لك الكولونيا ؟ علماً ، اني ادعكها لخلوكتما .  
ولزم كوستال والسيد دندير الصمت فترة من الوقت . ولا ريب لي  
ان السيدة دندير وقفت وراء الباب قبل ان تدخل ، وجمعت القسم  
الاخير من الحديث الذي كان يدور بينهما .  
قال السيد دندير بصوت خافت :

— آه كم اود ان اذهب الى احد المستشفيات كم اود ان ارى ،  
قبل ان اموت ، جواً جديداً ، وعيلاً جديداً ، ووجوهاً جديدةً غير  
التي اراها منذ ثلاثين عاماً ! ولكن هذه أمنية احلم بها ، ولكنها محظورة  
عليّ . أتدري ما هو العمل الوحيد الذي استطيع اعماله وانا في هذه الحال  
التي انتهيت اليها ؟ انه حرق ما لدي من الرسائل . خمس واربعون سنة من  
الرسائل . فلما جمعت الساعات التي صرفتها في كتابة الرسائل وقراءتها ،

وفي أعمال أخرى من هذا النوع عديدة الفائدة ، لرأيت اني اضع من حياتي سنين عديدة . وبما انك لا تزال شاباً بطيب لي ان اسدي اليك بصيحة : لا تجب عن الرسائل التي تلقاها ، او اجب عنها في ما بدر . ولا تحش ان يؤدي استنكافك عن المراسلة الى ما يؤذيك ، لان الناس لن يؤاخذوك على هذه المقاطعة : يكفي ان تعوّدك شيئاً لبالفوه وبتعبه وطبيعياً . وانا ، حين احرق ما لديّ من الرسائل ، اعبر عن انكاري لكل ما كان حياتي ، فلغنى بعض السرور . ويسرني ايضاً ان احرم السيدة دندير المنعة التي قد تجدها بالبحث في شؤوني الخاصة . ومن المعجب حقاً ان اخاطبك ، انت الذي لا اعرفه ، بهذه الصراحة .

كان المعجوز يتكلم كمن يود لو يطرح سرّه في هوة سحيقة القرار . فتذكر كوستال انه كثيراً ما لجأ ، هو ايضاً ، الى هذه الوسيلة للتنفيس عن كربه ، وراح لسولانج بما في نفسه ، فاذا بالسيد دندير يعامله بالمثل ، دون ان يدري ما بينه وبين ابنته ، ويفتح له صدره بلا تحفظ ، ويطلعه على ما يمتلج في اعماقه بثقة مطلقة ممتلك التي وضعها الكاتب في سولانج ... وحيال هذا التجاوب العجيب بين شعور الرجلين ، لزم كوستال الصمت ، وغاص في تفكير عميق .

واستأنف السيد دندير حديثه قائلاً :

— ان شعور زوجتي الديني كشعور السواد الاعظم من الفرنسيين المتوسطي الحال ، فهي لا تمارس الشماز كلها ، ولا تتقبّل الامرار المقدسة ، إلا انها تحضر القداس يوم الاحد . وتزعم سولانج انها غير مؤمنة ، ولكنها تحضر القداس مع امها ، وتستاء اذا حدث لها ما يحول دون ذهابها الى الكنيسة يوم الاحد . ولكن سولانج لا تعرف شيئاً ... ولا ريب انك خبرتها ، فهي لا تزال برعماً . اما انا فقد عشت وثلياً طيلة حياتي . لا يستطيع احد ان يحب الطبيعة كما احببتها . وقد احببت ايضاً يسوع المسيح . ولديّ البرهان الساطع على ان الديانة المسيحية

مقترة عن بلوغ القيم الفلسفية التي بلغتها الوثنية . وهذا البرهان مائل في انتصار المسيحية على الوثنية . ونحن نعلم نوع الاشياء والاشخاص الذين ينتصرون في هذا العالم .

وتغضن وجهه تغضناً يدل على مرارة الحيرة ، ثم قال :  
.. لا اعني بهذا القول اني غير معجب بتعاليم المسيح ، فكل ديانة ،  
مهما تكن ، تستطيع انقاذ نفسها من السخافة المضحكة بدعوة الناس الى  
الاحسان . ولكن القديس بولس اساء التصرف . من ابرز منتقدي  
اني لا اريد ان ارى كاهناً الى جانب فراشي ساعة موتي . وما يزال  
هذا الاعتقاد راسخاً في ذهني حتى الآن ، ولكن ، بعد التقلبات التي  
جرت في قلبي منذ حين ، بدأت ادرك ان هذا « الاعتقاد » غسر  
كثيراً من المعنى الذي كنت اجد فيه . وانت ، يا سيد كوستال ،  
السبح لي بان اسألك اين انت من المقائد الدينية ؟

.. الي مسيحي حقيق ، مسيحي عتيق من ذوي « الدم الازرق » .  
ولكن من البديهي اني لا اؤمن ، ولا امارس الشعائر الدينية .  
آه ! هذا ما يسرني . لا استطيع ان اصافح بصراحة وصدق رجلاً  
يؤمن بديانة مهما تكن عقائدها . مات اعلمني يدك .

وصالحه بقوة ، ثم قال :  
وعلى الرغم من كل شيء ، أفلا تريد ان يقام لك مأتم بحسب  
الطقوس الدينية ؟

.. اود ان تنقل جثتي رأساً من فراش الموت الى الحفرة العمومية ،  
وان لا تدفن في مكان عميق لتتمكن الكلاب من نبشها وأكلها .  
هذا هو الصواب . ولكن ما رأيك في الكاهن ؟ ألا تريد ان ترى  
كاهناً وانت على فراش الموت ؟

— هذه مسألة منوطة بالحالة التي اكون فيها . فانا كنت بين ذوي  
رحبت بحضور الكاهن لسبيين : أولاً لارضي اهلي دون ان اتكلف شيئاً ،



لأنهم يرغبون بحرارة في ان اتم واجباتي الدينية ، وثانياً لارتاح من إلحاحهم في ارشادي لاتخاذ روعي من الهلاك . فاصرار الناس على تعذيبك وارهاق اعصابك في هذه الساعة التي لا تتوق فيها الى غير الراحة ، إنما هو ضرب رهيب من الضراوة الناشئة . أتريد رأيي كاملاً في هذه المراسم الدينية ؟ لا اهمية لها مطلقاً . ولا شك في اننا نخلع عليها اهمية لا تستحقها عندما نتصلب في التنكر لها . اما اذا مت بعمداً عن اهلي - وهذا ما التوق اليه بكل قواي - واذا لم يحدثني احد عن الكاهن ، فلن اطلب حضوره .

- انك لعل حق : « لا اهمية مطلقاً للمراسم الدينية » ، هذا الرأي هو فصل الخطاب . وما خلا ذلك ، فانظر الى هذه الغرفة : كل ما فيها مرتب ، مصنّف ، معنوّ ، مبوب ، تستطيع ان تجد فيها ما تشاء بسرعة وسهولة . فلو كان الامر على عكس ما ترى ، وكنت فوضوياً لا اعرف النظام والترتيب ، فما الفرق بين الحالين بالنسبة اليّ في هذه الساعة ؟ واليك مثال آخر : حرصت دائماً ، عملاً ببدا اعتنقه ، على ان لا اشري من السلع إلا أجمعها . ولكن تبين لي ان الثوب الكامل يربّ ويهترى بعد عدد معين من الشهور ، سواء أكان ثمنه ألفاً وخمسة مئة فرنك او مئة مئة فرنك . ولا بد من استبداله بعد مدة معينة . وهذا يعني حتماً ان لا اهمية للثوب ، أجيّداً كان صنفه ام رديئاً . ولهذا السبب ، لا فرق بين الرجل الصالح والرجل الشرير .

ورفع السيد دندو يده الى جبينه ، وبسط كفه فوق عينيه كأنه يحمي نظره من النور الذي ينصبه ، مع ان النوافذ كانت مغلقة تقريبا ، لا يتسرب منها إلا القليل من الضوء ، ثم استرخت يده للمجوز على خده ، وبقي فترة في هذا الوضع ، وهو يقول :

- احببت الشمس حتى العبادة . ظننتها تشفي من جميع الامراض : من الاحتقان في الرئتين ، من القرحة في المعدة ، من الكسر في الساق .

وكنيت اعتقد انه يكفي ان يستلقي المريض في نور الشمس ليشفى .  
 أجل ، كان هذا اعتقادي الوطيد ، الراسخ في اعماقي . كان ضرباً من  
 الوثنية الحمجية . وادفني ما في الامر ، اني بشرت بصحة هذا الاعتقاد  
 ودعوت اليه مئات الشبان . اما الآن فاذا كانت السماء صافية قليلاً ،  
 ضابقي نورها ، وغدت عاجزاً عن احتمالها . واذا خرجت من البيت ،  
 فاني ألبأ الى الاماكن الظلمية ، وما كنت اطبق رؤية السماء الغائمة .  
 فهل هناك حقيقة للاحياء ، وحقيقة اخرى للشرفين على الموت ؟ لقد  
 انتشيت بجمال العالم وجمال المخلوقات ، واستطيع اعلان هذه الحقيقة بصدق  
 واخلاص ، لاني ما سميت قتل وراء النساء والملاذات الجسدية . اما الآن  
 فكل ما هو حيّ يؤذيني كأنه اهانة موجبة اليّ ، واراني مستعداً لمقابلته  
 بالبغض الشديد . لم اقرأ الصحف ، ولا يعني شيء من شؤون الحياة ،  
 لاني مزعج على مناهرتها . تحاول زوجتي احياناً ان تأخذني في لزمة  
 بالسيارة الى غابة بولونيا ، فارفض . لا اريد ان ارى جمال العالم ، لاني  
 بعد قليل سأصبح عاجزاً عن التمتع به . فرؤية هذا الجمال تؤلني ، ولا  
 اريد ان أألم .

من العجب ان تأثير النور فيك هو عكس ما حدث لفوته .

وهو على فراش الموت .

اجاب السيد فذير بلهجة من ضاق صدره :

دعني من هذه الاسماء الكبيرة التي تحب ترديدها اما يعني غوته ؟

ليست كما يطيب له ان يموت . لم يبق لأحد قدرة تجعله قدوة لي . لقد

---

١ - اديب ومفكر الماني ( ١٧٤٩ - ١٨٣٢ ) ومن حصار عباقرة العالم . جمع بين  
 عمق الفكر والخيال الواسع الخلاق ، فاستطاع الابداع والتفوق في مختلف الفنون  
 الادبية . من أشهر مؤلفاته : نور ، والبياني ، وفلورست ، وهرمن ودروتي ،  
 وغولا . عالم ادق المسائل الفلسفية فاجاد في تحليلها وعرضها . وضع مؤلفات  
 فلسفية صغيرة الامة ، منها : « الحقيقة والوهم » . وكنت شاعراً عبقرياً ومن  
 كبار العلماء .

بدأ غوته يدرس علم الطبيعيات وهو في الخامسة والسبعين من العمر ،  
ومن البديهي ان تعتبر هذه البادرة جديرة بالاعجاب . اما انا فارد قول  
مونتيني<sup>١</sup> : « من الحاقة ان يصبح العجوز تلميذاً ابتدائياً ! »

فاشماز كوستال من هذه الملاحظة لأنه كان قد اقنع نفسه بان غوته  
من عباقرة تلويح للفكر البشري ، إلا انه كان يعتقد في قرارة نفسه ان  
شهرة هذا الكاتب الكبير مبالغ فيها مبالغة تكاد تكون فضيحة .  
وفي هذه اللحظة دخلت سولانج ، لان الزائرة التي كانت عندها  
ذهبت ، فساور كوستال شعور غريب هو الازعاج من حضور شخص  
محبوب .

ولما لزم السيد دنديو الصمت ولم يقل كلمة ليصرف ابتلته من مكتبه ،  
استاذن كوستال وخرج . وفي البهو التقى السيدة دنديو فبادرته قائلة :  
- لا ادري ما حل بزوجي . فهو يئن اذا نزل من سريره ، ويئن  
اذ لبس بنطلونه ، حتى ليتبادر الى الذهن انه يعتمد هذا التصرف ، مع  
انه لم يفقد طيبة حياته ما كان يتحلى به من قوة الارادة ورباطة الجأش .  
- ألا تدريين ما به ؟ كل ما به انه يموت ، يا سيدتي .

- لا بد من الملاحظة ، والحمد لله ، ان موته ليس اكيداً في وقت  
قريب . ثم ، اذا افترضنا انه يعتبر نفسه مهدداً بالموت ، أفليست  
هذه فرصة سانحة لظهار قوة ارادته ، وقدرته على التجلد ؟ متى يظهر  
ما فيه من الزايا الكبيرة ان لم يظهرها في مواجهة التجارب القاسية ؟  
انه يتصرف على نقیض ما يجب ان يفعل . أتدري ما قال للطبيب أمس ؟  
قال له : « دكتور ، لا توجعني ! » اجابه الطبيب : « لا تخف ، فالمسألة

---

١ - عالم اخلاق فرنسي ( ١٥٣٣ - ١٥٩٢ ) افضى حياته في وضع مؤلفه القيم :  
« محاولات » . وصف فيه نفسه وصفا جليلاً خالفاً . تبسط في عبز الانسان  
عن امراك الحقيقة المطلقة والعذابة . قام برحلة طويلة في البلدان الاروربية ،  
وعاد منها مؤمناً بالسياسة في كل شيء . وهو يقول : « انت فن الحياة قائم على  
الحكمة والخوف والذوق والتساهل » .

في غاية البساطة ... » فقال حانقا : « نعم ، نعم ، اعرف طريقة الاطباء في تطمين مرضاهم . لذلك اقول لك ، واصر على ان تفهم ما اقول : « لا اريد ان اتوجه الى برضى الآخرين باحتمال الاوجاع اذا طاب لهم الألم . اما اذا فارغض الوجع رفضاً باتاً » . انه ليؤسف الذين يحبونه ان يسموه يتفوه . بمثل هذا الكلام امام الناس .

فاجاب كوستال بكلمات مبتذلة من وحي الحديث ، وخرج ، وهو يقول في نفسه : « اذا » فقد استدعاني لبيوج لي بما في صدره ، وكذب ا سيموت بعد شهر ، وهو يكذب ا يا للعجب ا ما اغرب اطوار الناس جميعاً ! »



من  
الندوة هاجو  
كاهورغ  
الى  
يوهان كوستال  
بلمرس

٣٠ حزيران ١٩١٧

اقرأ او لا تقرأ ، فهذه آخر رسالة اوجهها اليك ، وما كتبتها إلا لتدرك اني اعلم .

بعد ان حطمتني تحطيماً ، انتابني الحزن ، وبلغت الدرجة التاسعة والثلاثين - وهي فاجعة عن الكآبة وشدة الأسى لا غير ١ - فغدوت مهددة بمرض عضال ، او بالجنون ، واضطرت الى تغيير المناخ فوراً ، فجنحت الى كاهورغ ، واقمت عند احدي صديقاتي . وفي الكازينو تعرفت الى جماعة من النساء الكاتبات والشاعرات ، بينهن البارونة فليشيا . قالت هذه البارونة علناً :

- أنسألن هن كوستال ؟ لا يقتصر شذونه على انه لم يعانق امرأة في حياته ، بل انه لم يشتهر في حياته امرأة ، وهو الذي اعترف لي بهذه الحقيقة ٢ .

---

١ - اختراع عض ، لم تصب بالجن . لكن فساداً في الدم سبب لها صلاً في فخذها .  
- المؤلف .

٢ - ليدرك القارئ معنى هذه التنبؤ وما يليها ، يجب ان يعود الى ما مكتبه »

وجرى الحديث عن بروست<sup>١</sup> ، فانتفضت على مؤلفاته ، لاني لم أكن قد قرأت له شيئاً بعد . فما افطع ما اكتشفت ! لقد انجاب ستار الوم عن عيني ، ، وكاد للتور يعميني : فالسيد دي شارلوس هو انت<sup>٢</sup> ! كل ما فيه يدل عليك ، وكل ما فيك يدل عليه . انك مثله ، تحب القوة ؛ ومثله تحب ان تضي مسافات طويلة ؛ ومثله لا تضع خواتم في اصابعك ؛ فجميع الادلة تتناسق وتتوافق لتسدل بقوة عليك . وعندما التقيتك في عندك منذ حين ، كنت ترتدي قميصاً ذا طوق مفتوح على طريقة دانتون<sup>٣</sup> . ونبهتني ذات يوم الى انك تلتعل حذاء كبيراً انكليزياً لا يشمل مثله احد في باريس . وحددتني عن رجلبك لتقول لي انها مرهفتا لاحساس<sup>٤</sup> ! اوها انا اكتشف الحقيقة الآن : ما كان تظاهرك بالرجولة إلا

« كومتال ، في احدي رساله ، الى صديقه « بايلويس » . في الحلقة الاولى من هذه السلسلة ، عن الحادثة التي جرت له مع البارونة فليشياخ التي عرفت عليه نفسها بوقاحة ، وهي التي تجاوزت الحشيم من العمر ، فاضطر الى اتيامها باله لا يشتهي للسوء ليتخلص منها ، وقال لها انه لم يوافق امرأه في حياته . وانا كان شديد للتكلم في ما يختص بعلاقاته الجنسية ، فقد راج غير شذوذه ووجد بين الناس من يصدقه . ومنهم اندريه التي ظلت مخدوعة بضعة ايام . ... الخراف .

١ - مرسيل بروست ( ١٨٧١ - ١٩٦٢ ) كاتب فرلسي . ألف رواية طويلة عنوانها : « البحث عن الوقت الضائع » . وهي مكتابة حسن سرد فاضحياته الشخصية . وقد حلل فيها بدقة وعمق مشاهره ومشاهره الذين عاشهم ، راشتر بدوس الشذوذه الجنسي .

٢ - بطل رواية بروست ومثال الخنث النفس في الشذوذه . وقد احدث رساله ناثيراً كبيراً في فرلسا ومختلف الخلاء للعالم حتى أصبح اكل نموذج الحب الذكر الذكر .

٣ - جورج جالك دنتون ( ١٧٥٩ - ١٧٩٤ ) عام واثق وخطيب فرلسي . اصن مادي الكورديله ايام الثورة الفرلسية . وكان عضواً في مجلس « كونغلسيون » . اشتهر بالبلاغة وقوة الحجة . اتهم بالحيانة وقطع رأسه في عهد ريبسيار . كان يرتدي قميصاً مفتوح الطوق ، فعرف هذا التمييز باسمه .

٤ - اعنت اندريه ماكبو في سرد هذه الصفات التي لمستها في كومتال لانها شبيهة بصفات شارلوس . بطل رواية مرسيل بروست . ومثال الخنث الذي لا يرجس له شفاء .

خداعاً ، وفترَ رماد في العيون .

ما معنى ما لمستُ من التناقض بين مختلف مواقفك مني ؟ انه  
الارتباك الذي يقع فيه السيد دي شارلوس . وما رأيك في ما يتوالى  
على تصرفاتك من السمو والحقارة ؟ لقد ذكر بروس سمو شارلوس  
وحقارته ، فقال : « عرفت حتى سمو . وحقارته في العلاقات التي قامت  
بيننا » .

قلت لي يوماً ، في شارع مارسو : « أترين كم اتى بك ؟ اني اخاطبك  
كما اخاطب رجلاً » . طبعاً ! لا عجب اذا كانت ثقنك بالرجال  
كبيرة ! ...

وكم محنتك تقول : « رقة الشعور التي يتنازع بها الرجال ... » ويستطيع  
عارلوك ان ينفوا عنك كل شيء ، ما عدا رقة الشعور .

وقلت لي مرة ان الشبان بلهاء . وهذا ما يقوله شارلوس حرفياً !  
وصف بروس بطله شارلوس قائلاً : « ... اننا لنعجب بما في وجه  
هذا الرجل من اللطف الشديد للتأثير ، ومن الملاحظة والبساطة الطبيعية  
في التعجب ... » وانا ، كم قلتُ فيك : « انه لطيف ، حسن الوجه ، بسيط  
التودد ، طبيعي التصرف ! »

كم كنتُ حقااً ! وما افظع الهبوط الى هذه الجحيم ! لقد بذل هذا  
الاكتشاف نظرتي الى العالم .

واني لأذكر اليوم قولك في روايتك « الوهن » : « لقد تحولت الى  
كريستين » ، عندما تحدثت عن هذه الفتاة . وفي كتاب بروس اعترافات  
جزلية من هذا النوع ادلى بها شارلوس في بعض المناسبات !  
وكثيراً ما كنتُ تردد قول فلوير<sup>١</sup> : « السيدة بوفاري هي انا » .

---

١ - غوستاف فلوير ( ١٨٢١ - ١٨٨٠ ) كاتب فرنسي شهير ، من مؤلفاته : السيدة  
بوفاري ، وسميو . وثعيف الاحساس ، وتجارب القديس الطولوس ، ومجموعة  
قصص . مؤسس مدرسة الفن للفن ، وقد اطلق في مؤلفاته أبرز مثال على انداز

ولكن قلوبهم كان لواطاً ، ولا ريب ، بدليل بقائه عازباً ، ووجود امرأة واحدة في حياته كلها ، وما رواه في كتابه « سلبو »<sup>١</sup> عن ان « الصداقات » التي كانت تربط بين بعض الجنود القرطاجيين جعلتهم شجعاناً لا يهابون الموت . واذا كان هذا هو ثمن الشجاعة ، فإني أفضّل جيشاً جباناً يلوذ بالفرار .

ولا أستطيع ان انسى ما قلت لي مراراً عن قوة شعورك بالغيرة ، وكنت تسمي هذا النقص : « رشاداً يكاد يبلغ ذروة السمو » . فليست هذه من صفات الرجال . والغيرة ميزة أساسية من ميزات الذكر . فلهذا لم أهتم الآن لماذا رأيتني غير جديرة باهتمامك ، ولماذا عجزت عن الآلة شهوتك ! ولم كنت غيبية في ما عانيت من هذاب ، وفي رقوبي أمام المرأة ابحت في وجهي عن سبب اعراضك عني ! أجل ، فهمت الآن لماذا لم تكن بحاجة اليّ ... فشعور المرأة في جسدك لا يشتهي إلا الرجال .

انت ، يا كوستال ، مملوك ، لا مالك (مسيطر) عليك ، لا مسيطراً ! تبحت في الحب عن الذل الذي نسمي اليه نحن النساء ! انك تثير في نفسي الاستمزاز والعرف ، وتلطمح في نظري وجه العالم ، بعد ان ملأته جمالاً واضواءً .

واذا كنت لا اعرف شيئاً عن هذا للشذوذ ، فقد حاولت ان افهم ، فتبين لي ان النساء اللواتي تمرقت اليهن في الكازينو لم يكن اوسع مني اطلاعاً . وهذا ما لمسته في ما تبادلان من الاسئلة التي بقيت كلها بلا جواب . فتغلّبت على استمزازي ، وبجحت في معجم طبي وجدده عند

---

١ - الاشياء . وسأقول ان يكون واقعياً في الوصف ، فلم ينتج من الاسترسال احياناً في رحاب الخيال الرومانطيقي .

١ - احد مؤلفات قلوبيو ، وصف فيه الحرب الضارية التي نشبت بين القرطاجيين وحيرش الموققة في شمال افريقيا ، فاستطاع بحث للشاهد التاريخية بقوة لم يجازه فيها احد .



صديقي ، هو معجم « لا بارث » ، ورأيت ان لافراد هذه الفئة الملعونة « بشرة متبرجة » ؛ ثم رحلت ابحت لاقهم اكثر بما فهمت ، فتذكرت بشرتك الدائمة التضارة ، المشرقة للروتق ... وفكرت بانك تستطيع ان تتجول في الشوارع ، وفي يدك « محرمة » او زهرة ، او قطعة قماش للتطريز بالابرة ، كما يقول معجم « لا بارث » ... ومن غرائب الصدف اني جلست كتابك « الوهن » باللون الاخضر . وما انا اكتشف ان هذا اللون هو شعار هذه المخلوقات القنرة ، المتهتكة ، وعلامة التعارف فيما بينها !

لا ! هذا منتهى اللطافة ! أكاد اختنق من هولها ، اكاد اموت . اطبقت المعجم ، ولم أشأ ان اطلب المزيد من المعلومات . وعلى الرغم من ان الوصف الذي وجدته فيه لا يخلو من التمويه المقصود ، فقد اكتفيت به وصدقته . لك ان تقول ان النساء يعشن الى جانب الحقيقة ، وانهن لا يفضلن شيئا على وضع رأسهن تحت جناحين ، الخ ... لك ان تقول ما تشاء . اما انا فارى المسألة في غاية البساطة : ارى ان في العالم اشياء مريعة لا اريد ان اعرفها . فكرامة المرأة في « وكرامة الزوجة والام التي قد احصل عليها ، تحظر علي معرفة هذا المنار ، لان لولته لتطحنني الى الابد . ليكن العالم كما يشاء ؛ اما انا فلي الحق في ان اجعل ما يطيب لي جهة .

منذ خمس سنوات ، ما برحت تمنني من الزواج . لقد ضاع شبابي وضاعت حياتي برمتها بمررتك ، لأن لا قيمة في حياة المرأة إلا لأيام الشباب .

ولأجل من اضميت حياتي ؟ لأجل مخلوق شقي حقير هو انت ! ألا تصور مأساة امرأة توهمت ان من تحب هو الرجل النموذجي ، ثم اكتشفت انه من هذه المخلوقات الدللة ؟ وليس لك حق « فخر ، الابتكار والتفرد ، لان امثالك كثير واكثر من الكثير . وما انت إلا

متأثني سطحي يحرقه التيسار في غمرة انحطاط فنن ؛ ما انت إلا من  
الصغار بين اتباع أمثال « جيد »<sup>١</sup> و « وروست » ومن لفة لفهم من المهترئين  
في الاجهاد الجفسي ، والعقم ، وادعاء الفن ، عوضاً عن ان يكونوا رجالاً  
يخدمون أبناء جنتهم ووطنهم ، الخ ...

ولا تقتصر مصيبي بك على اني احببت مخاوفاً من هذا النوع ، بل احببت  
مؤلفاته ايضاً ! وبما ان جميع مواقفك مني ومن المجتمع ليست إلا مكرراً  
ونفاقاً ، فلا ريب ان مؤلفاتك من هذا النوع . لم يبق في وسمي ان  
اصدق كلمة واحدة من كل ما كتبت . وليست كتاباتك إلا بياناً منتعفاً  
ومكثلة من الاقتاج الرديء . اذا كانت فيك بقية من الشرف بمقدار ذرة  
واحدة ، فعظم قلبك . لم يبق عليك إلا ان تدفن نفسك ، وان تلام  
السمت تحت لمنات الرجال الطيبين والنساء الخاليات من الفساد .

اعطيت سبي لسواك . لم يكن لك فيه حق . فالمرء لا يقبل حباً يفوقه  
سجواً ، لانه يعلم انه غير جدير بهذا الحب . وفي مثل هذه الحال ، لا  
يجوز له استغلال صداقة فتاة طاهرة ، نقية ، خصوصاً اذا كان هو ...  
ان رسائي اليك موجهة الى رجل تصورته في خيالي وحسبته انت . فاعدها  
الي . الي اصر على استعادتها . فقد وقعت خطأ بين يديك . انها تحبطني ،  
ان من احببت هو رجل مؤلفاتك ، رجل اكاذيبك . يخيل الي اني  
منحت جسدي في ظلام الليل لرجل ظننت اني اعرفه ، فلما بزغ الفجر  
تبين لي اني كنت فريسة شيء لا ادري ما هو : مخلوق ، نصف مخلوق ،  
مختل قبيح ... أندري انت الوقوع في مثل هذه اللظافة يسدع الى  
الانتحار ؟ ألا تعلم هذا ؟

١ - اندريه جيد ( ١٨٦٩ - ١٩٥١ ) كاتب فرنسي . اخلص في البحث عن  
السعادة والحقيقة . وتخل عن المبادئ الاخلاقية المألولة . وانغمس في الشرور  
الجنسي . اشتهر مؤلفاته : الاغذية الارضية ، اقية الفاتيكاز ، سهرنية الرعاة ، مزيف  
التد ، اما لم تفت الحبة ، وهي مذكرات وصف فيها شذوذه بصراحة مطلقة .

ولكن لي في هذه المأساة تعزية اجدتها في التفكير حول العار الذي  
نجوت منه اوعتدما افكر... عندما افكر بأنه كان من المحتمل ان  
تمسني ، بينما انا لا ارضى اليوم بان تلامس اطراف اصابعي ، حتى لو  
كانت يدك في قفاز ، ادرك مدى الخطر الذي نجوت منه .  
اني احترمك .



#### الاربعاء

لا اريد ان تعتبرني قصيرة النظر ينطلي عليّ الخداع ، كما لا اريد  
ان تحسبني شريرة احب الاذى . اود ان تقرأ ما كتبت اليك امس ،  
ولكني لا احب ألا يبقى لك مفي إلا ذكرى هذه الرسالة .  
اكتب اليك بكأبة لامتناهية . ولكني اليوم لست بمحزنة على نفسي ،  
بل عليك ، لان الامور قد تبدلت الآن . فطالما رثيت لحالي في ما  
مضي ، وما قد جاء دوري لارثي لحالك . لتفرض انك احببتني كاني  
اختك ، فما اذا استطيع اليوم ان احبك بمنان الام وراقبتها ، فتكسبني  
هذه المحبة طمأنينة وارتياحاً .

اجل ، ما اتعس الانسان اذا كان مسخاً ا ان قلبي ليتفطر امي عليك .  
الوسل اليك ان تخرج من هذه البؤرة ، اذا كانت فرصة النجاة لم تقتك  
بعد . انك شعبي بائس ، ولا ريب في انك لجأت الى الانغماس في الرذيلة  
والتفنن بها هرباً من البؤس والشقاء . قد يكون شقاؤك الآن مزدوجاً ،  
ولكنك لست مذنباً . أسألك باسم كل ما هو مقدس في العالم ، باسم  
ذكرياتنا ( لانك احببتني ، ولاشك ، ولكنك لم تستطع المضي في حبك الى  
النهاية لسبب وجيه ... ) ، ان تخرج من الطريق التي تسير عليها . اذا  
كنت قد وجدت في رسائلي الماضية شيئاً من العنوبة ، وكانت هذه الرسائل قد

شدت هزيمتك ، واضعت لك مجالاً للتفكير ، فاقراً هذه بانتباه ، واعتبرها رجاءً وإبتهالاً . تشجع واخرج من هذه الهوة . عد الى الانسانية الحقيقية . عد رجلاً من جديد .

اذا كنت لا تبالي بالكرامة ، فعد الى رشدك ضناً بمواهبك الادبية . وما جئت ولم تعاقب امرأة في حياتك ، فكيف لا تشمر بما فيك من نلص ، وبان جميع نظراتك الى الكون والحياة مختلفة وشاطئة ، وبان فنك آخذ بالهزال والالخطاط ؟

اذا اصيب المرء بمرض يبادر فوراً الى معالجة نفسه منه . ولا بد له من ان يريد الشفاء . فلتكن لك هذه الارادة .

منذ هذا الصباح ، استشرت احد الاطباء هنا ، فقال لي ان لديه علاجات مادية ومعنوية لأمثال شارلوس . وقد ارسلت اليك مع هذه الرسالة لائحة بأسماء بعض الاطباء النفسانيين في باريس ، وهم من الذين سبق لهم ان عالجوا مرضى من هذا النوع . ضع نفسك بين يدي احدهم . ولبل يده للعلاج ، ردد لنفسك ، واحياناً بصوت مرتفع ، بعد ان تتلفس ببطء ملء صدرك ، العبارة التالية : « اريد ان اصبح رجلاً » . انت الحوادث الاخيرة ، التي سطمتني ، ودتني الى الدين . فالح لا يمدح احداً . انك تعلم ، ولا شك ، اني تخلت في ما مضى عن ممارسة جميع الشعائر الدينية . ومنذ خمسة ايام عدت اذهب كل يوم الى الكنيسة ، لا لأصلي فيها قائماً ، كما كنت اقول من قبل : « يا إلهي اجعلني سعيدة ! » ، بل لأصلي لاجلك انت . وسأظل أصلي لأجلك حتى ين الله عليك بالخلاص . الوداع . اني اصفح عنك . تقبل رحمتي اللامتناهية . لك . أ . هـ

من  
يهان كوستال  
باريس  
الى  
ارمان بايبيس  
تولوز

٢ تموز ١٩٢٧

صديقي العزيز ا

خلاصة هذه الرسالة : قول الكتاب المقدس : « إخنس حب المرأة أكثر  
من بنض الرجل ! »

غاية هذه الرسالة : غضب الرجال بفور عنفا . وغضب النساء بفور  
جمالة . وهذا ما سأحاول تبينه .

اني مرسل اليك بالبريد المضمون وثيقة اعتبرها جديرة بالانتباه .  
وارجو ان تبيدها اليّ بعد عشرة ايام ، عندما ألتقيك في تولوز .

وخلاصة القصة ان امرأة منبوذة ، لانها لا تمجيب احداً ، تلت بحرارة ،  
من عجوز مجنونة ، خبزا ملفقا عن الرجل الذي رفضها فأهانها . لقد  
توهمت انها وجدت في هذا الخبر ما ينصفها ، لأنه يقنعها بانها لم تلبذ  
بسبب دماستها ، ويثار لها باظهار من نبذها وأهانها بصورة « وعنه قدر » .  
أطلعوها على صورة شخص لا يشبه غريمها بشيء ، اللهم إلا بان لكل من  
الاثنين انفاً وعينين ، الخ ... ولفسّم بان لون شعرهما واحد . ولكن  
المنبوذة رأت غريمها في الصورة التي أطلعوها عليها ، لأن شهوتها الخائبة

كانت قد اعنتها . ولو كانت امام قاضي التحقيق لأقسمت انه هو . ولكنها لم تكفر باحتقار هذا للفرج ، بل ارادت ان تجود بالرحمة ، فمن الواجب ان تشفق بدورها ، فاذا بها تحيل احتقارها الى رحمة . وبما انها ظلت تحب ، على الرغم من كل شيء ، وبما ان الحقيقة القاسية غيبت رجاءها وطرحتها على السطح الآخر من الحياة : السطح المظلم الذي غابت عنه الشمس ، راحت تصلي لاجل غريمها ، ظناً منها ان الصلاة تتوَج انتصارها ، وتليح لها الادعاء بسمو النفس ، وربما افادت لها ايضاً مواصلة علاقتها بالفرج دون ان تمزق كبرياؤها ، فتعود الى مراسلته ، والى الكتابة اليه رسالتين في الاسبوع لا تقل كل منهما عن اثني عشرة صفحة ، لتحدث عن نفسها بنزعة التحدث عن الذات اللامتناهي<sup>١</sup> . ولا عجب ، ففي اللوحات المملقة على اقفاص حديقة الحيوانات 'يُشار الى الذكور بسهم يعني ان الذكر يثقب قلب الانثى ، ويشار الى الانثى بصليب يعني ان الانثى قلباً الى المصلوب وتختفي به .

وحالة اندريه هذه تسترعي الانتباه ، لأن اندريه امرأة متوقفة الذكاء ، ولا ريب في انها شخصية مرموقة .

انك تعلم رأيي في آلية تفاعل ردود الفعل لدى المرأة . فجميع ردود الفعل الواردة في رسالة اندريه مصنفة وموسوفة منذ زمن بعيد . فردة الفعل التي تلت في نفس المنبوذة ، وقدفمها الى اتهام غريمها بأنه السيد شارلوس ، هي الردة ذات الرقم ١٧٤ . والردة التي تحاول المرأة فيها اقناع الرجل الذي تحبه بأنه شعبي بائس هي الردة ذات الرقم ٢٢٧ المكرر . والردة التي تدفع المرأة الباقسة الى ممارسة الشجائر الدينية هي الردة ٨٩ . والردة التي تزعم فيها المرأة انها مريضة ، قياماً منها بمحاولة اخسيرة

١ - كتب المؤلف كلمة « الكائن » Etre بجاءل اولها حرفاً كبيراً وهي في مثل هذه الحال تعني « الله » ، وقد عمد الى هذه الطريقة للتدليل على انه يقدس الرجل ويمتدحه في مستوى اللاهوتية بالنسبة الى المرأة .

لتبحث في نفس صديقها تلك « راحة للنساء » التي تستكرها وتسمى اليها معاً ، هي الردة ٢١٤ ؛ وهي ما تزال حتى الآن عند اندريه في بداية تكوينها . ولا بد من الملاحظة ان الردة التوقعية ، بين جميع هذه الردات ، هي الردة ١٧٥ التي قتم فيها المرأة المتبونة غريبتها بالعجز الجلسي ، وهي لم تظهر في اندريه بعد . وعلى الرغم من هذا النقص في تطور حالة اندريه ، فان مراحل ردات الفعل فيها تؤلف سلسلة تقليدية متتالية الحلقات بكل انضباط وانتظام ، حتى يمكن القول انها كاملة - كاملة في صفاتها وابتدائها - يحني منها الفكر المراقب ارتياحاً كاملاً ، فيه من لذة الشعور ما يتذوقه علماء الفلك عندما يرون الكواكب تتحرك في مدارات كشف الحساب اتجاهاتها وعرف مداها . وأرى نفسي ايضاً كعالم كيميائي وضع نوعين من المادة في بوتقة ، وجلس يراقب تفاعلاتها المتوالية قبل الانصهار ، وهو يعلم النتيجة مسبقاً ، بينما الجاهل لا يدري من هذه العملية شيئاً ، وكل ما فيها جديد وغير منتظر بالنسبة اليه . واخيراً تسفر التفاعلات عن مادة لها الشكل واللون والوزن التي تتغلغها عندما تتكوّن في الاحوال الطبيعية المعروفة . والأجل من كل هذا ان تطور حالة اندريه تقليدي وعجيب معاً ، فيه ما يذهل وما هو متوقّع ؛ وهو بهذا التناقض طبيعي كأنه الطبيعة بالذات .

لم نحسّ اندريه ان تكتب ان اكتشافها لشخصيتي في السيد شارلوس قد « بدل رؤياها الكون » . واستطيع القول ان رؤياي الا للكون - اذا افترضنا جدلاً ان لي رؤيا - لو مرت بأقل مما مرت به رؤيا اندريه ، لتبدلت هي ايضاً .

ولكي نبقي في نطاق هذا البحث ، وبما ان الكون هو الموضوع الذي نعالجه ، أقول ان كتاب اندريه المرسل اليّ من كايورغ يحملني على الاعتقاد ان في الكون ارتباطاً متناسقاً بين جميع عناصره واجزائه ، وهذا ما

كنت اجد اسباباً كثيرة للشك فيه على الرغم من الكهنة ، وعلى الرغم من فولتير<sup>١</sup> .

وربما نجد في هذه المسألة ما يدعونا الى القاء نظرة على افتقار النساء الى تفهم الشؤون النفسانية ، وهو افتقار طالما استرعى انتباهي ، فالقسم الاكبر من النساء يعيش الى جانب الحقيقة . واذا درسنا حالة أندريه في مختلف مواقفها ، نرى انها تخطئ خطأ فريداً في كل شيء ، وبمناخ مدهشةثير العجب : فهي تعتقد انها حسنة ، وتعتقد اني احبها ، وتعتقد ان ليس لي ولد ، وتعتقد اني للسيد شارلوس ، وتعتقد اني شقي بانس ، الخ... وهذا ضرب من العناد الغريب في التثبت بالخطأ . و مرة اخرى اقول لك ان أندريه فتاة ذكية ، وتكاد تكون استثنائية على هذا الصعيد . قد تقول لي : « ليست المرأة هي التي تفتقر الى تفهم الشؤون النفسانية ، انما المرأة المحبة وحدها تصاب بهذا الافتقار » ، فاجيبك فوراً : « ألسن كلهن عاشقات ؟ »

والمرأة التي تخطئ في ادراك ماهية الرجل تخطئ كذلك في العمل للاستيلاء عليه . فهي تزعجك حتى اثاره غضبك بدخولها عليك في انشاء عملك ، او باجتهادها في تقديم هداياها الصغيرة لك ، او ببطاردتك في اغلب الاحيان اكثر مما تحب ، او يجمعك الى اصديقاتها وهم ليسوا اصديقاتك . وقد تكون علاقتك بها وثيقة ، تسمح لك بان تبوح بما في نفسك ، فتصارعها بان هذه التصرفات تزعجك ، فتكف عنها بعض الوقت ، ثم تعود اليها .

---

١ - كاتب وشاعر ومؤرخ فرنسي ( ١٦٩٤ - ١٧٧٨ ) صادق المثلث وراسلم ، وحارب الاكليوس بلا هوادة ، وكان عاملاً من اقوى عوامل الثورة الفرنسية . اشهر مؤلفاته : رسائل فلسفية - مجموعة رسائل لا تقل عن ١٢ ألف رسالة . تاريخ لويس الرابع عشر - ثاول الثاني - تمثيليات عديدة منها : زكير ، وموت قبصر ، ومحمد ، وميروب .



تجيبك امرأة بعيدها عن الفنج والدلال ، فتعبر لها عن اعجابك بها ، وتشرح اسبابه بكل طريقة وفي مختلف المناسبات ، وتنتقد امامها بقسوة جميع النساء المتأفات ، المسترسلات في الفنج والدلال . وبعد وقت طويل او قصير تصبح هذه المرأة مفتاحاً ، وتضيع في دوامة التأنق والدلال .  
وجميع النساء يفقدن ما كان لهن من الاعتبار في نفسك بالخاحن في طلب المال ، ثم يأتي يوم يفقدن فيه منابع المتعة التي تجنيها منهن ، فتضطر الى القطيعة .

ولو لم يطلبن شيئاً لحصلن على كل شيء ، لأن احببناهن عن الطلب يحدث في نفس الرجل اثرأ يدفعه الى العطاء بلا حساب .  
ولكن لا افرغبتن في الطلب اقوى من ارادتهن ، فكان فيهن حافزاً لا يقهر ، يدفعهن الى انتهاج سبيل الرعونة .  
وكا تخطيء المرأة مع رجلها ، تخطيء كذلك مع ابنها ، سواء أكان فتى ام فتاة ، وتخطيء اكثر اذا كان فتى .

كثيراً ما يحطم الناس اعصابنا باخبارهم عن « خوارق » حب الام الذي يرى الغيب ويبتزح المعجزات ان هذا دجل ونفاق . فلأم لا تدري ما في نفس ابنها ، ولا تعلم ما يجب عمله لأجله . استطيع ان اضع كتاباً ضخماً في هذا الموضوع ، لا يحتوي سوى حوادث حقيقية ، اطلعتني على بعضها امي لانها شذت عن هذه القاعدة .

يعترف بهذا الواقع جميع الرجال الذين يحورون على النظر الى الحياة وجهاً الى وجه ، سواء أكلوا علماء اخلاقيين ، او أطباء ، او مربين ( اكليريكيين او علمانيين ) ، او اطباء نفسيين . ولكنهم يحرصون اعترافهم في حديث خاص ، ولا يعلنون آراءهم للمرأة ، او في تصريحات علنية ، ولا يطبعونها في نشرة او كتاب ، لانهم يخشون الرأي العام المنحاز الى النساء . وحتى تولستوي الكبير<sup>١</sup> ، أتدري ما قال لنورسكي<sup>٢</sup> ؟

١ - ليون تولستوي ( ١٨٢٨ - ١٩١٠ ) كتب روسي عظمي الشهرة . اعظم =

قال له : « عندما يصبح نصفي في القبر ، سأعلن للسلا رأيي في النساء ، ثم اتي على نفسي بلاطة الضريح ١ » ولا اعرف رجلاً أقدم على الجهر بالحقيقة في هذا الصدد غير هريوت سينسر<sup>٢</sup> الذي قال : « ان تدخل الام في شؤون ابنها لأشد ضرراً به من استكافها عن الاهتمام بأموره » .

والابناء للكبار يعرفون أكاذيب امهاتهم ، فهي نتيجة المعجز التام عن الادراك . ولكن هؤلاء الابناء لا يقولون شيئاً ، ولا يبهجون بما يعلمون إلا لنفوسهم ، انهم يرحمون امهاتهم . وهذا مظهر آخر من مظاهر « الرحمة للنساء » .

اما انا فلي ابن هو أعز ما لدي في الحياة . اردت ان اصونه من وجود امه الى جانبه ، فالتذت التدابير اللازمة كيلا يكون هذه الام اقل حق عليه ، وعهدت بالسهر عليه الى امرأة ليست امه ، فمنحته حظاً كبيراً بالنجاح في الحياة .

انت تعلم ان بين القطط ايضاً امهات ، وارت العطف الخارق الذي يعتلج في القطة الام لا ينمها دائماً من افتراس جرائها . وهذا رمز عظيم المنزى . وقد اكون حيث ولدي من الافتراس .

تلك هي ، يا صديقي العزيز ، ردات الفعل التي احداثتها في نفسي رسالة اندريه على الصعيد العام . اما على الصعيد الشخصي فقد جعلتني هذه الرسالة في حالة من المرح للطلق تجاور المجون . واني احس بحمية تلهب ذهني وخيالي للتعليق على رسالة اندريه كلها بهذه اللمحة التي بدأت بها

١ مؤلفاته : الحروب والسلام ، انا كارنتين ، البعث . برع في وصف الاخلاق والنفس

الرومية . بحث في اللاهوت والاخلاق لاكتشاف الحية في الدين المسيحي القديم .

مكسيم غوركي ( ١٨٦٨ - ١٩٣٦ ) كاتب روسي واقصي النظرة ، برديتاري

الفرقة . ام مؤلفاته : حياتي في ايام الحداثة ، المشردون ، الام .

٢ - ييلسوت انكليزي ( ١٨٦٠ - ١٩٠٣ ) مؤسس مذهب التطور في الفلسفة الحديثة .

رسالتني ؟ مثلاً : قالت اندريه انها عندما احببتي اخطأت ادراك غاية الحب . وهذا خطأ دارج واسع الرواج ، فانت تقبل مرأ في بعض الاحيان ، وتمتدح انك قبلت مرأ ، ولكنك اذا دقت في الامر رأيت انك قبلت برغوثاً ، الخ ...

ومن البديهي ان اوهام اندريه سريعة الزوال ، يبدعها محك الواقع ، ولكنها تحسني الى اقصى حد ، لان ما في هذه القصة من السخافة المضحكة يصكرني طرباً .

لم اؤمن قط ايماناً وطيداً بصداقة اندريه لي لعلني انها تحبني . فكنت انظر اليها باي اصدقها ، كما انظر اليها بصفة كوني كاتباً ، بتصديق مظاهر الصداقة التي يغمري بها بعض الزملاء ، وانا اعلم ما يضمرون لي من الحقد الخبيث العميق .

والآن ، كيف ستكون تصرفاتي مع اندريه ؟ ربما كنت ، في ما مضى ، مستعداً لقبول شقائقها : فبين شخصياتي واحدة يروقها ان تتلقى الشتام ككلب البحر الذي حدثنا عنه ألان جبرو<sup>١</sup> انه كان يجد لذة خاصة في ان تمزقه الاسماك وتفترسه .

لا اطبق اندريه في البلاء . احب البلاء واجلتها اجلاً شبيهاً بالتقوى اذا تجلست في اللساء الجميلات ، شريطة ان تكون المرأة البلاء دمنة الخلق ، مطواعاً في الاسلام . اما اذا كانت البلاء معريدة جاهلة ، وصدرت عن امرأة صميحة ، فالوداع .

ألم تلاحظ ان بلاء اندريه للناجة عن استئدام غضبها افقدتها صوابها

---

١ - قال سان سيمون : « ان احترامني لنفسي كلت يزداد دائماً بقدر ما أسيء الى سمعتي » . - المؤلف .

٢ - بحار فرنسي ( ١٨٩٣ - ١٩٤١ ) اجتاز المحيط الاطلنطي عام ١٩٢٢ وهو وحيد على زورق صغير . ومن سنة ١٩٢٥ الى سنة ١٩٢٩ قام وحده ( ايضاً وحده ) زورقه الصغير بدعوة كلمة سول العالم .

وجعلتها ترتكب اخطاء لغوية وتستعمل كلمات غريبة الاشتقاق<sup>١</sup> ، وهي التي كانت تكتب دائماً بسهولة وقوة لا غبار عليها ؟ ولم كانت منشية طرياً لما كتبت كلمة : لواط افلا ريب في انها تعلمتها في اليوم السابق ، فارادت ان تبايها بانها تعرف ... وهكذا كان « برونييه »<sup>٢</sup> في السنة الرابعة من عمره ، اذا تعلم كلمة جديدة تروقه ، راح يرددها بهراً كاملاً .

سأوجه بدوري الى اندريه رسالة ضارية من خمس عشرة صفحة ، اصارحها فيها برأيي فيها منذ بداية تعارفنا .

ليست هذه الحادثة حماقة كلها . فلو كنت في الثامنة عشرة من العمر ، وكانت اندريه المرأة الاولى في حياتي الجنسية ، لكان من المحتمل ان اقول في نفسي : « لا ريب في ان الحب يجب ان يكون هكذا . ولا بد له من الشعور اوتوماتياً الى قذارة : هذه سنته المحتمة ، ولا مناص له منها » . اما اليوم فلا يمكن ان يخامرني تفكير من هذا النوع ، لاني عرفت لساء وفنيات كثيرات حائنين الحية ، والمهجران ، والخيانة ، واحتفظن بكل ما كان فيهن من التبسل والاباء ، ناهيك بنظرتهم الواقعية الى مجرى الامور ، وكثيرات منهن ما اردن غير الخير والنساء لمن كانت سبب شقاين . واذا ، فلا مغفرة لاندريه . وعلى كل حال كنت انوي التخلص منها قبل ان تكتب اليّ رسالتها الاخيرة .

هذه القصة توحى اليّ بثلاث ملاحظات :

لاري : اني لم اثلق قط اقل اهانة من امرأة حسناء ، وما شئتني

---

١ - استعملت اندريه في رسالتها كلمة Decodentisme التي لا وجود لها في اللغة الفرنسية السير عن التباي في الاخطاط ، وكتبت Abime - اي مرة - جامعة حرفها الاول كثيراً كأنها اسم علم . وهذا غير جائز .

٢ - ابن كومتال غير الشرعي . راجع الحلقة الاولى من هذه السلسلة : « المهبيا » .  
- المؤلف .

إلا الدميّات . وكنت اذا تلقيت رسالة شتائم من امرأة اجهلها ، أدركت فوراً انها حميمة .

الثانية : يبدو لي ان اندريه الساميه الخلق ما وجدت إلا لتكون ناقدة ادبية ، اعني ناقدة ادبية في باريس عام ١٩٢٧ . فالطريقة التي اعتمدتها لتثبت اني وشارلوس صنوان هي من نوع المنطق الذي يثبت ان الشيء الاسود ، الاسود كالخبر ، هو شيء ابيض ، ابيض كالطيشورة . وهذا دليل ساطع على حسن الاستعداد للنقد الادبي في هذه الايام . ولا عجب اذا كتبت هذه الفتاة مقالات تبهرن ان هذه الرواية العاطفية الشعرية الحماسية هي في حقيقتها العميقة واقعية ، وان هذا الكاتب المرح الماجن هو في جوهره شديد القلق والاضطراب . وقد تبين لي كيف كان بول موران<sup>١</sup> بودليريا ، وجيروودو<sup>٢</sup> كاتباً شعبياً ، الخ... وقد تصبغ شهيرة ومحترمة في باريس عام ١٩٢٧ ، لان المهم ان يكتب المرء اشياء لم يسبق الى كتابتها احد من الزملاء بعد ، لا ان يكتب اشياء صحيحة ؛ وليس المطاوب ان يحكم الناقد حكماً سديداً عادلاً ، بل ان يكتب اشياء غريبة تلتاقلها الصحف .

الثالثة : انك تعلم كم احب التكتّم ، وكم احرص على ازالة آثار علاقاتي واعمالتي . فالمرب الذين يحذقون هذا النوع من الرياضة يزعمون ان الأسد يحو آثاره بذيذه عندما ينتقل من مكان الى آخر ؛ ويقال ان احد سلاطينهم كان ينمل جواده بنمكال مقلوبة كي لا تدل آثاره على اتجاهه الصحيح ؛ وثمة مثل مصري يقول : « خبّئ حياثك كما تطمر

١ - ادب وديبلوماسي فرلسي معاصر ، اشتهر ببراعة الاداء رجال الوصف والتغلت من الاساليب التقليدية . من مؤلفاته : « مقل ليل » و « مفتوح ليل » .

٢ - جان جيروودو ( ١٨٨٢ - ١٩٤٤ ) كاتب فرلسي احتل المرتبة الاولى في التأليف المسرحي بين ابناء عصره . اتم مسرحياته : امفيثيون ، انترميوز ، حرب طروادة لن تلبس ، إلكترا ، اندن . وله روايات عديدة اهمها : سوزان والخط الممضى . وقد امتاز بلغة البيان وسحر الافكار .

القطعة سلعها « ؛ ولنوضح هذا الامر اقول : ان التكم الذي احبه ليس كالذي يمارسه الناس ، انما هو التكم الذي اضمن فيه عمقا بقدر ما ابوح به ، وبقدر ما ينتشر . فبعد المتعة الارستقراطية للناجاة عن إغاطة الناس وإثارة استنكارهم ، وهي المتعة التي اغنمها دون تحفظ ، نجد متعة اخرى في ان يعتبرك للناس غير ما انت ، شريطة ان يحط هذا الاعتبار من قدرك قليلا في نظر قادريك . ولست ادري أتكون هذه المتعة ارستقراطية ام لا ، الا انها تدغدغ شعوري دغدغة لذيذة .

ومما يكن من الامر ، فان بطلة سارت ليونار اوحى اليّ بفكرة جديدة ، فليس من المستبعد ان اضيف الى اقتنعي العديدة في الحياة قناع شارلوس . فلا شيء اسهل من ذلك : يكفي ان أدم النساء فكريا ، ليستشج الناس اني احقرهن جنسياً ، لان الناس غلاظ الاذهان ، بن فيهم رجال الفكر ، ويجهلون دائما العلاقات المتسرة ، وعندئذ ... يتسع افقي ، اذ يغف حذر الآباء والامهات على بناتهن من محاولاتي ، وتصبح معاركي سهلة اذا اعتقد الاغبياء اني « رجل لا يحب النساء » .

الحق يقال ان اندريه عززت حياتي بمحنة جديدة من السعادة . فهذه المرأة التي نبذتها ستكون سببا لحصولي على عشرين امرأة جديدة . وأود من صميم القلب ان تكشف ، يوماً ، هذه الحقيقة ا

تصور اني ارى نفسي ، منذ الآن ، خارجاً مع « برونيه » ، والناس لا يدرون ان لي ابناً ، فالى اين تقودهم تخيلاتهم يا ترى ؟ ما اعظام هذا الاتساع في افق نشاطي !

---

١ - اسمعيل المؤلف هنا كلمة نحتها وركبها على هواء ، هي : Parthenomochie ، ورضع لها حانية فسرّها فيها كايلى : كلمة يونانية الاصل ، مركبة من Parthanos ، ومعناها : عذراء ، ومن Mochie ، ومعناها : مركبة . فيكون معنى الكلمة برمنها : « الصراع في سبيل الصبايا » . واخاف بين هلالين قوله : هذه للاحظة خاصة بشبان الجيل الطالع من الفرنسيين .

اصافحك ، يا صديقي ، واختم هذه الرسالة ببیت من الشعر  
لجوفنال<sup>١</sup> هو :

« ان بغض المرأة لا يرحم اذا نغس الذل سقمها » .



### لا فرق عندي ا

فطوال خمس عشرة سنة تخلتقي قوة النساء كما يتخلل الهواء  
الارغن<sup>٢</sup> ، فما تغيت إلا بين ؛ واسفاري ، وتنقلني ذهاباً وإياباً ، وفترات  
تواري<sup>٣</sup> الطويلة بانقطاعي عن الكتابة ، وكل ما كان غامضاً لا تفسير له  
في حياتي - تلك الامور كلها لم يكن لها سبب إلا شغب النساء المتواتر  
بلا انقطاع . ولم مرة رفضت من الكون بأسره كل ما هو غير الحب ،  
وضعت بكل شيء ، ما عدا فني ، في سبيل حياتي الخاصة ، ولم تكن  
هذه الحياة مكوّنة إلا من الحب . ونصف العذابات التي حلت بي كان  
ناجماً عن العذاب الذي اضطرت الى ازاله بالنساء ، او بالحري بالفتيات ،  
لأن كل مناصرة مع فتاة لا تؤدي الى الزواج تلتهي حتماً بالعذاب  
والشقاء ، ورضيت بأن ارى حياتي كلها مربكة ، متعبة ، ضعيفة ،  
بطيئة ، لانهامي الدائم بعدم الحاق الضرر بالنساء ؛ ولم استطع مرة واحدة  
ان أقرأ عبارة « فتاة صغيرة » من غير ان أشعر بقوة في صدري تدفعني  
الى ذرف الدموع ، ولم أسمع بان فتاة أجهلها سقطت في امتحان  
البكالوريا إلا أحسست بميل شديد الى هبائها ؛ ولم يقع نظري على غلطة  
املاء في رسالة فتاة لا اعرفها ولم ألتهم هذه الغلطة على الورقة .  
فكم هو غريب ، بعد هذا كله ، ان تهمني امرأة باني شارلوس ، وان

---

١ - شاعر لاتيني لاذع اللسان ( حوالي ٦٥ - ١٢٨ ) . انتقد الانحلال الخلقي في  
عهد القيصرية الرومان بعصائد تحيت بالمرارة والعنف .

تكون هذه المرأة ذكية ، كاذبة ، نيرة العقل ، تعرف مؤلفاتي عن ظهر قلب ! لاحظ ، يا صديقي ، أن شارلوس لا يخيفني . قال مونتيني : « يعتبر الناس مضاداً للطبيعة كل ما هو مضاد لعاداتهم المألوفة » . وهذه هي الحقيقة ، فالضاد للطبيعة هو الطبيعة ، كما أن السفينة المضادة لقاذفة الرعادات هي أيضاً قاذفة رعادات مكتملة الاوصاف . وقد حدثني ، يا لها من حقايق عن « هوتي الممبقة » : ان هواتنا في مكان آخر .

لا ، ان ما يخيفني هو الظلام الذي تبقى فيه النفس في نظرتها الى نفس اخرى . لم تفهم اندريه مني شيئاً ، على الرغم من كل ما كان فيها من مظاهر الفهم ، لانها استطاعت ان تخطيء بشأني الى هذا الحد ، وانا ايضاً لم افهم منها شيئاً ، لانه لم يخطر في بالي قط انه من المحتمل ان تخطيء الى هذا الحد . وقد احسن بودلير حيث قال : لا شيء في هذه الحياة إلا وهو قائم على سوء التفاهم .

كنت اعلم هذا ، ولكن ما هو الشيء الذي لا يلساه المرء ، او بالحري لا يلساه للفكر ؟ فالنسيان واقع اساسي في الحياة ، حتى ان الفكر يستطيع القول : « اني أنسى ، اذاً انا كائن »<sup>١</sup> .

---

١ - في هذا القول معارضة للعب ديكارت الفلسفي القائل : « اني افكر ، اذاً انا كائن » . وهو اللعب المعروف بالروساني ، لان الروح هي كل شيء في اعتقاد اصحابه .



من  
إيليا كوستال  
بباريس  
إلى  
الديرة هاجو  
سان لويجار

٢ تموز ١٩٢٧

إذا ، يا آنستي العزيزة ، فقد وجهت إليّ رسالة عرمرمية ! فلا بأس ! لما أكتد لك من عرفان الجليل هو الأقوى : فالرجل الذي يحارب درس القلب البشري لا يستطيع إلا أن يفتبط لأن فرصة كهذه لم تكنه . أعطيتني صداقتك طوال خمس سنوات . وما أن عطاءك يستمر بانقراض هذه الصداقة مني .

اعتقد أن ليس لأحد منا ما يقوله للآخر في الوقت الحاضر . ولكني أعرفك : فستعودين إليّ يوماً ؛ وأعرف نفسي : فستقبلك ، ولا ريب ، كأن شيئاً لم يكن بيننا . وعلى كل حال ، فلا لزوم للاستمعجال . فانت ، ولا شك ، بحاجة إلى الراحة بعض الوقت .

ثقي ، يا آنستي العزيزة ، بأنني أحفظ منك أطيب الذكريات . وإلى أوابك بامتياز في مختلف أحوالك .  
ك

ملاحظة : أرسلت إليك بالبريد كتاباً عن كوزيما فاغندر ، ألم تقولي لي مرة ، في إحدى رسائلك ، خلال الشتاء الماضي ، أنك ترغبين في مطالعته ؟ حظيت به صدفةً في إحدى مكاتب رصيف النهر .

من  
المسيحة بلاندميل  
الرائس ( مائس )  
الى  
السيد بيار كوستال  
باريس

٧ تموز ١٩٢٧

ان اسمي لا يعني شيئاً بالنسبة اليك ، اما اسم تيريز بانتفان فقد  
يذكرك بشيء .

أتذكر هذه الجمل : « أيموز لي ان اعمل هذه المصنوعات ؟ ان قلبي لا  
يضاوغي ... وربما كانت فيك قوى جديدة بانت تكرس ... » ثم :  
« سأشفي عليك السبت ، الساعة السادسة مساءً » . وبعدئذ ساء الصمت  
شعراً . واغلب الظن انك لم تمر هذا الامر اقل انتباه : لما هي اهمية  
تيريز بانتفان في نظرك ؟ ان رسائلك اليها لم تكن إلا تسلية . ولكن  
يجب ان تعلم نتيجة هذه التسلية ، وسبب هذا الصمت : فمذ ثلاثة اسابيع  
سجرت على ابنة عمي الشقية في مستشفى المجانين ، بأفرائش . أفقدت لها  
ان تخرج منه يوماً ؟

ان تيريز بانتفان ابنة مزارع ميسور ، وقد كانت منذ حداثتها وحشية  
المجرفة ، تحسب نفسها فابفة لانها تحمل شهادة تكميلية .  
وانا ايضاً احمل شهادة تكميلية ، فلا يملنك الظن على اني احسدها .  
أتراني استطيع ان احسد مجنونة شقية ؟

كانت تدير كسولاً ، تحقر الاشغال اليدوية ، وتقية حق التزمت ،  
ومدعية بالتفوق الفكري حق الغرور : فقد كانت تحترق !  
لزمت عزلتها في مزرعة ابيها ، وعاشت في المكبت الدائم ، ثم  
اكتشفت كتب كوستال : الرجل الوحيد ، القريد ، الذي قد يستطيع  
فهمها .

قاطعت اصدقاءها ، وتليذاتها ، وجميع الذين تعرفهم لتتصرف الى  
قراءة مؤلفاتك ، والتأمل فيها اياماً كاملة منزوية في غرفتها ، عذقة بيهام  
الى جميع صورك التي اقتطعتها من الصحف ، وقد وجدناها معها ...  
واخيراً كتبت اليك .

وانت الذي ما يزال في مستقبل العمر ، ولا يدرك شيئاً من شؤون  
الحياة ، على الرغم من جميع ادعاءاته ( لم اقرأ من مؤلفاتك إلا كتاباً  
واحداً ، لكنني وجدت فيه الكفاية لأكرك ) ، انت الذي لا يمكن  
ان يكون اعنى الى حد لا يدرك فيه حالة ابنة عمي من خلال رسائلها ،  
اعني الجنون ، فموضاً عن انت يلقي برائلها في حلة المهملات ، راح  
يجيب عنها ، وينفخ النار ليزيدها ضراماً ! فعلت ذلك عن غطرسة ،  
عن نزعة فيك الى السادية ، وإلا فما هي الماطفة التي دفعتك الى هذا  
العمل ؟

كنت في نجوة من كل خطر . وكنت تعلم ان هذه الفتاة الرئيسية  
المسكينة ، المشدودة الشمر الى الصدفين ( وقد ارسلت اليك صورتها ) ،  
ان تغادر حقلها البعيد لتلحق بك الى منازلك الفخمة المترفة ؛ ولو فعلت  
مدفوعة بالوقاحة ، لما صعب عليك ان تأمر خدملك بطردها .

في شهر نيسان ، غادرت بيتها لتركب القطار الى باريس . فامسكت  
امها بها قبل فوات الاوان وصجرت عليها . وفي شهر نوار هربت من  
جديد ، فقبضنا عليها في بلدة « قير » على يد رجال الدرك ، فراحت  
تجثو على ركبتها وتقول للذين قبضوا عليها : « دعوني اراه خمس دقائق

فقط ، ثم اعتقلوني ! » واضطروا الى ابقائها ليلا في السجن ، بانتظار  
بحي ذوبها لاعادتها الى المزرعة . وفي حزيران اتتبتها نوبة هستيرية ...  
تلك كانت عاقبة تصرفاتك ، يا سيدي .

لن احدثك عن امّ تبكي ، وقد باعت مزرعتها منذ قليل لتدفع ما  
يترتب من أجور على ابلتها المجنونة في المستشفى . وعلى الرغم من ان هذه  
الام تجاوزت الستين من العمر ، فقد باشرت مطالعة مؤلفات بيار كوستال  
لتعلم من هو هذا الرجل الذي كان سببا لشقاها وشقاء ابلتها .

والآن ، بعد ان ارغمتك ، يا سيدي للكاتب الكبير ( ١ ) ، هل  
ادراك مسؤوليتك في هذه القضية ، فما الذي تنوي عمله ؟

اذا كان فيك شيء من الشعور الانساني ، وهذا ما ارجو فيه ، فاني  
اخبرك بان راتب ضميمتك في المحجر هو خمسة عشر الف فرنك في  
السنة . فاذا رأيت ان من واجبك الاسهام في هذا المبلغ ، فيمكنك التفاهم  
معي مباشرة ، فاعطي ما ترسله اليّ السيدة بانتقان التي لا تستطيع  
الاهتمام بهذه الامور لفة خبرتها فيها . واذا فضلت عدم الاجابة ، فلدينا  
رسائلك الموجهة الى تيريز بانتقان ، ونحن نعلم ما يلبي لنا ان نعمل بها .  
انطوانيت بلالشميل

ملاحظات كتبها كوستال على صفحة بيضاء من هذه الرسالة :  
« لم تكن هذه الرسائل بالنسبة اليك إلا تسلية » . أن اتسل مع  
اندرية ، لعل ، في بعض الاحيان . اما مع ت . بانتقان ، فلا ؛ بل  
عكس التلمية . حذرهما من الخلط بين المقدس والانيوي . جافيتها  
لاثير اشملازها مني . لم ادفعها الى الدير كيلا اتدخل في شؤونها الخاصة ،  
بل الى استشارة كاهن يستطيع ان يطلعها على قيمتها الحقيقية . جعلتها  
تشر بأنها شخصية ( وهي شخصية بالفعل ) . الرحمة وحدها كانت

مصدر كل ما عملت . اجل ، الرحمة على ابعد مدى ، ولا ذرة من الشر .  
الرحمة ، والعطف ، والتفهم ، والاحترام .

تهوّر ؟ ليكن . ولكن كل احتكاك بمخلوق بشري هو تهوّر .  
اجل ، تهوّر السخاء . فكل عمل مصدره السخاء اللصافي يرقد دائماً الى  
صاحبه كالبيومرانيخ<sup>١</sup> الذي يرجع الى من اطلقه . وليس في هذا الجبال  
اقل شذوذ عن القاعدة . فالذين يسمون بدافع السخاء يمكن تصنيفهم  
مسبقاً بين الضحايا .

واذاً ، فليست المأساة في ان قضية بانتفان سببت توجيه هذه الرسالة  
اليّ ، لأن هذه الرسالة ليست إلا النتيجة المنطقية للبواكير التي سبقتها .  
انما المأساة هي ان تيريز بانتفان ليست مجنونة مطلقاً . انها سبجينة ،  
في الخامسة والعشرين من العمر - لانها كانت على علاقة بالمناطق  
العليا من الروح . اختلفت عن الناس فحسبدها ، اي ابغضوها . فتيريز  
بانتفان سبجينة ، سحبر عليها عيظها لانها متفوقة عليه .

وما يعني أجنونة كانت او غير مجنونة ، ما دامت تتألم ؟  
لو كنت مؤمناً لصلّيت لاجلها .

---

١ - سلاح استعمله بعض القبائل الاسرائيلية مؤلف من شفرة خشبية قلبية وممتوجة ،  
ترد الى مطلقها اذا انحطت الخدش . وتستعمل هذه الكلمة مجازاً للدلالة على  
ان فاعل الشر يشقى بفعلة ، وطابخ اللحم آكله ، ومن حفر حفرة لاجبـه  
وقع فيها .

من  
أندريه هالپو  
سان لويستر  
الى  
بيير كوستال  
باريس

٨ ثور ١٩٢٧

عزيزي كوستال ١.

لست أندريه ابن أصبحتُ معك ، ولم أعد أعلم من أنت . وها أنا  
أكتب اليك لأطلعك على ما يلتابني من الحيرة ، على الرغم من شعوري  
بأنني أصغر في عينك بهذه « الرسائل الأخيرة » التي لا تنتهي ، لم يكفني  
أنك حطمتني في باريس ، فكان عليّ أن انحطم من جديد بما علمته عنك  
في كالبرغ . ثم ، اليك ما جرى : في غمرة حنقي المتزايد ، كتبت  
إلى بضعة أشخاص أعرفهم في باريس ، وهم مطلعون على أحوالك . كتبت اليهم  
أقول : ولماذا لم تتدروني بحقيقة كوستال ؟ فلجايرني بأن البارونة فليشيايه  
امرأة مجنونة ، وبأنه « من السخف المضحك أن أصدق ما قالته عنك من

---

١ - في رسالتها السابقة كتبت إليه مرة الراية : « الوداع » هذه رسالتي الأخيرة  
اليك ا » وكما أعلمت لك مرة من قبل ، عادت هذه المرة أيضاً إلى مراسلته .  
وهذا ما كان يقول لها في مختلف المناسبات : « أنك ستعودين إليّ ، شئت  
أم أبيت ا »

البذاءة» . وما أنا حائرة ، لا ادري كيف افكر لاهندي . فني بعض الاحيان اعتقد ان الباورنة صادقة ؛ وربما كانت هذه الاحيان من الفترات التي تشتد فيها آلامي ؛ ثم يخامرني الشك . واطن ان هذا الشك يروق الرجل الذي كتب اليّ يوماً يقول انه لا يجب شيئاً اكثر من «الحدود البهمة التي تتداخل فيها الاشياء وقتزج»<sup>١</sup> .

ولكنني غدت استمدّ القوة من حادث جديد يشده عزمي : لم اعد فتاة عذراء في الثلاثين من العمر ، لم يقبض رجل قط على كتفيها ليقول لها : « يا ابنتي الصغيرة » . فلي الآن مسراتي وسعادي ، انا ايضاً<sup>٢</sup> ، وهي لا تقلّ قدراً عن مسراتك وسعادتك معها تكن ( كم انا شديدة التسوق الى معرفة ماهية مسراتك وسعادتك ونوعها ... ) لي اصدقاء سواك ، وهم لا يدعونني الى مطاعم رخيصة افاياك ان تزدريني بعد اليوم . ولكن اعلم اني اذا تزوجت فستظل لية الغرام التي التمسيتها منك امنيتي الكبرى في الحياة . لن تتحرك حياتي إلا اذا تحركت انت . اذا لم تكن ما حسبتك في كايورغ ، واذا تبين لك يوماً انك تريد الاحتفاظ بي ، وانك تشتهيني ، وتود ان اكون في حياتك روحاً وجسداً ، وان لا بد مني ليديك ، كما انه لا بديل لك لديّ ، واذا رأيت اني اسوي الاضطراب والهموم التي يسببها الحب لرجل يحب امرأة ويمتد بها جدية بان يعاني لاجلها ما يعاني ، اذا فاطلبي ، فاكون لك ، أيا كنت الرجل الذي جعلني في عصمته ، ومهما تكن العلاقات التي تربطني به .

الوداع ! لقد احببتك ، واحببتك حباً عظيماً ، وما برحت احبك حتى الآن . اما انت فلا شيء يستطيع منعه من الرضى بان تكون محبوباً . احسن بالي لو سمعت احداً يهاجمك بهجر الكلام ، كما جرى منذ

١ - الرجل الذي تمنيه اندريه هو كوستال .

٢ - اخذ اخ محض . فهذا «الرجل» الذي تشكك الى حياة اندريه لا وجود له إلا في خياله . - المؤلف .

حين في كازينو كايورغ ، لا استطعت احتمال هذا الهجوم ، وقد اكون عاجزة عن احتماله في المستقبل ، أياً كانت النتيجة . ومهما يكن الجرح الذي أحدثته في بلينما ، فثمة أشياء مني لك ، ومنك لي ، لا يمكن ان تتمطل أو ان تضيع . ومن يدري ؟ فقد اترك بعدي اسماً تحمله شخصية تقتبسها عني في تلك الرواية التي وعدتني بها<sup>١</sup> .

أ . م

لا استطيع التفكير بانك ستزوج يوماً ! فاذا اقترنت بامرأة فريسة يهون الأمر ، لأنني اتمنى بالقول انها اعطتك ما اعجز عن عطاؤه ، اما اذا تزوجت بامرأة ليست أغنى مني ، فلا عجب اذا وجدت في هذه النكبة ما يفقدني الصواب .

( بقيت هذه الرسالة بلا جواب )

---

١ - اختراع محض . لم يعد كوستال يشبه من هذا النوع . - المؤلف .



ان في الادواء المتعضلة لشينا من الالوهية .

سان سيران<sup>١</sup>

تلقى كوستال كلمة من السيد دنديو قال له فيها انه يكون سعيداً اذا حظي بزيارته بعد غدٍ ، الساعة الرابعة بعد الظهر ، وقال في هذه الكلمة : « سنكون وحدنا » . وهكذا كتبت اليه يوماً ابنة دنديو تقول : « تعال ، سنكون وحدنا » . فاذا بالأب يكتب ايضاً : « تعال ، سنكون وحدنا » . فما اغرب شؤون هذه العائلة !

من عادة المحتضرين ان يكتبوا بخطٍ واضحٍ متقن ، لانهم يعتبرون السيطرة على اعصابهم من شروط صيانة السمعة والشرف . ولهذا السبب نرى السكران يعنى بخطه عنابة كبرى حين يكتب . اما خط السيد دنديو فكانت غريباً ، فوضوياً ، مبهم الكلمات ، كأنه جثة خط انطرحت قبل الجثة الاخرى . وقد كتب رسالته بالقلم الرصاص .

وكان السيد دنديو قد لزم غرفته لا يفادحها مطلقاً . فلما دخل كوستال الى هذه الغرفة التقى بمرضاً يخرج منها ، وله سحنة لا يود احد ان يراها ليلاً في الغابة . والكلمة الاولى التي استقبل بها السيد دنديو

---

١ - ليس « سان سيران » قديماً كما يندرج اسمه الى القرن ، انما هو من الباع الجانسينية في فرنسا ( هذه الملاحظة خاصة بالجيل الفرنسي الطالع ) . - المؤلف .  
وسان سيران لاهوتي فرلسي ( ١٥٨١ - ١٦٤٣ ) صادق جانسينيوس مؤسس « الجانسينية » ، وتولى رعاية النفوس في دير يود رويال حيث كان له نفوذ عظيم .

ضعفه كانت هذه :

- ألا تشم رائحة المرض في هذه الغرفة ؟ اني احرق ورق ارميليا<sup>١</sup> .  
أحب رائحته ؟ ... كن واثقاً ان الكرامة الوحيدة الجديرة بالاعتبار  
هي الصحة . والله يعلم كم كنت في حياتي الماضية رجلاً سليماً معافى ؛  
اما اليوم ...

وكان صوته قد اصبغ خافتاً ضعيفاً كصوت امرئ انقطع عن الكلام  
تقريباً ، او لا قدرة له عليه ، فاصبح عديم الاهتمام بنوع الصوت الخارج  
من بين شفتيه . وكانت عيناه تبدوان كأنها مجللتان بغشاء . ولم يكن  
قد خلق ذقنه ، فراح يشرح سبب هذا الابهال قائلاً :

- عملت كثيراً لأجل هؤلاء الناس . كنت اسلق ذقني لأجلهم ، وأبعد  
الطيبة والاحسان لأجلهم ؛ وما انا ارى اليوم انه لا يجوز ان نحاول  
الاحسان الى الذين لا نحبهم . لا شيء في الحياة يتطلب من العفوية  
والنزعة الطبيعية الخالصة ما يتطلبه عمل الخير . وقد اخطأت في هذا  
المكان ايضاً بارهاق نفسي وتحميلها فوق طاقتها . ثم ان الخير الذي نعمل  
يفسد لسبب وجيه هو اننا اخطانا في حبه .

رجل كوستال يقول في نفسه : لا يجوز ان نحاول الاحسان الى  
الذين لا نحبهم ، وهو يفكر باندرية .

وكان قد ادرك منذ مقابلته الاولى للسيد دنديتو ان هذا الرجل  
المختصر لا يحتم إلا بنفسه . فاعجبته هذه الميزة ، واحس بأنه يعطف  
على المريض عطفاً صادقاً . ولكنه لاحظ ان دنديتو يزداد انطواءً على  
نفسه بقدر ما يقترب من الموت .

وكان كوستال يعتبر اقلية الشيوع امراً طبيعياً ، لانها من صميم حركة  
الحياة . فكيف يستطيع المرء ان يحب العالم بعد ان يكون قد اختبره

١ - ورق قنبث منه رائحة عطرية اذا احرق كالند وبخور .

طيلة حياته ؟

قال السيد دنديو :

— ان الرجل الذي خرج من هذه الغرفة ، منذ لحظة ، هو اقدم  
اصدقائي . فالكلفة مرفوعة بينه وبينى منذ خمسين عاماً ، أفندري ما هو  
الموضوع الذي كان مدار حديثنا ؟ في الربع الساعة الاولى حدثني عن  
مشروعات رحلاته الى مصر والهند وسيلان ، وكان منقشياً بحالات هذه  
الرحلات ؛ وفي الربع الساعة الثاني طلب اليّ رسائل توصية لابنه ؛ وفي  
الدقائق الخمس الاخيرة ، اي الدقائق الخمس الاخيرة من صداقتنا ، لاني  
ساموت قبل ان يعود من رحلته ، ما انقك يقسو علي ويبرنجني بلا هوادة  
لاني انا في غرفة منفلقة النوافذ . هذا ما قاله صديق لصديق له على  
فراش الموت ، مع ان عمر صداقتها نصف قرن .

وكان دنديو قد التقى بهذا الحديث فكرباً مع كوستال دون ان  
يدري ، فاجابه الكاتب :

— كل ما في الامر ان هذا الرجل خالٍ من الخيال .  
وكانت زقزقة السنونو تأتي مثابكة من اشجار الشارع كأنها  
اضاميم كثيرة من الاصوات ، فقال كوستال المعجوز المحتضر قائلاً :

— واين الفيروثال ؟  
— في مكانه وعلى أتم الاستعداد .  
— لن تأخذه ابداً . كلت عندنا قديماً في البيت هرّ هرّم اصيب  
بفرح لا يندمل لأنه كان يحكه دائماً ، فاعطيناه قليلاً من السم . ولكن  
امي ندمت على فعلتها ، واحست بتبكيت الضمير ، فراحت تقول :  
« على الرغم من قرحة ، كان من المحتمل ان يعيش بضع ساعات طيبة » .  
وانت ستقول ، كلما همت باخذ الفيروثال : « ربما عشت بعد بضع  
ساعات طيبة » .

انما كنت لا اتناول السم ، فلاني لا اعاني ألماً شديداً . كل ما

احس به اني متعب ؛ لجل ، متعب ! أتدري ما الذي يجعلني متعباً ؟  
ككوني عملت كثيراً من الخير في حياتي ، وخدمت ائمة كثرين . كنت  
منذ حين امزق ما لدي من الرسائل ، فوقعتُ بينها على عشر او خمس  
عشرة وكلها طلبات مساعدة ، او شكر على خدمات سابقة . واذا  
سلمتُ بأن نصف الذين نخدمهم يشكرون ، عرفتُ عدد الذين  
مددت اليهم يد المساعدة . ولم هذا العذاب ، يا الله ؟ تذكر ، يا سيد  
كوستال ، دائماً هذا القول : ان الذين نساعدهم لا يستحقون قطعاً  
مساعدتنا .

- اني سعيد جداً بكوني لا اخدم احداً . فانا اذاً غير كفء للحكم  
على اعمالك . لكن كيف يتألم من نكران الجليل رجل له ما لك من  
القدر والمكانة ؟ فالحمقى وحدهم يؤلمهم نكران الجليل . أياكون السخاء في  
نظرك ضرباً من الاعارة طمعاً بالاستعادة ؟

- لست متعباً من نكران الجليل . انما السخاء الذي بذلته هو الذي  
يرهقني . كان سخاء عديم الفائدة ! وكما اضمت في سبيله من اوقاتي اآه ا  
كن انانياً ، يا سيد كوستال .

... اني اناني ا

- اذاً ، فالحياء لك ا

ثم قال السيد دنديو انه متعب للغاية ويود لو يموت . ثم جعل يشرح  
نظرية مثلي كوف<sup>١</sup> كانه واضحا ، فقال : لا يموت الانسان الا اذا اراد  
حقاً ان يموت .

واستطرد بصوت لا يخلو من القوة :

- اني اكره الذين يخافون الموت كباسكال ، الخ...

---

١ - عالم روسي ( ١٨٤٥ - ١٩١٦ ) تخصص في درس الحيوان والجراثيم ، وكان  
من التابيين لباستور . وضع نظرية في وظيفة الخلايا في الجسم ، ولخص دراساته  
في كتاب عنوانه : « الناعة » .

فسر كوستال بهذا الاستعداد الذي يعنيه من التظاهر بالأسف والحزن . واستأنف السيد دندو حديثه قائلاً :

- وبعد ، فاني اسأل نفسي : لماذا عشت ؟

وكان جامد للنظر . فاجاب كوستال بصفاقة :

-- عشتَ لأنه لم يكن في وسعك ان تعمل شيئاً آخر . فحياة كل رجل تقريباً تعاني التشويش بدافع من حاجة صاحبها الى تبرير وجودها . والنساء اقل تعرضاً لهذا النوع من الضعف .

لو كنت سعيداً في حياتي لما حاولت تبرير وجودي ، لان هذا الوجود كان قد اكتفى بنفسه . ولكنتي لم انعم بالسعادة . وقد اكتشفت ان عدم تنعمي بالسعادة هو الذي سيسبب موئى في الحادية والستين من العمر ، عوضاً عن ان اموت في السبعين او في الخامسة والسبعين كما كان من المتوقع بالنظر الى المبادئ الصحية التي اتبعتها في حياتي . في وسعك ان تتصور حالي متى علمت اني عشت اربعين عاماً دون ان التقى في جوارى شخصاً ذكياً . اني لمتعب حتى العياء من الاشخاص الخالين من الذكاء ...

-- لكي تجد امرأة ذكياً يجب ان تبحث كثيراً ، كثيراً ...

-- ولما اشرقت على الموت التفتك ا

... هذا افضل لنا ، فلو تعارفنا قبل اليوم لما استطعنا الاتفاق

والانسجام .

فسأله السيد دندو بتواضع :

-- لماذا ؟

-- لاني كنت سئتك .

فقال السيد دندو ، وقد استولت عليه البهشة :

-- كيف تستطيع ان تقول لي هذا القول ؟

-- اقول لك هذا القول لاني اعلم انك لن تفهم .

- اجل ، اني ابله ! ألا تعتقد اني ابله ؟ اجل ، اني مُبهرم  
ابعث للضجر .

وارتسمت على وجهه كتابة خفيفة فيها كل معاني المرارة والآلم ،  
ثم قال :

- اجل ، اني ابعث الجأء ، وكثيراً ما أفهمني الناس ذلك . ولكنني  
ارد ان اعلم هل زوجتي تعتبرني احمق عن يقين ، ام تتظاهر بهذا الاعتبار  
لتفيلظني ؟ والحق يقال اني اصبح احمق بالفعل حين اكون معها .  
- ألم تصبح اشد ذكاء منذ ان حل بك المرض ؟  
- بلى ، غدت افكر اكثر .

- عذراً ، لا اعتقد انك تفكر ، اعني التفكير بمعناه الأصلي . وانا  
ايضاً لا افكر . وقد حاولت مراراً ان ارى بوضوح كيف يكون  
التفكير ، ولكن الوقت كان ينقضي ، وانا حيث كنت ، لا افهم من هذا  
الامر شيئاً .

- ترى اني افكر تفكير هار ، أليس هذا ما تعنيه ؟ كانت عائلتي  
ايضاً تعتبرني هارياً في كل ما اعمل ، ولو كان لي عمل مستقر او وظيفة  
لاختلفت الحال . فبعد عشر سنوات او اثني عشرة سنة اصبح المراد  
عائلتي يتمنون ما اقول عديم الاهمية . فتدحرجت على منحدر ، وغدت  
عاجزاً عن التصعيد حتى لو كان امامي متسع من الوقت . ولو جاء  
الوزير شخصياً ليقولني وساماً وانا جالس على هذا المقعد لما ادرك احد  
من اهلي سبب هذا التكريم . أما أطلعتك على الرسالة التي كتبتها الى  
الوزير لارفض وسام جوقة الشرف ؟

وتعمد لهجة الاستعثار وهو يذكر الوسام ، فلجاب كوستال :

- بلى ، اطلعتني عليها .

- عذراً ، ان ذاكرتي ضعيفة .

وشده نظره لحظة ، ثم قال :

- هل رويت لك قصة الرجل الذي فضل ان ينال وساماً من رتبة ضابط على ان يزيد عمره عشر سنوات ؟  
فحرك كوستال رأسه سلباً . فقال السيد دنديو :  
- لأحد اصدقائي اخ في الثانية والسبعين من العمر . وكان هذا الاخ كثيراً لاعتقاده انه كان يجب ان ينال الوسام من رتبة ضابط منذ سنتين . فقال له صديقي مازحاً : « اظن انك تفضل ان تموت بعد سنة والوسام على صدرك » على ان تعيش عشر سنوات بلا وسام » .  
فاجاب الاخ : « بكل تأكيد » ، دون ان يتسم . فما قولك ، أليست الحياة جميلة ؟

- بلى . لو خلقت انا العالم لما جعلته افضل مما هو .  
فابتسم السيد دنديو حاسباً ان كوستال يهدف . ولم يخطر في باله ان الكاتب يحب الكثرة حباً جماً . ثم قطب حاجبيه ليستعيد نظره الشارد ، المتجول بين كل ما في المكتب من اشياء ، وجعل يحدق الى جاور خزانة صغيرة لحفظ الاوراق ، وهو يقول لكوستال :  
- ألتفضل بسحب جارور هذه الخزانة ؟ ان فيه جميع الرسائل المتبادلة بيني وبين امي ، لما كنت شاباً اهزب ، واود ان اقدمها لك .  
وسحبها صرة . فاذا دخل احدكم الى هذه الغرفة وسألك عما تحتوي هذه الصرة ، فقل له ان فيها قصاصات جرائد عن الرياضة البدنية .  
ردد كوستال في نفسه كلمة : « اعدام » ، وهو متعجب من الطريقة التي كان السيد دنديو يتعمدها لاجتناب ذكر ابنته ، ولتجاهلها ، او لجل مخاطبة على الظن انها من الذين يزدريهم .

وتذكر كوستال انه قضى منذ ايام لما دخلت مولانج على ابها وهو يتحدث اليه ، واحسن ان ذكرها يخفف من حرارة الحديث بينه وبين العجوز لقله اهميتها بالنسبة الى الجو والمستوى اللذين يجري فيها هذا الحديث ؛ بل اكثر من ذلك : قلل اهميتها بالنسبة الى

السيد دنديو .

قال كوستال :

- انك تراني للمرة الثانية ، وتريد ان تعطيني رسائل امك !

- وبين يستطيع المرء ان يثق ان لم يثق بالذين لا يعرفهم ؟

- تعطيني هذه الرسائل في يوم آخر .

- لن يكون لي «يوم آخر» ، على ما اظن .

- بلى ، لا تكن متشائماً .

- أنظن اني استطيع العيش بعد وقتاً ما ؟

طرح السيد دنديو هذا السؤال وقد اشرق وجهه ، ولعلت عيناه ، على الرغم من قوله منذ قليل انه يود لو يموت ، وانه يرحب بالموت مسروراً .

وطلب السيد دنديو ورقاً وخطاً ، ثم جعل يصر رسائله ورسائل امه ، فكانت تقلت من بين يديه ، ولا يستطيع القيام بحركة دون ان يقع شيء منه او حوله ، فراح يقول :

- كل شيء يقع ... كل شيء يقع ... فالاشياء تفر هاربة مني . انها تحس بانني على وشك ان اصبح جثة .

ولما دنا منه كوستال ليصاعده بعمل الصرة قال له :

- ارد ان تخبرني بصراحة اكرهية رائحة لهائي ؟ فقد تغيرت كثيراً منذ حلّ بي المرض . منذ ستة اشهر لم يكن وجهي هكذا ، وكان كل من يراني يحسبني في الثانية والخمسين او الثالثة والخمسين من العمر . ولاحظ كوستال ان بين الرسائل قصاصات جرائد فيها اخبار المناسبات الاجتماعية منذ عام ١٨٩٠ ، وقد أشير فيها بخط احمر الى اسم السيد دنديو . لقد تذكر هذا الرجل لحياته الاجتماعية وما فيها من زيارات وحفلات حتى انه باع ثيابه الرسمية علناً للاعراب عن زهده بالمظاهر . ومع ذلك دفعه حب الظهور الى الاحتفاظ مدة اربعين سنة



بهذه القصصات الزرية الحاملة اخبار حفلات ريفية ، لأن اسمه مطبوع فيها . لا شك في ان الطبيعة اخطأت حين ضمت على السيد دندو بموهبة التعبير عن خواطره ، فقد ولد ليكون من رجال القلم .

سأله كوستال :

— ما هي غايتك من اعطائي هذه الرسائل ؟ تريد ان اناقها ؟ تريد ان احتفظ بها من غير ان اقرأها ؟ اذا كان الامر كذلك ، فما الفائدة من حفظها ؟ واذا كنت تريد ان اقرأها ، فبأي صفة يجوز لي التدخل في هذا الموضوع ؟

— اني اقسم هذه الرسائل للكاتب الروائي . اقرأها ، فقد تجد فيها اشياء لا تخلو من الفائدة لرواياتك .

قال كوستال في نفسه : « ما اغرب هؤلاء الناس ! » وخامره شيء من العجب ، على الرغم من اطلاعه على اشياء كثيرة ادهشته في ذلك اليوم . ثم جعل يخاطب نفسه قائلاً : « كثيراً ما تلقيت من قارئاتي ، ما رأيتن في حياتي قط ، دفاتر كاملة تشرح فيها تفاصيل حياتهن الزوجية الحميمة على أمل ان اجسد فيها بعض الفائدة لرواياتي » ؛ اما ان يقدم رجل على عمل من هذا النوع ، فامر يدعو الى الاستغراب ! وما عساه يكون الدور الذي تقوم به المرحومة السيدة دندو الام في هذه الرواية ؟ أكان يسرها ان تعلم ان ابنها سيعطي رسائلها يوماً ما لرجل مجهول — فاني مجهول بالنسبة اليه — ليفيد منها ما يكتبه ؟ ما اغرب الانسانية ! انها حقاً خليط من افس فاقدي الشعور .

ورفع السيد دندو يده الى جبهته وقال :

— هذه السنوزات ، ما افزع ضجيجها ! فالسنوز ، والشمس ، وكل ما هو جيد وجميل يزعجني حتى الازهاق . منذ قليل كان احد العمال يغني على الدرج . ولا بد ان تكون لاحظت انهم يحدون دهان الدرج . لا نستطيع ان نتصور كم كان صوت هذا العامل رخيماً وحسن الوقع .

فرحت اقول في نفسي : « انه في ثياب الشغل » انه لا يقتسل ، انه غليظ ، ولكن صوته صافٍ جميل ... كأنه آتٍ من عالم آخر .

— وهل كان يتعبك هذا الصوت ايضاً ؟

. لا .

— لا سمحت بداية جملتك ظننتك تريد مصارحتي بان غناء هذا العامل

كان يزعجك كما يزعجك الاشياء الاخرى ...

-- عذراً لم اعد اذكر كيف كانت بداية جلتي . ان ذاكرتي ضعيفة

للغاية ...

وراج يعبث بفوارير ادوية كانت على طاولة صغيرة الى جانب مقعده ،

لقال كوستال :

— وخلاصة القول انك لا تعلم اقصية كانت اغنية العامل عليك ،

أم سائفة ومفيدة ؟ وانت لا تدري ايضاً أيحيء موتك في حينه ، كما

قلت لي منذ قليل ، أم هو يزعجك كما يبدو لي من حركاتك واقتوالك ؟

فالموت يزعجك وانت تتعبه ، والرعب والفول يسيران جنباً الى جنب ،

كما ان صوت العامل أتعبك واعجبك ، فسار تعبك وعجبك جنباً الى

جنب .

فاجاب السيد دندير كتليز سأله معلمه عن اتجاه الفولك استريم<sup>١</sup> :

— لا ادري .

وقبل ان يتكلم كان قد شد قبضتي بقوة ، حتى كانت اظافره تدمي

راحتي ، كأنه يبذل جهداً كبيراً ، ثم وضع قبضتي على مسندي المقعد .

فاستطرد كوستال قائلًا ، وهو ينظر جانبيًا الى صورة مرسومة على

المسجادة :

---

١ . مجرى مياه حارة يلعب في خليج الحصىك ، ويتجه شرقاً بشمال عبر المحيط

الاطنطي ، ويتفرع الى مجاري عديدة ، وله الفضل في تحسين المناخ في بلدان

اروياً القارية والشمالية .

- كنت اسائل نفسي لماذا احببتك ؟ أما الآن فقد أدركت السبب .  
ذلك انك مثلي تماماً . وما اعطيني رسائل امك إلا لأنك تعلم اني  
مثلك . هذا ما فهمته فجأة في هذه اللحظة .

واخذ يتم بحرارة وابتهاال دون ان يرفع نظره عن السجادة : يا  
إلهي ، اجعله يعيش الى الأبد !  
فانتفض السيد دندير وقال :

- ماذا قلت ؟ انك ، اذا ، تؤمن بالله !

فاجاب كوستال بلهجة تتم عن افطع معاني الاحتقار :  
- انا ، اؤمن ؟

- في اجتماعنا الاخير قويتني على الالحاد . وما انت الآن تعيد النظر  
في موقفك ، وفي هذه الساعة بالذات ، وانا على ما عرى من الضعف ا  
فالناس ، كالشعوب ، لا يتوقفون عن الانحطاط منذ اليوم الذي يبدأون  
فيه بالاستماع الى احاديث عن الله . اذا كانت هناك حثالة خلقية في البشر  
لا تستطيع الاستغناء عن الدين ، فما حيلتي ؟ اما انت فاذا كان لك دين  
فاجعل به ، على الأقل ، وامره عن الميون .

- انك ستوت قريباً . أفلا تستطيع الاهتمام بشيء اهم من الله ؟  
قلت لي منذ قليل انك كنت رجلاً سليم الصحة . والرجل السليم الصحة  
لا يهتم بالله .

- ولكنك ترحم انك ملحد وتفكر دائماً بالله .

- ان ما تقوله سخيف مضحك . كنت انتظر منذ زمن بعيد هذه  
الافكار المبتذلة التي تنبع من الحالات النفسية الرخيصة .

فاجاب السيد دندير بصوت استعاد لطفه وعذوبته ، وقد لمعت في  
عينيه بوارق الصداقة :

- كم تحب ان تشتمني !

- اجل ، احب ان اكون غليظاً في تصرفي حيالك ، لأنك تقول

اشياء تغيظني في اغلب الاحيان . فانت على عتبة الموت تحاول ان تتباهى  
بنظرتك الى الحياة في لحظات معدودة ، كتلميذ يسارع الى القاء نظرة  
عجلى على برنامج البكالوريا قبل الامتحان بثلاثة ايام . ولكن لا تقلق .  
اذا كنتُ احب ان اشتبك ، فهذا لا يؤثر في شعوري بحوك .

... لست قلقاً . انك لا تقلقي مطلقاً . أبعثك قولي ؟ اخبرني بمراحة  
لماذا تحتقرني ؟

.. لي ملء الحق في ذلك ، ما دمت احتقر نفسي . ولي ملء الحق في  
ان أقتل ، اذا كان لا يعني ان أقتل .  
قال هذا مفكراً بحالة اضطراره ، يوماً ما ، الى قتل سولانج . فاجابه  
السيد دندير :

... لا تحتقر الطبيعة البشرية الى هذا الحد ، فانت تعلم ان فيها فضائل  
جديرة بالاحباب .

- ابي احتقرها بما فيها من فضائل .

- لم تبكس ؟

- لاني ارى نفسي في المرأة .

وبالفعل ، كان كوستال في تلك اللحظة قد رأى صورته في المرأة  
فسر بها .

قال السيد دندير وهو يبتسم بدوره :

- هذا امتحان البكالوريا بالنسبة اليّ . أتراني المبح ام ارسب في  
امتحان اللجنة ؟ مها يكن من الامر ، فانا الآن على ابواب الابدية . واعتقد  
انك لو صحتت مؤمناً لساورك الخلد من ابدية ليست مفصلة على  
قياسك ... ومصنوعة خصيصاً لك :

ركان يتكلم عابثاً بالقوارير ، والانيب ، والحبوب ، ينقلها من مكان  
الى آخر ، فسقطت قارورة من يده ، بينما كان يقول :

- اتى احذر الابدية بحذ ذاتها . فلو كان الله موجوداً ، لكان حتماً

ذكياً ، ولو كان ذكياً لما اوجد الحالات النهائية .

— هذا برهان جديد عن عدم وجود الله .

— كنت اعتقد ان « براهين » وجود الله هي منتهى البلاهة البشرية ،

لكنني ارى الآن ان براهين عدم وجود الله تستطيع النعاب في بلاحتها الى مدى ابعد .

— لا بأس ، ولكنني احب برهانك .

— وانا افضل كأساً من البورتو الصرف .

قال هذا على أمل ان يقدم له كوستال كأساً . وكان العرق يسيل من جسده ، ويبلل قميصه ، ويتجمع قطرات كبيرة على وجهه ، كأنه خارج من نهر . فالحياة كانت تخرج من جسده وقعةً بشكل هذه القطرات من الماء .

واستأنف المبحور حديثه قائلاً :

— أصبح ما قلته ، يا سيد كوستال ؟ أصبح انت ما قلت

لم يكن إلا اسلوباً في اطالة الحديث ؟

— اقم لك بذلك . ولو شئت انت اشرح لك كل شيء لطلال بنا

الامر ...

وكاد يقول له : « ستموت بعد ثلاثة اسابيع ، فما الفائدة من التعب لشرح بعض الامور لك ؟ وما الذي يخفي من هذه المسألة ؟ اني لا اهتم إلا بشهواني » . ولكنه لم يقل شيئاً من هذا ، بل اشاح عنه كما كانت الآلهة اليونانية تضح عن الجثث . إلا انه كان يشعر برغبة خفيفة تدفعه الى ان يحب في السيد دندير الناحية اللبائسة ، للناحية التي فقدت آخر رجاء بالحياة .

واملك السيد دندير يد كوستال باصابعه المتشنجة ، ثم قال له :

— قل لي انك لا تؤمن بشيء !

— لا اؤمن بشيء ! وانا سعيد لاني لا اؤمن بشيء .

— هذه سعادة الانسان الذي لا يعرف الله ! شكراً لك .  
قالها السيد دنتيو وهو يحدق الى عيني كوستال بتظارات فيها كل  
معاني الامتتان وعرفان الجليل ، ثم استطرد قائلاً :  
— هذه السنوفرات ! لماذا جاءت في تموز ؟ انها تتجمع في ايلول قبل  
ان ترحل . ولكن كل شيء مختلف ... ألا ترى هذا الاختلاف ؟  
وأصر قائلاً :

— ألا تدبني رأبي ؟ ليس للطبيعة لاموس بدورها . وهذه الفكرة  
تسبغ عليّ فيضاً من الراحة !

وصمت ، فاذا بوجهه يعود الى التعمير عن القلق والاضطراب ، بعد  
ان كان قد صفا فترة وران عليه الهدوء ! ثم ما لبث ان اكفهر  
واكتسى لوناً ازرق خاربياً الى السواد ، وقد تجمل بالعمق . فقال له كوستال  
بصوت خافت :

— ماذا ارى ؟ هل بدأت تموت ؟

— لا ، ارجوك ان ترن بالجرس ... وبسرعة ! يجب ان اذهب الى  
المرحاض حالاً ... ان حاجة ملحة من هذا النوع ثلثاني من حين الى  
آخر ... كل شيء فيّ ينحلّ ويترنخي ... اخرج من هنا ، اتوسل اليك  
ان تخرج . ألتبس منك الصفيح ! ولا تلبس الرسائل ...

فرن كوستال بالجرس ، وخرج ، ودعا المرحض ، ثم تسلل الى الخارج  
مسرعاً يقول في نفسه وهو مرهق الاصاب أكثر من المجرى المحتضر :  
« متى يموت ، فيخف هذا المذاب الذي يسببه لي ، واجد لنفسه عذراً  
بان أوان مساعدته قد فات ؟ »

وفي الشارع ، انطرح بعباء على احد البنوك ، وجعل يهوي وجهه  
بقبعته . ثم أشعل سيكارة وقال : « لم يقدم لي دفتير سيكارة بحجة انه  
يموت » . وكانت السنوفرات فوقه تملأ الجو زقزقة .

فكّ كدسة من الرسائل ، وقرأ العشر الأول منها ، وألقى نظرة

سريعة على الثلاثين التالية ، وكان عددها كلها اكثر من مائة ، وهي يحملتها نموذج من أقدس ما في العالم من العلاقات الوائقة الحنون بين ام وولدها ؛ نموذج من الحب ، من اصفى واصدق ما في الحب . ومع ذلك ، فقد كانت هذه الرسائل مثال التقافة والبلاهة ؛ كانت لا شيء ، على الاطلاق .

وكانت هناك فوهة مفتوحة من فوهات الجمار ، فلف كوستال كدسة الرسائل والقى في الجرور بجميع مراحل الحب التي توالى بين السيدة دندو وولدها .

وبعد ثمانية ايام ، في ١٥ تموز ، كان كوستال في تولوز ، فتلقي برقية من سولانج تلبثه برفاة ايها .

أترأ مات موتاً طبيعياً ، ام تناول حبوب الفيروبال ؟ لا ريب في انه مات موتاً طبيعياً . ولكن هذه المسألة قليلة الاهمية . فقد مات ، وانتهى الامر .

ومشى كوستال طويلا في الشوارع ، على غير هدى ، ورقية سولانج في يده ، وهو يحس بارتخاء عام في جسمه ، ويعجزه عن القيام باقل ره فعل لو مرّ به احدهم ودفعه بكتفه او بيده . واغرورقت عيناه بالدموع ، فقال في نفسه : « ليس بين الناس من يراني الآن ولا يعتقد جازماً اني ابكي لأن امرأه خانتني ! »

واستأنف حديثه مع السيد دندو ، فقال له : « اني ابكيك ، انت الذي لم يبك احداً قط ، لما فيك من الالمانية التي لمستها بيدي ... انت الذي كان يحاول ان يزقن لي المستقبل ، وهو يعلم انه لا يجوز له ان يعرف هذا المستقبل » .

وذهب الى المطعم ، فلم يتطع ان يأكل . وكان وجهه متجهماً كئيباً ، وقد عجز عن اخفاء حزنه وألمه ، فقال في نفسه : « سيظن الناس اني اعاني ازمة مالية » . ولكنه هنا نفسه لوجوده في تولوز يوم

الدفن ، لأنه يأبى الاشتراك في هذه المهزلة من التصنع مها كلفه الأمر .  
ولما عاد الى الفندق ، اراد ان يكتب الى سولانج وأمها ، لكن يده  
كسبت على العلاف ، دون ان يفتبه : « السيد ... » ، فتناول غلافاً آخر ،  
وكتب عليه : « السيد شارل دنديو » والعنوان كاملاً ، وجعله امامه ، وهو  
يقول في نفسه انه لن يتسنى له ، بعد اليوم ، ان يكتب هذا العنوان ...  
فاغرورقت عيناه بالدموع من جديد ، فقال في نفسه : « لماذا تبكي رجلاً  
بعد موته ؟ كان الاجدر بنا ان نبكيه في حياته ، وان نبكي حياتك . من  
الافضل للمرء ان يكون ميتاً من ان يعيش وهو ميت » .

وتذكر الدموع التي ذرفها منذ بضع سنوات على كاتب كبير ، وكيف  
كانت تبدأ حيناً ، ثم تفور طوال ساعات متوالية ، كأنها تتجمع في يلبوعها  
لتتدفق بغزارة ، حتى قالت له امه بشيء من الاستياء والتعجب : « لم  
تبكي اباك هكذا عندما وافاه الاجل ! » وفي هذه الفترة ، لذوق  
كوستال نكهة العبارة التالية التي خطرت في باله : « لن يكون لي  
اصدقاء لاني اعاني آلاماً مبرحة عندما افقدكم » . وكانت هذه العبارة  
من التي نقولها السيدات المهرمات عندما يموت كلهن العزيز المدلل .

ولكن كوستال واح يسائل نفسه هل كان السيد دنديو حديقه . ثم  
قرر ان يرسل برفية واحدة الى سولانج وأمها ، لانه لم يدرك « تكبير  
الاهتمام بهما » .

ولما استلقى على سريره فتمتد عليه النوم ، فجعل يحرك ساقه فوق  
الغطاء حركة متدرة ، كما تعلم انا . وهي تموت منطوحة على الارض .  
ولشأ في نفسه شعور بوحدة الحال في الألم بينه وبين الخير التي تموت ،  
وامتدت منه سلسلة طويلة ، فاتصلت بالحيول التي تموت .

واخيراً تذكر جملة اسرعت انتباهه في احدى رسائل ابنه الذي  
كتب اليه على اثر وفاة احد رفاقه بالتهاب السحايا ، قال : « اني حزين للغاية ،  
لكن يجب ان اعلل نفسي بانني سأعزى » . وعلم كوستال نفسه بانه



هو ايضاً سيتعزى ، فقال في سرّه : « ان الطبيعة جرحتي . والطبيعة  
سكشفتني من جرحي بالنسيان . وسيأتي يوم تصبح فيه وفاة السيد دنديو  
في نظري عديمة الامة ، كما تصبح ذكرياتي عن ابنته من الامور التي لا  
ابالي بها . وبما ان السبب الذي ييكيني اليوم هو الذي يجعلني لا ابكي  
غداً ، فان بكائي اليوم لا يعدو كونه ضرباً من اللعب » .

واستيقظ كوستال في الساعة الرابعة صباحاً ، فخطب نفسه قائلاً :  
« ان فتاة تعيش وحيدة مع امها لا تشك بانها ستسقط حتماً ، والصبي  
كذلك ، لفة تأثير الام على ابنائها ، اللهم إلا اذا كان فائراً شريراً .  
ولكن سولانج سقطت وانتهى امرها . ومات السيد دنديو للاشياء ،  
فيا للحماقة !

قال هذا وغرق في النوم من جديد .



من  
سولانج دلفينو  
باريس  
الى  
بيلار كوستال  
شباك البريد  
لؤلؤ

١٨ ثور ١٩٢٧

لم هذا السكوت ؟ لم نلتق منك إلا برفية موجهة الى امي . ألم  
تعديني لدى سفرك بأن تكتب اليّ بعد ثلاثة ايام ؟ ألا تشعر بأن معلقة  
بالبريد اليومي ساعة بعد ساعة ؟  
ان هذه الحياة التي لا تطاق مستمرة منذ خمسة ايام ، فاستحلفك  
ان تضع حداً لهذه الحالة . واتوسل اليك ان قد اليّ يد المساعدة . لاند  
فرغ صبري .

وإلا فنكون قد سافرت نهائياً ، وريد ان تهجري . واذا كان الامر  
كذلك فصارحني بالحقبة ، فهذا افضل من ان لا اعرف .  
لك  
اقبلك .

روز بورغ

ملاحظة : وضعت لك في هذه الرسالة غلافاً عليه عنواني وطابع  
بريد ، فانا كانت الكتابة اليّ تعجلك ، لما عليك إلا ان تكتب اسمك  
على الورقة دون ان تريد كلمة ، فافهم انك لم تهجري .

دفن ابي المسكين هذا الصباح . ما افطم الفراغ الذي خلّفه لنا ا  
ماكتب اليك ثانية لآخبرك كيف مات . ابي وامي مسروران لأنه  
رضي بان يستقبل كاهنًا قبيلا وفاته .



## من مفكرة سكوتال

ها هي روزبورغ الباردة !

جئت رسالتها بيدي ورحلت اسير بين الناس مطرقاً ، اعرض شلتي  
من شدة التأثير .

ها هي بدورها ترسل صيحات كأنها حيوان ، ترسل صيحات كهر\*  
سجين في سرب . لقد جئت بدورها . جئت اندريه بعد اربع سنوات .  
وجئت ج . ر . بعد سنة . و اوندشتاين بعد ست سنوات . وكثير بعد  
سنة . أما هي فقد اصبحت مجنونة بعد شهرين . ما افظع ان تكون  
الفتاة هادئة !

ما كاد ياس اندريه يبدأ حتى هب علي هذا اليأس الجديد . اني اسمع  
دائماً عويل النساء ، فهذه الضجة من البكاء ترافقني طيلة حياتي .  
ان تنهيط رسالتها مؤسف للغاية .

كالتدريب على السحر ، اطلقت هذا الحب البكر ، هذه القوة الطائشة  
التي لا أسيطر عليها . في الاوبرا الهزلية ١ ، كانت ورائي . ثم تقدمت ،  
مشيت بسرعة اكار مني حتى وصلت الي ، وها هي الآن قد سبقتنني .  
ويجئني الي انها متضي عندما أصل .

أتصور هذه الرسالة على شيء من المبالغة ؟ أترامها كرسائل الغرام

---

١ - اشارة الى ان علاقته بها شبيهة بتمثيلية هزلية .

التي كنت اكتبها وانا في السادسة عشرة من العمر ، فاخطتها في الساعة الرابعة بعد الظهر ، واؤرخها الساعة للثانية بعد نصف الليل ؟ ان هذه الفورة المفاجئة مذهلة للغاية . فلو كانت سولانج اوضح تعبيراً عن شعورها في احاديثنا الماضية لما خامرتني بصدقها هذا الشك . ومن المؤسف ان تدفع هذه الصغيرة المسكينة الآن ثمن تكتمها وتحفظها . وقد يكون هذا منتهى الجور . ولكن ما حيلتي ؟

اني اقبل حبها .

اقبل الدخول الى دنيا الراجبات .

وهي واجبات عذبة ، لاني احب سولانج . إلا انها واجبات على كل حال . ولم اكن قط من الناجحين في القيام بالواجب .

والخلاصة ، اني اقبل بهذا الحب ، بكل احترام ، وبكل وقار وجد ، بوقاري المتقطع ، ولحكنه الناشط دائماً اذا دعت الحاجة ، حتى في اللحظة الاخيرة ، وب... لا تحضرني الكلمة اللازمة ، اود لو اشير الى ان حبها لا يزعجني ، والى اني اكلقاء بأكثر من القبول : اني استقبله مرحباً به .

والآن ، فلننظر الى شيء آخر ، الى لامبالاتها حيال وفاة ابيها ما افسى هذه الملاحظة في نهاية رسالتها . كل ما فيها من الرقة موجه اليّ وحدي . اني اخجل بها ، اخجل بها عن نفسي وعن سولانج . ومع ذلك ، فهي فتاة رائعة . ولا ريب في ان اباهما لم يكن من النوع الذي يجب ابتناؤه . هذه هي الطيبة . وغداً ، سيكون برونيه بكل لطفه وظرفه ... ولكن اعتياد الطبيعة لا يتم بلا ألم . يريد الناس ان لا نستشيط غيظاً إلا حيال الامور الاستثنائية ، مع ان الامور العادية

---

١ - توقف المؤلف ولم يفسح عن رأيه في ابنه ، إلا ان قوله واضح الدلالة على التعريف من ان يصبح برونيه بالنسبة اليه كسولانج بالحب الى ابيها .

هي الخيفة .

كلما كنت ازور ارملة او يتيماً مات فقيدهما منذ قليل ، ولم يكن  
من الذين ابالي بهم ، كنت احس بانني اشد تأثراً - بصدق واخلاص -  
مما كان يجب ان أتأثر ؛ كنت ابدو كأنني القي عليها درساً . وكأنا  
دائماً البادئين بمواصلة الحديث وتفسير الموضوع .



من  
إيلر كوستال  
بولور  
إلى  
سولانج دلتون  
باريس

٢٠ ثور ١٩٢٧

هدوءاً ، يا ابنتي . هدوءاً ، هدوءاً ، هدوءاً بلا نهاية للفتيات  
الصغيرات . ما هذا الهديان ؟ إن الحرشوف يحافظ دائماً على رباطة  
جأشه .

طلبتِ إليّ الأمان ، فما أنا أصطيكه . فهدوءاً يا ابنتي الصغيرة الحبيبة .  
هدوءاً في الحاضر . هدوءاً في المستقبل ، إلى أبعد ما يطيب لك أن  
أكون في هذا المستقبل . هدوءاً كلياً ومطلقاً . المرحّ المرح ، وطلاقة الفكر  
في الثقة والهدوء .

ضممتك إلى قلبي ، في ندوة عزلي ، وكنتِ هناك وحيدة ، مع أنك كنتِ  
محاطة بي . وفي وسعك أن تبقي ما هنا ما طاب لك البقاء ، فلن أتركك .  
أحبك ، والشيء الأندر من حيي أنني أحب تعلقك بي . لن أتخلي عنك ،  
ما لم تتغلي أنت عني .

سمعت أنه يجب أن نوضع كل امرأة في مثل حالك على حك التجربة .  
ولكنني لن أجرب من أحب .

وسمعت أن الرجل يخسر المرأة إذا أحبها أكثر من الندوم ، وأن

التظاهر بالبرودة ، من حين الى آخر ، اكثر فائدة ، الى آخره . ولكنني  
لن ألعب هذه اللعبة معك . لن ألعب معك مطلقاً . لست من الذين  
يعتبرون الحب حرباً . اني امقت هذا المفهوم بشدة . ليكون الحب حباً  
حقيقياً ، اعني ليكون هدوءاً او فليزُل .

لم هذا الخوف من سكوتي ؟ ما الذي يستطيع وجودي ان يقدمه لك  
اكثـر من هذا السكوت ؟ انت ها هنا ، يا حقا ، ألا تعلمين ذلك ؟ في  
النهار تلسابن الى جانبي بلطف كظللٍ صغير . وكل مساء ارقد وانت  
معي بين ذراعي .

وجسدي ايضاً يفكر بك . يستيقظ ليلاً ويهفو اليك ، كما يمد الكلب  
رأسه طالباً ان يشرب .

اردت ان اتابع تسلسل الاشياء التي تشغل بالك كما هي واردة في  
رسالتك ، فحدثتك اولاً عنك وعني ، وهما انا اقول الآن كلمة في  
ايبك .

أكنت تحبين اباك ؟ لا ادري . اما انا فقد رأيتـه مرتين فاحببته .  
أكنت تحترمين اباك ؟ لا ادري . اما انا فقد رأيتـه مرتين فاحترمته .  
احسست بأنه شخصية تفوقك قدراً .

انك لا تفكرين إلا بي ، مع انك لا تعرفيني إلا معرفة زهيدة .  
فالطريقة اللامبالية التي تحدثت بها ، في رسالتك ، عن وفاة ايبك ، اثرت  
حنفي ، على الرغم من اني ادرك سببها . اجل ، اني ادرك سببها بكل  
تأكيد ، ومع ذلك فقد اثرت حنفي . انك « مغرمة » ، وهذه حقيقة لا جدال  
فيها . ولكن الحب ليس عنراً لك ، بل يزيد خطأك فداحة ، تماماً  
كحالة السكر التي يعتبرها القضاء المريض سبباً مخففاً ، وهي من اهم  
اسباب الادانة .

هل قدر لي ان أفهمك ما كان يتحلّى به ابوك من المزاج ؟  
اريد ان تكوني ما يجب عليك ان تكوني . ولا يجوز ان تكوني



تماماً تلك التي كتبت رسالتها الأخيرة اليّ .  
دعينا من هذا . اني اقبلك ، يا ابنتي الصغيرة . قد يحبك رجال آخرون  
أكثر مما احبك . اما انا فاحبك بقدر ما أستطيع ان احبك . ليس في  
وصفي ان احبك أكثر .

ك

ملاحظة : ان تقتبط رسالتك مؤسف ، ولا عذر لك فيه .



من  
بيار كومستال  
تولوز  
الى  
الآنسة راجيل فيلي  
باريس

٢٠ ثور ١٩٢٧

عزيزتي غيفيت ا

الفضى شهران دون ان نلتقي ، ودون ان اكتب اليك ا  
عندما التقيت الملاك الذي تمرفين ، ساورني رغبة في التخلي عنك ،  
فالمسار الذي يحمل في الشعب يطرد منه مساراً آخر ، لمت بيننا ويساراً  
فتف حيي التي سكنت قد نثرتها في كل مكان ، لأضعها كلها في الملاك ،  
ولاجعل من هذا الملاك شيئاً قوياً ، كما تجمع المدسة خيوط النور . لقد  
دمتني هذه المفامرة ، فامتلات بها . لكن مجرد الظن باحتمال اكتفائي بهذا  
الملاك هو جهل للطبيعة برمتها ، لا لطبيعتي وحسب . فالطبيعة تقوم بوظائف  
عديدة ومختلفة ، والرجل الموهوب يحذر حدودها ، ففيه ، كما في الطبيعة ،  
امكنة لكل شيء . فالملاك هو ما هو ، وانت شيء آخر ، وهذا رحمة  
يكفي ليثير رغبتني في اخذك انت ايضا . اني انتظر اذاً من جيل  
معروفك انت تفرحي باستعادة مركزك بين مسراتي .

تذكيرين ، طبعاً ، اني كنت اتوقع هذه العودة ، ولكني كنت اظن  
انها ستم بعد ان اكون مشيت الملاك . ولكن العكس هو الذي حدث ،

فلم يخامرني قط ، في ما مضى ، ما يخامرني الآن من الشعور بالحب الجدي ،  
العميق ، المتين لللاك ، فعطفي عليه يقوم على ركنين وطيدتي النعائم ، هما :  
الاحترام والشهوة . وفي هذا التيار الجارف الذي يدفعني اليه ، هذه الايام ،  
خصوصاً بعد ان تلقيت منه رسالة امس ، رجعت الى عبقريتي الخاصة  
في الحياة ، واعتصمت بالمبدأ الأعلى الذي يوجب عليّ ألا تكون في  
حياتي امرأة واحدة .

رفضاً عن ذلك ، فاني احب الذكاء . ولهذا السبب ، مهما تكن  
بمجموعة عشيقاتي قامة ، يجب ان تكون لي فيها خلية يهودية ،  
فهي تساعدني على احتمال الانحرافات .

سأكون في باريس في ٢٥ تموز . فتعالى الثلاثاء ، في ٢٦ ، يوم عيد  
القديس برنابا ، الساعة الثامنة مساءً ، الى بور رويال ، فنتعشى معاً ، ثم  
نرث ما ساذين .

الى اللقاء ، يا عزيزتي . ادغدغ راحة يدك ، واقبلك ، لانت شهوتي  
رقية ، كما تعلمين . وانت ايضاً امرأة طيبة ، ولهذا السبب كان عطفي  
عليك صادقاً وحقيقياً . ولكن استمدتي منذ الآن لتجعليني سعيداً .  
عندما افكر بك فلتأبني رعشة من السرور اللسم ، شبيهة بحبيبة  
المتصوفين ، او بنهاية القلب .

واخيراً ، فبعد مرحلة طويلة من السمو غدت اُتوق الى حب غير  
مجرد من الغاية للتنفيع ، وحبك من هذا الطراز .

ك

من  
بياتر كوستال  
تولوز  
الى  
الآنسة دي بيرون دي لانشان (١)  
كان  
« ومنما الى اردني »

٢٠ تموز ١٩٢٧

يا هري الصغير !

لا اريد ان أفاور في الشؤون المتعلقة بك على غير علم منك ؛ بل  
اكثر من ذلك ؛ اني عاجز عن القيام بمنورة من هذا النوع . فاعلم اني  
كتبت الى الآنسة دي بيرون ، منذ خمسة ايام ، لاسألها هل أثبتت علما  
قبيحا جداً ، ورجوت منها ان تقول لي الحقيقة ، فلجأبني بان لا شيء  
جديد في مجرى حقاقتك المألوفة .

واليك بسبب كتابتي اليها :

لا يمر بي يوم دون ان افكر بك طويلاً ، والفترة التي افكر خلالها  
بك هي افضل فترات يومي ، مها تكن الفترات الاخرى حافلة بالهناء .  
ولكنني هذه المرة رأيتك في الحلم . حلمت بانك رأيت خزانة الآنسة  
دي بيرون غير مغلقة ، فلغتنمت هذه الفرصة ورسحت تبحث فيها وتأخذ

---

١ - آنسة عجوز ، صديقة كوستال ، عهد اليها بالسهر على ولده . راجع الحلقة الاولى  
من هذه السلسلة : « المصليات » . - المؤلف .

منها بعض النقود . وقد كان هذا الحلم مدهشاً ، ومعقولا ، ومنسجما من اوله الى آخره ، حتى اني ساءلت نفسي أيكون بمثابة انذار لي ، فكتبت فوراً الى الأنتة دي بيرون اسألها عن جلية الخبر .

احدث هذا الحلم تأثيراً عميقاً في نفسي ، فاقلقتني وشوش انكاري ، فادركت بقوة لم اعلمها من قبل كم تكون الصدمة قاسية ، والحيلة مرة ، اذا غدوت لا تستطيع احترامك .

ثم اشخاص عديدون اعطف عليهم . ولكن هذا العطف ، وإن يكن حقيقياً ، يصل الى حد معين ولا يتجاوزه ، كسيارة نعلم ان في جوفها كمية محدودة من الوقود . اما عطفي عليك ، فبخلاف ما ذكرت ، لا يصطدم بشيء ، ولا يقف مطلقاً عند حد معين . انه من نوع آخر بالغ القوة والسور .

فالعطف الذي امكنه لبعض الاشخاص يحتمل التخطي عنهم ، ولا يتأذى اذا ضايقتهم ، وحتى اذا جرحتهم ، فاستطيع ان اراهم في الضحك دون ان اتألم ، ودون ان اعمل شيئاً لانقاذهم . اما عطفي عليك فلا يحتمل شيئاً من هذا . لم يخطر لي مرة في حياتي ان احاول ازعاجك ، او ان اتردد في حمايتك مما يزعجك اذا كنت قادراً على هذه الحماية ، او ان ابعثك لتتظر السرور الذي استطيع ان اعطيه فوراً . فعطفي عليك من نوع آخر بالغ القوة والسور .

عندما اخرج من الجو الذي يخلقه حولي اولئك الاشخاص وادخل في جوك ، يبدو لي كل شيء بسيطاً كما يبدو لي أنت . ذلك اني أحبك ، أنت ، حبا حقيقياً ، ولا شيء أبسط من الحب ، كما ان لا شيء يبسط الامور والاشياء كالحب .

ولكن العطف الذي امكنه لك ليس معصوماً من الاختلال . فعطفي على الاشخاص الآخرين مرهون بهم ، فقد يرتكبون خطأ يجعلهم غير جديرين به فانزعجه منهم ، وهو مرهون ايضا باحوالي النفسية ، بطبعي ،

بسأمي ، بضرورات عملي وحريتي . اما عطفي عليك فمهرن بمشيتك  
وحذك . اعني اذا قدر له ان يضعف ، فلن يكون ذلك إلا اذا غدت  
انت غير جدير به .

هناك نوع من المعجزة : فمذ خمس عشرة سنة ، او بالحري منذ ثمانى  
سنوات ، اى منذ بلغت من القهم ، لم اجد فيك ما يحملني على توبيخك ،  
او الى لومك . لم تقم بعمل واحد سيء الي . اني انظر الى هذا الواقع  
كما ينظر المرء الى الألعاب الخطرة التي يقوم بها يهاوان ، فانخاطب نفسي  
قائلا : « اللهم ان يستمر هكذا حتى النهاية ! » وما انا اقول لك الآن  
بكل مسا أوتيت من القوة : تبدل ، لان كل شيء في الطبيعة يتبدل ،  
ولأن من كان في مثل سنك يستطيع التبدل في خمسة عشر يوما ، تبدل ،  
ولكن في جوهره ابقى كما انت . لتكن في سديك نواة متينة ثابتة لا  
تحول ولا زول ( اسأل الآلهة دي يرون ان تشرح لك ما هو السديم ؛  
كان في وسمي ان اشرحه لك ، ولكن الشرح يزعجني الى اقصى حد ) .  
انت تعلم ان هناك حقولا واسعة من الحماقات اسمح لك بان ترتع فيها ،  
وهذا ما لا يسمح به أب لابنه ، لاعتقادي ان هذه الحماقات لا تزل في  
ما هو جوهري . فاحذر ان تمس الاشياء الجوهرية .

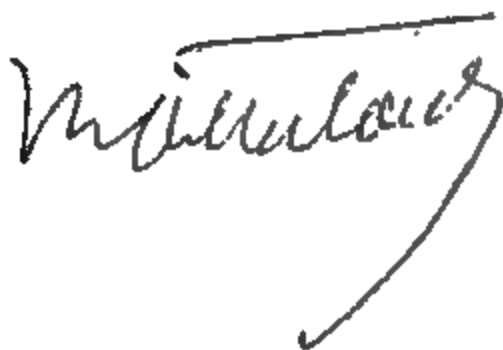
ان ما تهفو اليه نفسي بكل ما فيها من فوق هو ان اصل الى حالة  
لا يخطر ببالي فيها انه من المحتمل ان يساورني قلق عليك ، في ما  
ينملى بقيمتك ، فتكون لي الهدوء التام ، والأمان التام .

ان حالة كهذه يكون لي فيها شخص آخر غير نفسي الهدوء التام  
والأمان التام هي حالة استثنائية خارقة لا يستطيع ان تصورها ، لأنها  
تكاد تكون من غير هذه الارض . ولكن ، لتكن لي هذه الحالة ، منك  
انت ، ومنك وحذك ، ولا حاجة لي الى الآخرين .

انت الخلق الوحيد الذي يجعلني استقر ، انا العاجز عن الاستقرار  
على احد . والحقيقة هي اني لا احب سواك ، لان الحب لا يعني إلا

هذا العطف الذي يمضي الى اللانهاية ، والذي يمكن ان يُطلب اليه ما لا  
نهاية له دون اقل ارتباك ، كان تطلب الى البحر قطرة ماء .  
اذا 'قدّر هذه العاطفة التي أكتها لك ان تنهار ، أو ان تمتم ، فان  
وجودي برمته يُتم وينهار فاصبح عطلاً .  
عندما يحب المرء شخصاً لا يضطر الى مصارحته بحبه : لنترك هذا  
للأشياء الثانوية . وانت تعلم اني لا افتحك مطلقاً بحبي . ولكن هذا الحلم  
ارعبني ، فشعرت بحاجتي الى ان اضع لك بضع كلمات على الورق .  
فاحتفظ بهذه الورقة ( وربما كنت اطلب اليك الكثير ) ولننتقل الى  
حكاية دراجتك الهوائية ١ :

. . . . .



---

١ - لا علاقة لبقية هذه الرسالة بسياق قصتنا . - المؤلف .

من  
الآنسة فرانسيل بروس  
دارج سلبان الحقول الصخرة  
باريس  
الى

السيد جان بيكار (١)  
فندق السيد بيكار كوستال  
دارج هنري مورتان  
باريس

٢٠ ثور ١٩٢٧

سيكو ا

ها انا وحيدة في المقهى ، كما كنت يوم الاحد الفائت ، لأنك  
هجرتني . اني انتظرك منذ ستة ايام . لما معنى سكوتك ، يا صغيري ؟  
اذا كنت لا تريد ان تراني ، فلماذا دعوتني ؟ قل لي ، أراك هزئت  
لي ؟ لا اقبل بقطيعة من هذا النوع ، يا صديقي . يجب ان نلتقي ، ألقهم  
ما اقول ؟ قتال الثلاثاء ، الساعة العاشرة مساء .

أندري متى ادركت للمرة الاولى انك شبع مني وغدوت تريد هجري ؟  
كان ذلك في الميارو ، ونحن عائدان من الحانة . اردت ان اقبلك ، فاشعت  
عني . قلت لك : « ألم تعد تحبني ؟ » فاجبت : « بلى ، ولكن لا تقبليني  
مكثا في الميارو ، فهذه قلة ادب » . قلت لك : « أينجلك هذا التصرف ؟ »  
قلت لي : « أجل ، انه يجعطني » . وكان موقفك في منتهى الوضوح .

١ - خادم كوستال . المؤلف .



اقول اليك ان تكون شهماً في تصرفك معي . انني ضحية جنوني  
في سبيلك . كنت اشتهي ان احبك ، ان اوجهك قليلاً في هذه الحياة .  
فانت في العشرين من العمر ، وانا في الخامسة والعشرين ، ولكن تجاربي  
وخبرتي اوسع بكثير من هذا الفرق في السن بيننا .

آه ارضيت بان انمي لنفسي فكرة الزواج بك ، لانك لا تريد ، ولكن  
في وسعنا ان نبقى معاً ، او ان نلتقي يوم الاحد ، فهذا افضل من  
لا شيء . وما انت الآن لا تريد شيئاً . انت حراً ولكنك ستندم  
يوماً على مجري . كان من الممكن ان يكون شباك سعيداً كلها . لكنك لم  
تفهمني . وعراني أقام اليوم اكثر مما تأملت في حياتي كلها . فقلبي يقطر  
دماً في عزله ، وفي انتظاري الدائم ، وعجزني عن حلك على ان تفهمني .  
اسمع يا بجاك : لعل مرة اخيرة ، فادعك بعدها حراً ، تفعل ما  
يطيب لك .

اذا كنت لا تستطيع ان تأتي غداً ، فساقتظرك طوال الاسبوع  
حق الاحد .

اطبع قبة على عينيك اللتين احبها .

مرسيل

( بعيت هذه الرسالة بلا جواب )

نم كتاب « رافة بالنساء » ويليهِ كتاب « شيطان الخير » .

منشورات عويدات ١٩٨٧/٨٥٤

# Montherlant      Pitié pour les femmes

Texte traduit en arabe  
par  
Georges MASROUA

MARIANNE / OUEIDAT  
Beyrouth



Henry de Montherlant  
Pitié pour les femmes

 Universitäts- und  
Landesbibliothek Bonn



0351299

